

طفيليات العقل

ترجمة: محمد درويش

علي مولا

رواية

طفيليات
العقل

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Mind Parasites
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الكاتب
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

طفيليات العقل

رواية

كولن ولسون

ترجمة

د. محمد درويش

مراجعة

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-393-0

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

"ينبغي لي ، قبل أن أموت ، أن أجد طريقة ما لكي أعبّر من خلالها عن الأمر الضروري الكامن في أعماقي والذي لم أعبّر عنه حتى الآن. الأمر الذي ليس حبّاً أو كراهيةً أو شفقةً أو سخريةً ، بل نسغ الحياة العنيف القادم من مسافات بعيدة والذي يمنح الحياة البشرية القوة الهائلة والمخيفة التي تتمتع بها الكائنات غير البشرية".

برتراند راسل

رسالة إلى كونستانس ماليسون

1918

عن كتاب تطوري الفلسفي ، ص 261

مقدمة المترجم

يقول كولن ولسن في خاتمة كتابه الموسوم **فن الرواية** الذي نقلناه إلى العربية في العام 1986 : "إنّ معظم الناس يتعلمون من روايتهم الأولى أكثر مما يتعلمونه من أي رواية أخرى". ثم يضيف قائلاً : "ولم أكن أنا استثناءً من هذه القاعدة. كانت رواية **يولسيس** **إنجيلي** في أواخر الأربعينيات. ولما التحقْتُ بالقوة الجوية في العام 1949 كان معي رواية **دكتور فاوست** المنشورة حديثاً لتوماس مان وستشرق الشمس **أيضاً** لهيمنغواي و**سهرة فنيكان** لجويس. وقد تركت هذه الروايات أثراً كبيراً في نفسي ، إذ سحرني هيمنغواي بحسن استعماله أدوات التعبير، ومان لأنّه قدّم رواية الأفكار العظيمة والوحيدة منذ الحرب. أما جويس فيبدو واضحاً أنّه أدرك أنّ الطريق إلى الأمام لا بد أن يمر عبر الأفكار، ولم تكن سهرة فنيكان محاولةً لإنشاء وحدة نهائية من الأفكار والوجود".

كتب كولن ولسن روايته الأولى من العام 1949 ، يوم كان في الثامنة عشرة من عمره. ونُشِرَت بعنوان **طقوس في الظلام** بعد مضي أكثر من عشر سنوات على كتابتها. ويوضح ولسن أنّ الرواية التي كان يفكر في كتابتها ترتكز على سلسلة من المواجهات بين القيم المزيفة والواقع القاسي. لهذا السبب ارتبطت رواية **طقوس في الظلام** ارتباطاً وثيقاً بكتابه التالي **اللامنتمي** الذي نشره وهو على وشك الاحتفال بذكرى ميلاده الخامسة والعشرين. وقد حققت رواية **اللامنتمي** نجاحاً هائلاً أصاب كلاًّ من مؤلفها وناشرها بالدوار فقد نفدت الطبعة الأولى منها في غضون يومين. ومرّت بضعة أسابيع قبل أن تصل الطبعة الثانية إلى المكتبات ، على حدِّ تعبير ولسن.

وإذا كان كولن ولسن معروفاً بين قراء العربية بروايته الذائعة الصيت **ضياع في سوهو**، فإنّ كتبه الأخرى، وهي تربو على الستين كتاباً، لا تقل عنها أهمية. بل نراه في الواقع مؤلفاً عدداً من الكتب الممتازة في الفلسفة والموسيقى والمسرح والنقد الأدبي وعلم النفس، إضافة إلى روايات الخيال العلمي والجاسوسية والكتب البوليسية الرومانسية.

ومن هذه الكتب: **دائرة معارف الجريمة** 1961، **راسبوتين وسقوط آل رومانوف** 1964، **البراندي المطلوب – مقالات موسيقية** 1964، **مقدمة في الفلسفة الوجودية الجديدة** 1966، **ستراندبيرك – مسرحية** 1968، **برنارد شو – إعادة تقييم** 1969، **معالم جديدة في علم النفس** 1972، **هرمان هيسه** 1973، **العباقرة** 1976، **أسرار – مسرحية** 1979، **الحرب ضد النوم – بحث في فلسفة كرديائيف** 1980، **قلعة فرانكنشتاين** 1981، **دليل الاحتمالات** 1981، **الطريق إلى العوالم الخفية** 1982، **تاريخ الجريمة في الجنس البشري** 1983، **جراح الشخصية** 1985 وغيرها.

أما روايته **طفيليات العقل** التي ننقلها كاملة لقراء العربية فهي تجمع بين عناصر الإثارة والتشويق والخيال العلمي. وهي تتحدث عن مجتمع تكنولوجي متقدم في زمن المستقبل – في مطلع القرن الحادي والعشرين – يمتلك وسائل تكنولوجية وعلمية خارقة، إلا أنّ الرواية تمتلك بعداً آخر لا يقل أهمية عن البعد الأول. ويتمثل هذا البعد في الاتكاء على بعض الموضوعات السيكولوجية التي تُعنى بدراسة خوارق العقل والتي تدرج عادة تحت باب الباراسيكولوجيا، وهو فرع حديث نسبياً من فروع علم النفس مغرق إلى حدٍّ كبير بحدس وتأويلات قدرات العقل الإنساني الخاصة. ويمكن أن نلاحظ أنّ هذه

الرواية تركز في أغرب جوانب هذا العلم المسماة السيكوكينيسيس ويرمز له ببي. كاي. عادة ويخص إمكانية التخاطر الذهني من بعد وقدرة العقل أساساً على تحريك الأجسام المادية مهما كانت كبيرة، عن طريق الإيحاء والتأثير الذهني للإنسان. فأبطال الرواية مثلاً يمتلكون قدرة ذهنية على تحريك صخرة وزنها عشرات الأطنان دون استخدام أية وسائل علمية أو رافعات، وهذا يدفعهم إلى سلسلة من التجارب تنتهي بإبعاد القمر عن الأرض تماماً ودفعه إلى المجموعة الشمسية.

أما بناء الرواية فيتخذ إطار الرواية الوثائقية التي تستند إلى مجموعة من المستنسخات والمخطوطات والمذكرات والتسجيلات الصوتية، إلا أنّ هذه في الواقع لا تعدو كونها مجرد خدعة فنية، فالرواية تمتلك رغم هذا المظهر بناء سردياً تضامنياً، إلا أنّ كل هذه العناصر الوثائقية تدخل ضمن نسيج العالم الروائي.

بالرغم من أنّ الرواية تبدأ باهتمامات ذات طابع آثاري أركيولوجي، إلا أنّها سرعان ما تنتقل إلى اهتمامات ذات طابع سيكولوجي بحت، يتركز في الإيحاء بوجود ما يسميه المؤلف طفيليات العقل داخل العقل البشري التي تقوم بتدمير قوى الإنسان العقلية ودفعه إلى الجنون والانتحار. لذا يخوض أبطال الرواية حرباً طويلة ومعقدة ضد هذه الجيوش اللامرئية من طفيليات العقل التي تتخذ أساليب واستراتيجيات مختلفة، منها امتلاك عقول بعض القادة السياسيين والعسكريين ودفعهم إلى شن حروب خطيرة. وفعلاً تحدث هذه الحرب بين قوتين عسكريتين يكون دافعها فعالية طفيليات العقل. ثم تُحسم بالقضاء على هذه الطفيليات. ورغم أنّ الرواية تنتهي إلى النجاح النسبي الذي يحققه الأبطال – وهم نخبة النخبة من العقول

البشرية فقط – تتخذ الرواية مساراً جديداً ينتهي بفقدان السفينة الفضائية التي تقل جميع أبطال الرواية الرئيسيين تاركين وراءهم أسئلة صعبة ومعقدة.

د. محمد درويش

مقدمة تمهيدية

إن **طفيليات العقل** عبارة عن وثيقة مؤلفة من مختلف الأوراق وأشرطة التسجيل وتقارير عن أحاديث الأستاذ جلبرت أوستن الذي خصّص مجلّدًا من موسوعة **تاريخ كمبريدج للعصر النووي** لمعالجة موضوع الطلبيات. وقد نشرت الطبعة الأولى التي وصل حجمها إلى نصف حجم الطبعة الحالية بعد وقت قصير على اختفاء الأستاذ أوستن في العام 2007 وقبل أن تعثر بعثة القبطان رامزي على السفينة **بالاس**. وتتألف الطبعة أساساً من الملاحظات المدونة بطلب من العقيد سبنسر وشريط التسجيل رقم 12 إكس. أم. من مكتبة جامعة لندن. أما الطبعة اللاحقة التي تدور أحداثها في العام 2012، فتحتوي نسخة من حديث سجلته لزلي بيرفشن في 14 كانون الثاني عام 2004 . وقد أدرجت ضمن هذه النسخة مادة تتألف من مقالتين كتبهما أوستن لمجلة هيستوريكال ريفيو ومن مقدمة كتاب كارل وايزمن الموسوم **تأملات تاريخية**.

وتحتفظ النسخة الجديدة بالنص القديم كما تتضمن مادة جديدة تماماً مأخوذة مما يسمى بملفات مارتينوس التي ظلت السيدة سيلفيا أوستن تحتفظ بها لسنوات عدّة ثم أصبحت الآن محفوظة في الأرشيف الدولي للتاريخ. وقد أوضح المحررون في الهوامش[1] المصادر التي اعتمدت عليها الأجزاء المختلفة واستخدموا الملاحظات الخاصة بالسيرة الذاتية التي كتبها أوستن في العام 2001، والتي لم تُنشَر حتى الآن.

(1) الهوامش المشار إليها محذوفة من هذه الطبعة (الناشر الإنكليزي).

ولا تستطيع أي طبعة من طفيليات العقل أن تزعم أنّها طبعة نهائية، إذ إنّ هدفنا ترتيب المادة بشكل يجعل منها سرداً مستمراً. وقد أضيفت إليها مواد مأخوذة من أوراق أوستن الفلسفية حيث ساد الاعتقاد بضرورة إضافتها، وكذلك مقطع مأخوذ من مقدمة وفاء لادموند هوسرل الذي حرره أوستن ورايش. ويبدو السرد في نظر المحررين داعماً للآراء التي ذكرت في ضوء جديد على لغز بالاس. إلا أنّه ينبغي التأكيد أنّ ذلك لم يكن هدفهم، إذ حاولوا إدراج المادة الضرورية كلها معتقدين أنّ الحق في هذا الزعم سيثبت عندما تنهي جامعة نورث ويسترن طباعة كتاب الأوراق الكاملة لجيرت أوستن.

اج. أس/دبليو. بي
جامعة سانت هنري/كمبريدج
عام 2014

يمثل هذا الجزء من الكتاب النص الكامل الذي سجله الدكتور أوستن على شريط كاسيت قبل اختفائه بأشهر قليلة وتولى تحريره رئيس قسم الأرشيف الدولي لمادة التاريخ جاي. أف. سبنسر، الذي يحتفظ بأوراق الدكتور أوستن.

❖ ❖ ❖

ليس لهذه القصة المعقدة بداية واضحة. كما أنّني لا أستطيع تنفيذ مقترح العقيد سبنسر الذي يفيد بضرورة "البدء من البداية والاستمرار حتى النهاية طالما أنّ التاريخ يحفل بالمنعطفات". ولعل أفضل خطة لي هي أن أسرد قصتي الشخصية في المعركة ضد طفيليات العقل تاركاً للمؤرخين إكمال الصورة من بعدي.

ولهذا تبدأ قصتي في العشرين من كانون الأول عام 1994، عندما عدت إلى منزلي إثر اجتماع لجمعية علماء الآثار في مدينة مدلسكس حيث ألقيْتُ محاضرة عن حضارات آسيا الصغرى القديمة، وكانت تلك الأمسية من أكثر الأمسيات إثارة ومتعة، إذ ليس هناك متعة أكبر من متعة الحديث في موضوع أثير إلى النفس أمام جمهور متشوق دوماً. إضافة إلى ذلك، فقد انتهى العشاء باحتساء الشراب الفرنسي الذي يعود تاريخه إلى ثمانينيات القرن العشرين. ومن المفهوم تماماً أنّني كنت في أكثر الحالات الذهنية انشراحاً وانسجاماً عندما أدخلت المفتاح في قفل باب شقتي في منطقة كوفنت غاردن.

كان جهاز الهاتف التلفزيوني يرسل رنيناً أثناء دخولي، بيد أنّه توقف قبل وصولي إليه. ولما نظرت في شاشة التسجيل لاحظت أنّها سجلت رقماً في هامستيد، فأدركت أنّه رقم كارل وايزمان. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين وكنت أشعر بالنعاس، لذا قرّرْتُ أن أتصل به في صباح اليوم التالي. غير أنّني شعرت ببعض القلق، وأنا أخلع ملابسي قبل الذهاب إلى سريري. لقد كُنّا صديقين منذ زمن طويل، وغالباً ما كان يتصل بي في ساعة متأخرة من الليل طالباً أن أبحث له عن موضوع ما في المتحف البريطاني — حيث كنت أقضي معظم فترة الصباح — إلا أنّ القلق انتابني في هذا الوقت بسبب منبّه عقلي باهت، فذهبت إلى الهاتف واتصلْتُ به.

رنّ الجرس فترة طويلة، وكنت على وشك أن أنهي المكالمة عندما برز وجه سكرتيره وهو يقول:

— هل سمعت النبأ؟

فسألته:

— أي نبأ؟

— لقد توفي الدكتور وايزمان!

فانتابني ذهول تام اضطررت معه إلى الجلوس، وتمالكت نفسي أخيراً كي أسأله:

— وكيف لي أن أعلم؟

— لقد نشرت الصحف الخبر.

فأخبرته أنّني عدت تواً إلى البيت. فقال:

—حاولت الاتصال بك طيلة المساء. هل تستطيع الحضور إلى هنا مسرعاً؟

– ولكـن ما السبب؟ هل هناك شيء أستطيع القيام به؟ هل السيدة وايزمان على ما يرام؟

– لقد أصيبت بصدمة.

– ولكن كيف توفي؟

فقال بومكارت دون أن يتغير صوته:

– لقد انتحر.

أتذكـر الآن أنـّني ظللـت أحـدق إلـيه بانـشداه لـثوانٍ معـدودة. ثـم هتفت:

– ما الذي تقوله بحق الشيطان؟ مستحيل!

– لـيس هـناك أدنـى شـك. أرجـو أن تتفـضل بالحـضور إلى هـنا، بأسرع وقت ممكن.

ثم شرع بقطع الاتصال، فصرخْتُ به:

– هل تريد أن تصيبني بالجنون؟ قل لي ماذا حدث؟

– لقـد تـناول الـسم. هـذا كـل مـا أستطيع قوله. وقد ذكر في رسالة تـركها أنـّه ينبغـي لـنا الاتـصال بـك فـوراً. لـذا أرجـو أن تتفضل بالمجيء، فنحن في حالة إعياء شديد.

استدعيْتُ واسـطة نقـل عمـودية وارتـدَيْتُ ملابـسي وأنـا في ذهول تـام، وقلـت لنفـسي إنّ مـا حـدث مـستحيل. فقـد عـرفُتْ كـارل وايزمان طيلة السنوات الثلاثين الماضية، منذ كُنّا طالبين في أبسالا. لقد كان رجلاً رائعـاً تماماً: ذكـي، حـاد الملاحظة، صبور، ويتمتع بقدرات عظيمة. لا يعقـل أن يقـدم رجـل مثله على الانتحار. لقد كنت مدركاً تماماً أنّ معدل الانـتحار في العـالم تـضاعف خمسين مـرة مـنذ أواسـط القـرن. كما يقدم علـى الانـتحار في بعـض الأحـيان أشـخاص لا نـتوقع مـنهم أبـداً القـيام

بـذلك. وإذا مـا قـال لي شخص من الأشخاص أنّ كارل وايزمان انتحر، فـذلك يشبه القول إنّ 1 + 1 = 3. فهو لا يحمل في أعماقه ذرة واحدة من رغـبة تـدمير الـذات. كمـا أنّـه مـن أقـل الـناس عـصابية ومـن أكثـرهم كمالاً.

فهـل يعقـل أن يكـون الأمـر حادثـة قـتل؟ وهـل اغـتاله عمـيل مـن عملاء سلطات آسيا الوسطى؟ فقد أصبح الاغتيال السياسي علماً محدداً في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي. كما أنّ وفاة هاملمان وفيلر علمتـنا أنّ العـالم الـذي يعيش في ظل ظروف أمنية دقيقة جداً ليس بمنأىً عـن الخطـر. غـير أنّ كـارل وايـزمان كـان عالمـاً نفـسانياً ولم تكـن لديـه ارتـباطات بالحكومة، من أي نوع كان، فدخله يأتي من مؤسسة صناعية كـبيرة تدفع له المال من أجل اختراع وسائل مكافحة العصابيات ووسائل زيادة الإنتاجية.

كـان بـومكارت في انـتظاري عـندما هـبطت طائـرة الأجرة العمودية فوق السطح. ولما أصبحنا بمفردنا بادرته بالسؤال:

– هل يمكن أن تكون وفاته نتيجة حادث اغتيال؟

فأجابني:

– لـيس ذلـك بالأمـر المـستحيل، ولكـن لا يـوجد أي دافـع لـذلك. فقـد ذهـب إلى غـرفته في الـساعة الثانـية مـن بعـد الظهر لكي يكتب بحثاً، وطلـب ألا يزعجه أحد. كانت نافذته مغلقة، وبقيت جالساً أمام منضدة المكـتب في الغرفة المؤدية إلى غرفته طيلة الساعتين اللتين أعقبتا ذلك. وفي الـساعة الـرابعة أحـضرت لـه زوجته الشاي فوجدته ميتاً. وقد ترك رسالة مكتوبة بخط يده، وكان قد شرب السم وأعقبه بقدح من الماء.

بعـد مـرور نـصف سـاعة أصـبحْتُ مقتـنعاً بـأن صـديقي أقـدم فعـلاً على الانتحار، وإلاّ فإنّ الاحتمال الوحيد الآخر هو أن يكون بومكارت

قد قتله، الأمر الذي لم أستطع تصديقه، سيّما وأنّ بومكارت يتمتع بهدوء السويسريين ورباطة جأشهم، غير أنّه بدا على وشك الانهيار، وهو أمر لا يستطيع أي رجل أن يجيد تمثيله. إضافة إلى ذلك، هناك الرسالة المكتوبة بخط كارل والتي أصبح تزويرها صعباً بفضل جهاز المقارنة الإلكتروني الذي اخترعه بوميروي.

تركت ذلك البيت الكئيب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل دون أن أتحدث مع أي شخص سوى بومكارت. ولم ألق نظرة على صديقي الميت فذلك أمر لم أكن أرغب فيه على أيّ حال، إذ سبق أن قيل لي إنّ وجه الشخص الذي يموت جراء تناول سم الساينايد يثير الهلع. وكان وايزمان قد حصل على الأقراص التي تناولها من مريض عصابي في صباح ذلك اليوم. كانت النسخة عن الرسالة الأصلية التي أخذها رجال الشرطة والتي لا تتضمن أي كلمة تبعث على الندم جراء الإقدام على الانتحار، مكتوبة بخط مرتعش غير أنّها دقيقة، إذ أشارت إلى كيفية توزيع ثروته بين ابنه وزوجته، كما ورد فيها ضرورة استدعائي حالاً للعناية بأوراقه، وورد فيها أيضاً أنّ مبلغاً من المال سيمنح لي، ومبلغاً آخر في حال نشر هذه الأوراق. وقد أثبت التحليل الإلكتروني وجهة نظري في هذا الشأن صباح اليوم التالي.

لقد كانت رسالة غريبة تماماً، تتألف من ثلاث صفحات، بدت مكتوبة بهدوء. ولكن لماذا طلب ضرورة استدعائي فوراً؟ هل يعني ذلك أنّ أوراقه كانت تحتوي الدليل؟ لقد أشار بومكارت إلى مثل هذا الاحتمال وقد أمضى فترة المساء وهو يدرسها، ولكنه لم يعثر على أي دليل يبرر طلب كارل بضرورة الاستعجال. وكان الجزء الأكبر من الأوراق يتعلق بشركة الحاسبات الإلكترونية الأنكلو هندية وهي الشركة التي كان يعمل لحسابها. وكان من شأن هذه الأوراق أن توضع، تحت

تصرف موظفي الأبحاث في الشركة. أما بقية الأوراق فكانت عن علم النفس الوجودي والمعاملات الماسلوفية وما إلى ذلك، وهي تصلح، بدورها أن تكون كتاباً حول استعمالات المخدرات.

أما أنا فقد عثرت على دليل في الكتاب الأخير. فعندما كنت برفقة كارل في أبسالا، قضينا وقتاً طويلاً نناقش مشاكل معنى الموت وحدود الوعي الإنساني. وكنت آنئذٍ منهمكاً بكتابة أطروحة عن كتاب الموتى المصري. وقد انصبّ اهتمامي على رمز الليل البهيم للروح والمخاطر التي تواجهها بعد خروجها من الجسد، وهي في رحلتها أثناء الليل الطويل إلى أمنتيت. وقد أصرّ كارل عليَّ في ذلك الوقت أن أطّلع على كتاب الموتى لأهالي التيبت، وهو كتاب يختلف تمام الاختلاف عن سابقه، ثم أعقد مقارنة بين الاثنين. ويدرك اليوم أي دارس لهذين الكتابين، أنّ كتاب التيبت يعد وثيقة بوذية لا تحمل في طياتها الدينية أي شبه بكتاب المصريين القدامى. وشعرْتُ أنّ عقد المقارنة بين الاثنين مضيعة للوقت وتمرين في الحذلقة. وعلى أي حال، فقد أفلح كارل في إثارة بعض اهتمامي بكتاب التيبت مما دفعنا إلى قضاء أمسيات في مناقشته. لقد كانت المخدرات في ذلك الوقت صعبة المنال تقريباً، منذ أن جعلها كتاب أولدس هكسلي عن المسكل، التقليد الشائع بين المدمنين. وعلى وجه العموم، فقد اكتشفنا مقالة كتبها رينيه دومال يصف فيها كيف أنّه أجرى تجارب مماثلة مستخدماً الأيثر. إذ غمس منديلاً في الأيثر ثم قربه من أنفه، ولما فقد وعيه سقطت يده، غير أنّه عاد إلى وعيه فوراً. وقد حاول دومال أن يصف رؤيته تحت تأثير الأيثر، وكانت فكرته الرئيسة تشبه الفكرة التي أثارها عدد كبير من الصوفيين، ويتمثل في أنّه بالرغم من كونه فاقد الوعي بفعل الأيثر، إلا أنّ لديه الإحساس بأنّ ما مرَّ به كان أكثر واقعية من تجربته اليومية في العالم. وقد اتفقت مع كارل

على أمر واحد – بغضّ النظر عن أي اختلاف في أمور أخرى – وهو أنّ حياتنا اليومية فيها صفة اللاواقعية، وأنّنا نستطيع أن نفهم جيداً شوانغ تسو الذي ذكر أنّه رأى في الحلم أنّه تحول إلى فراشة، وأنّه ليس متأكداً فيما إذا كان شوانغ تسو نفسه يحلم بأنّه أصبح فراشة، أو أنّه فراشة تحلم بأنّها أصبحت شوانغ تسو.

حاولت مع كارل وايزمان التجربة مع الوعي طيلة شهر كامل. وخلال عطلة الميلاد، حاولنا تجربة السهر مدة ثلاث ليال بتناول القهوة والتدخين. وكانت النتيجة حقاً إحساساً عقلياً يبعث على الدهشة. وما زلت أتذكر أنّني قلت لو أستطيع العيش على هذا المنوال طيلة العمر، فإنّ الشعر سيفقد قيمته لأنّني لا أستطيع أن أرى أبعد مما يراه أي شاعر. كما حاولنا إجراء التجارب مع الأيثر ورابع كلوريد الكاربون، إلا أنّ هذه الأمور كانت أقل أهمية لي. لقد شعرت حقاً بحالة هائلة من التبصر – وهي تشبه الحالة التي يمر بها المرء قبل أن يخلد للنوم – إلا أنّها كانت قصيرة الأمد ولم أستطع تذكرها بعد ذلك. لقد أصابني الأيثر بالصداع عدة أيام، ولهذا قررت التوقف عن مواصلة التجربة بعد ممارستها مرتين. أما كارل فقد زعم أنّ نتائجه تطابق ما توصل إليه دومال مع شيء من الاختلاف. ويبدو أنّني أستطيع أن أتذكر أنّه وجد فكرة مهمة للغاية تزاحم النقاط السوداء، ولكنه وجد أيضاً أنّ النتائج الفيزياوية التي تعقب التأثير مشوشة، فتخلى عنها. وفي فترة لاحقة، وبعد أن أصبح عالماً نفسانياً يمارس اختصاصه، وجد أنّه يستطيع الحصول على المسكل واقترح عدة مرات أن أقوم بإجراء التجارب على ذلك. إلا أنّه كانت لديَّ بعض المشاغل الأخرى في ذلك الوقت فرفضت. وسأتحدث الآن عن هذه المشاغل.

❖ ❖ ❖

لقد كانت هذه الفقرات الاعتراضية الطويلة ضرورية، لإيضاح السبب الذي جعلني أعتقد أنّني فهمت طلب كارل وايزمان الأخير مني. فأنا عالم آثار ولست عالماً نفسانياً. إلا أنّني بالرغم من ذلك كنت من أصدقائه القدامى كما شاركته في فترة من الفترات الاهتمام بمشاكل الحدود الخارجية للوعي الإنساني. ففي لحظاته الأخيرة، عادت الأفكار به إلى الليالي الطويلة التي قضيناها في الحديث في أبسالا وإلى احتساء الأعداد الكبيرة من أقداح الشراب في المطعم الصغير المطل على النهر، وإلى قناني الشراب التي كنا نرتشفها في الغرفة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وقد أثارني قلق لم أستطع معرفة كنهه، الأمر الذي جعلني أتصل بمنزل كارل في هامستيد عند منتصف الليل. ولكن لم يكن بميسوري الآن أن أفعل شيئاً إزاء ذلك. فآثرت نسيان الأمر. وفي الوقت الذي جرى فيه تشييع صديقي، كنت أقضي الوقت في جزر الهبريدز حيث استُدْعِيْتُ إلى هناك لفحص بقايا من العصر الحجري الحديث، ظلت محفوظة بصورة تدعو إلى الدهشة. ولدى عودتي وجدت عدة أدراج لحفظ الملفات عند البهو أمام باب شقتي. كان رأسي يمتلئ بأفكار عن إنسان العصر الحجري الحديث. وعندما ألقيت نظرة على الدرج الأول، وجدت كراساً عنوانه **الإحساس باللون لدى الحيوانات المتعطشة عاطفياً**، فأغلقت الدرج بعنف، ثم قصدت شقتي وفتحت المجلة الأثارية، فوجدت مقالة كتبها رايش عن التاريخ الإلكتروني لتماثيل البازالت الصغيرة الموجودة في معبد بوغازكوي. ولحماسي الشديد، اتصلت هاتفياً بسبنسر في المتحف البريطاني ثم هرعت لرؤيته، وقضيت الساعات الثماني والأربعين التالية بلا طعام أو شراب، وأنا أتفحص تماثيل المعبد والملامح المميزة للنحت عند الحثيين.

لقد أنقذ ذلك حياتي. إذ ليس هناك أدنى شك في أنّ أهالي مدينة ساثوغوان كانوا في انتظاري لمعرفة ما قمت به. ولحسن الحظ، كان رأسي يعج بالآثار عندما طاف ذهني برفق فوق بحار الماضي الواسعة وبين تيارات التاريخ. أما علم النفس فكان ينفر من ذلك. فلو أنّني أقدمت على دراسة أوراق صديقي بشغف وفتشت فيها عن دليل لمعرفة سبب انتحاره لأصابني مس من الجنون وانتهيت خلال ساعات قليلة.

وعندما أفكر في كل ذلك الآن تنتابني الرعشة. فأنا محاط بالعقول الشريرة والغريبة. كنت أشبه بغواص تحت البحر، استحوذ على ذهنه فجأة التفكير بالكنز الموجود في السفينة الغارقة، بحيث فشل في ملاحظة العينين الباردتين للأخطبوط الذي كان يترصده من الوراء. ولو كنت في حالة أخرى، لكان بمستطاعي رؤيتهما، كما فعلت في قره تبه فيما بعد. بيد أنّ اكتشافات رايش شغلتني تماماً وطردت من ذهني أي إحساس بواجبي إزاء ذكرى صديقي الراحل.

لقد استنتجْتُ أنّني كنْتُ تحت مراقبة مستمرة قام بها أهالي ساثوغوان عدة أسابيع. خلال تلك الفترة، أدركت أنّه يتعيّن عليَّ العودة إلى آسيا الصغرى إذا ما أردت حل المشاكل. ولا أستطيع إلا أن أشعر دوماً أنّ قراري كان بوحي من العناية الإلهية. ولا بد أنّه أكد لهؤلاء الأهالي الإحساس بعدم وجود ما يخشونه بشأني. ويبدو أن كارل ارتكب خطأ ولم يكن في وسعه اختيار منفذ آخر. لقد شعرت في الواقع بوخز الضمير – فيما يتعلق بأدراج الملفات – خلال الأسابيع الباقية لي في إنكلترا، وأجبرت نفسي مرة أو مرتين على النظر فيها. كنت دوماً أشعر بالامتعاض من الأمور المتعلقة بعلم النفس، مما جعلني أغلقها ثانية. وفي المرة الأخيرة التي نظرت فيها إلى الملفات، فكرت فيما إذا كان من الأفضل أن أطلب من القيّم أن يحرق هذه المواد في الفرن الكائن في

القبو. بيد أنّ الفكرة بدت لي لا أخلاقية تماماً مما جعلني أرفضها، وهو أمر أثار دهشتي قليلاً لظهوري بهذه النزاهة. ولم يكن يخطر لي بأنّني كنت صاحب الفكرة.

وتساءلت كثيراً منذ ذلك الوقت، كيف أنّ اختيار نفسي كمنقذ كان جزءاً من مخطط صديقي، وكيف أنّ قرار اللحظة الأخيرة اتُخِذَ في حالة يأس. ويبدو أنّه كان في وسعه أن يعيد التفكير فيه أو أنّهم كانوا سيعلمون بأمره. هل كان ذلك القرار ناجماً عن لحظة إلهام مفاجئ وإضاءة أخيرة من تلك العقول الذكية في القرن العشرين؟ من الجائز أن نعثر على الإجابة يوماً ما، إذا ما استطعنا الحصول على معلومات عن أولئك السكان. وأرغب في الاعتقاد أنّ الاختيار كان متعمداً وناجحاً، إذ لو كانت العناية الإلهية قد وقفت إلى جانبه في اتخاذ القرار، فإنّها حتماً كانت معي خلال الأشهر الستة التالية عندما فكرت بكل شيء ما عدا أوراق كارل وايزمان.

❖ ❖ ❖

عندما غادرت تركيا، أخبرت مالك شقتي أنّ بإمكان بومكارت أن يدخلها أثناء غيابي. فقد وافق على القيام بمحاولة أولى لتصنيف الأوراق. كما أنّني فتحت باب التفاوض مع ناشرين أميركيين ينشرون الكتب في علم النفس، وقد أظهروا اهتماماً بأوراق كارل وايزمان. ثم مضت بضعة أشهر لم أفكر خلالها بعلم النفس، إذ إنّ المشكلات التي تضمنتها قضية تحديد تاريخ تماثيل البازالت أخذت مني كل مأخذ. واستقر المقام برايش في مختبرات شركة اليورانيوم التركية، في ديار بكر. وكان اهتمامه الأساس منصباً حتى الآن، على تحديد تاريخ بقايا الإنسان والحيوان باستخدام غاز الأرغون. وبهذا الأسلوب أصبح المرجع العالمي الأول. وعندما حوّل اهتمامه من عصور ما قبل التاريخ

إلى عصور الحثيين إنّما كان يسبر غور حقلٍ جديد نسبياً. إنّ عمر الإنسان يبلغ مليون سنة. أما غزو الحثيين لآسيا الصغرى فقد حدث في العام 1900 ق.م. ولهذا السبب انتابه السرور لرؤيتي في ديار بكر، إذ إنّ كتابي الخاص بحضارة الحثيين، كان المرجع الأساس منذ نشره في العام 1980.

وجدت رايش إنساناً مدهشاً. فبينما كان عقلي يطوف في بلدي منذ فترة 2500 ق.م وحتى أواخر القرن العاشر الميلادي، كان عقل رايش في بلاده في الفترة الممتدة من العصر الفحمي فصاعداً. وكان في استطاعته التحدث عن العصر البلستوسيني – أي قبل مليون سنة فقط – وكأنّه يتحدث في التاريخ القريب. وقد شهدت في إحدى المرات، قيامه عرضاً بتفحص سن من أسنان الديناصور قائلاً إنّ ذلك السن لا يمكن أن يتجاوز عمره العصر الطباشيري، وهو عصر يضعه في أواخر العصر الترياسي الذي يسبقه بخمسين مليون سنة. كما أنّني كنت موجوداً عندما أكد عداد كايغر الخاص باكتشاف الجسيمات تكهنه ذلك، لقد كانت فطرته لمثل هذه الأشياء خارقة تماماً.

ولما كان لرايش دور مهم في هذه القصة، فإنّه يتعيّن عليَّ أن أذكر بعض صفاته. فهو رجل ضخم مثلي إلا أنّه لا يشبهني، حيث إنّ ضخامته ليست بسبب إفراط في السمنة، وهو يملك كتفي مصارع وفكاً ضخماً. أما صوته فيبعث على الدهشة برمته وارتفاع نبرته. وهو حسب اعتقادي ناتج عن التهاب في البلعوم أصيب به في طفولته. بيد أنّ الاختلاف الأساس بيني وبين رايش، يتمثل في نزعتنا العاطفية إزاء الماضي. فهو عالم مائة في المائة، والأرقام شغله الشاغل. وفي وسعه أن يحصل على متعة عظيمة من خلال الاستغراق في قراءة عمود من أعمدة كايغر، الذي يمتد فوق أكثر من عشر صفحات. وكان تأكيده المفضل أنّه

يتعيّن على التاريخ أن يغدو علماً. أما أنا فلم أحاول أبداً إخفاء الجانب الرومانسي القوي في تكويني. فقد أصبحت عالماً في الآثار بعد تجربة صوفية تقريباً، إذ كنت أقرأ كتاباً في حضارة نينوى للكاتب لايارد، كنت قد وجدته صدفة في حجرة النوم في المزرعة التي أقمت فيها. كانت بعض ملابسي معلقة على حبل الغسيل في باحة المنزل، عندما جعلني هزيم الرعد أهرع إلى خارج المنزل لجمعها. وكانت في الباحة بركة كبيرة من الماء العكر. بينما كنت أجمع ملابسي وعقلي ما يزال في نينوى، نظرت إلى البركة ونسيت في لحظة من الزمن أين أنا وماذا أفعل. وبينما أنا أنظر إلى البركة، فقدت البركة شكلها المألوف وأصبحت غريبة على مثل بحر فوق كوكب المريخ. وقفت أحدق إليها والقطرات الأولى من المطر بدأت تنزل من السماء لتعكر سطحها.

وفي تلك اللحظة مررت بإحساس غامر من السعادة والتبصر لم أشعر به من قبل. فقد أصبحت نينوى والتاريخ كله حقيقتين وغريبتين كالبركة. لقد أصبح التاريخ حقيقة بحيث شعرت بنوع من الاحتقار من وجودي ووقوفي هناك محملاً بالملابس. مكثت طيلة ذلك المساء أتجول كأنّني في حلم. ومنذ تلك الفترة أدركت أنّه يتعيّن عليَّ أن أكرس حياتي بحثاً في الماضي ومحاولة إعادة بناء رؤية ذلك الواقع.

سيظهر في الصفحات التالية أنّ لكل هذا علاقة بقصتي. وما يعني أنّ لكل مِنْ رايش ولي أنا شخصياً آراء مختلفة تماماً عن الماضي. وقد أخذ كل مِنّا يمتع الآخر بكشوفات صغيرة تخص مزاجينا الشخصيين. فالعلم حسبما يرى رايش يحتوي كل أشعار الحياة، والماضي ليس إلا المجال الذي يمارس فيه قابلياته. أما بالنسبة إليَّ، فإنّ العلم كان خادماً للشعر. وقد عزز هذا الرأي لديَّ أستاذي الأول السيّد جارلز مايرز، الذي كان يحتقر كل ما هو حديث. وتبدو رؤيته وهو ينقب في عمله أشبه

برجل انتفى وجوده في القرن العشرين، ينظر إلى التاريخ كنسر ذهبي يتربع فوق قمة أحد الجبال. لقد كان يحتقر كثيراً الجنس البشري، وقد شكا ذات مرة أنّ معظم الناس يبدون ناقصين وسطحيين إلى أبعد الحدود. لقد جعلني مايرز أشعر أنّ المؤرخ الحقيقي إنّما هو شاعر وليس عالماً. كما قال ذات مرة إنّ تأمل الأشخاص يجعله يحلم بالانتحار وأنّه لا يستطيع أن يحمل نفسه على القبول بأنّه إنسان إلا من خلال تأمل نشوء الحضارات وسقوطها.

أمضينا الأسابيع الأولى في ديار بكر في مناقشات طويلة بعد أن أصبح من المتعذر أن نواصل التنقيبات في قره تبه بسبب هطول الأمطار وكان رايش يحتسي الكثير من الشراب بينما كنت أشرب أرقى أنواع الشراب المحلي وهذا اختلاف آخر في المزاج كشفت عنه الأيام أيضاً.

ذات مساء، تلقيت رسالة من بومكارت وكانت مقتضبة جداً أشار فيها إلى أنّه اكتشف بعض الأوراق في درج ملفات وايزمان، جعلته يؤمن أنّ وايزمان أصيب بلوثة عقلية في الفترة السابقة لانتحاره، وأنّه كان يعتقد بأنّهم يدركون ما يقوم به وسيعملون على تدميره. وذكر بومكارت أنّه كان واضحاً من خلال النص أنّ كلمة هم لا تشير إلى الجنس البشري، وأنّه لهذا السبب قرّر عدم مواصلة مشاوراته بشأن نشر بحوث وايزمان في علم النفس، بل سيتركها حتى عودتي.

لقد كنت حقاً مندهشاً ومأخوذاً ووصلت مع رايش إلى مرحلة من العمل، شعرت فيها أنّ من حقنا أن نأخذ قسطاً من الراحة وأن نهنئ أنفسنا. لهذا السبب، كان المساء مخصصاً للحديث عن جنون وايزمان وانتحاره. وخلال الجزء الأول من المناقشة، حضر اثنان من زملاء رايش الأتراك من مدينة أزمير، وذكر أحدهما حقيقة غريبة هي أنّ معدل الانتحار في المناطق الريفية في تركيا قد ارتفع في السنوات العشر الأخيرة.

فأثار الأمر دهشتي، إذ بينما كان معدل الانتحار يزداد زيادة مطردة في المدن في معظم البلدان، كان سكان الريف عموماً بعيدين عن هذا المرض.

وقد دفع هذا الأمر أحد ضيوفنا وهو الدكتور عمر فؤاد، إلى إخبارنا عن الأبحاث التي كان يجريها قسمه عن معدل الانتحار عند قدماء المصريين والحثيين. وقد كشفت ألواح أرزاوا الأخيرة عن انتشار ظاهرة الانتحار أثناء حكم الملك مرسيليس الثاني 1334 – 1306 ق.م، مشيرة إلى ذلك بالأرقام.

مما يبعث على الاستغراب أنّ أوراق البردي التي اكتشفت في السويداء، أشارت إلى أنّ انتشار ظاهرة الانتحار حدث في مصر أثناء حكم حورمحب وسيثوس الأول، خلال الفترة الممتدة تقريباً بين 1350 و1292 ق.م. أما زميله الدكتور محمد دارغا، فكان معجباً بكتاب غريب من كتب الزيف التاريخي وهو **انهيار الغرب** لشبنغلر. أخذ يحاجج في أنّ ظاهرة الانتحار هذه كان من الممكن التوقع بها بدقة، استناداً إلى عمر الحضارة ودرجة تقدمها. لقد قدم استعارة غريبة حول الخلايا البيولوجية ونزعتها إلى الموت اختياراً، عندما يفقد الجسم قدرته على التنبه بواسطة المحيط الخارجي.

وشعرت أنّ هذا كله ليس إلا هراء، طالما أنّ حضارة الحثيين لم يتجاوز عمرها سبعمائة سنة في العام 1350 ق.م، بينما حضارة المصريين أقدم منها. واتّضح أنّ الدكتور دارغا له أسلوب دوغماني في إيضاح حقائقه، مما أثارني. فأحسستُ بالانفعال – وربما ساعد على ذلك الشراب الذي تناولته – وتحديت الضيفين في تقديم الحقائق والأرقام، فوافقا على أن يقوم ولنغانغ رايش بدور الحكم. ولما كان يتعيّن عليهما العودة إلى أزمير فقد طلبا الإذن بالذهاب مبكرين.

دخلت مع رايش في نقاش استحوذ عليَّ باعتباره البداية الحقيقية لقصة الحرب ضد طفيليات العقل. وتولى هو بعقله العلمي الثاقب، تلخيص محاسن نقاشنا الأولي ومساوئه ووافق على أنّ الدكتور دارغا يبدو وكأنّه يملك صفة التجرد العلمي. ثم واصل رايش حديثه قائلاً:

— فكر في الحقائق والأرقام المتوفرة لدينا حول حضارتنا. ما هو حجم المعلومات التي تقدمها لنا حقاً؟ كأرقام حوادث الانتحار مثلاً. ففي العام 1960 انتحر في إنكلترا مائة وعشرة أشخاص من بين كل مليون، وهو معدل يبلغ ضعف مثيله في القرن الماضي. وتضاعفت هذه النسبة مرتين في العام 1970 وست مرات في العام 1980.

كان رايش يتمتع بعقلية مثيرة للدهشة. وبدا كأنّه يخزن كل الإحصائيات المهمة للقرن في عقله. أما أنا فكنت أكره الأرقام. غير أنّ شيئاً ما حدث لي عندما كنت أصغي إليه، إذ أحسست بلمسة باردة في داخلي وكأنني أصبحت فجأة منتبهاً إلى عيني مخلوق خطير. حدث ذلك في لحظة من الزمن ولكنني وجدت نفسي أرتجف. فسألني رايش:

— هل تشعر بالبرد؟

فهززت رأسي منكراً. ولما توقف عن حديثه برهة من الزمن وأخذ يحدق إلى النافذة باتجاه الشارع المضيء الممتد من تحتنا، وجدت نفسي أقول له:

— عندما يكون كل شيء قد قيل. فإنّنا لا نكاد نعرف شيئاً عن الحياة البشرية.

فقال بمرح:

— إنّنا نعرف ما يكفينا للتواصل معها. وهذا كل ما نتوقعه. غير أنّني لم أستطع نسيان ذلك الشعور بالقشعريرة فقلت:

– على أي حال، فالحضارة نوع من الحلم. ولنفرض أنّ رجلاً استفاق فجأة من هذا الحلم، ألا يكفي ذلك لدفعه إلى الانتحار؟

وفي تلك اللحظة فكرت في كارل وايزمان. وأدرك رايش ذلك فقال:

– ولكن ماذا بشأن هذه الأوهام حول الوحوش؟

وهنا يتعيّن عليَّ الاعتراف أنّ هذا الأمر أخفق في الاستحواذ على ذاكرتي، غير أنّني لم أتمكن من التخلص من لمسة الكآبة الباردة التي خيمت عليَّ. إضافة إلى هذا، صرت الآن خائفاً تماماً، إذ شعرت أنّني رأيت شيئاً لا أستطيع نسيانه، شيئاً يتعيّن عليَّ العودة إليه. كما شعرت أيضاً أنّ في ميسوري الانحدار نحو أسفل التل في حالة رعب عصبي. لقد شربت نصف زجاجة من الشراب، ولكنني بقيت صاحياً تماماً رغم ذلك. وقد انتابتني فكرة غريبة وهي أنّ معدل الانتحار ازداد نتيجة زيادة إدراك آلاف البشر – كما هو شأني تماماً – لعبثية الحياة، مما جعلهم يرفضون مواصلة العيش. لقد بدأ الجنس البشري يصحو رويداً رويداً، وفي يوم ما سيصحو تماماً وسيحدث عندئذٍ الانتحار الجماعي.

أثارت هذه الأفكار الرعب فيَّ ووجدت نفسي مدفوعاً إلى العودة إلى غرفتي والتأمل فيها، بيد أنّني أجبرت نفسي رغم إرادتي على البوح بها لزميلي رايش. ولا أعتقد أنّه فهمها جيداً، إلا أنّه لاحظ أنّني كنت في حالة خطيرة. وبتفهم عميق ذكر الكلمات عينها التي كانت ضرورية لاستعادة هدوئي العقلي. والموضوع الذي ذكره، كان حول الدور الغريب الذي تلعبه الصدفة في علم الآثار. فقد أوضح كيف أنّ جورج سميث سافر من لندن والأمل يراوده في العثور على الألواح الطينية التي من شأنها أن تكمل **ملحمة غلغامش**، وكيف أنّه عثر عليها حقاً. كما تحدث عن القصة المستحيلة لاكتشاف شليمان مدينة طروادة

واكتشاف لايارد مدينة النمرود. ويتعيّن عليَّ أن أعترف أنّ علم الآثار يميل إلى دفع المرء للإيمان بالمعجزات.

وتابع حديثه قائلاً:

– ولكن إذا استطعت قبول ذلك، سترى حتماً إن كنت مخطئاً باعتقادك أنّ الحضارة نوع من الحلم أو الكابوس. فالحلم يبدو منطقياً أثناء استمراره، ولكن عندما نستيقظ، ندرك أنّه كان بلا منطق.كما أنّك توحي بأنّ أوهامنا تفرض منطقاً معيناً على الحياة. إن قصص لايارد وشليمان وسميث وشامبليون وراولنسن وبوسرت تناقضك تماماً. فهي قصص حدثت فعلاً، قصص واقعية من صميم الحياة تستفيد من الصدفة بطريقة لا يجرؤ عليها أي روائي...

كان على حق. وتعين عليَّ أن أوافقه القول. وعندما فكرت في القدر الغريب الذي قاد شليمان إلى طروادة ولايارد إلى النمرود، استعدت في ذاكرتي أمثلة مشابهة، مثل أول اكتشاف رئيس لي للنصوص المتطابقة بالفينيقية والسابقة للحثيين في قادش. وما زلت أتذكر إحساسي العارم بالقدر وبالخالق الذي يحدد نهاياتنا، أو على الأقل بقانون المصادفة الغامض الذي خيم عليَّ وأنا أكشف عن الألواح الطينية؛ إذ كنت أعرف حقاً وقبل نصف ساعة من اكتشافي هذه النصوص أنّني كنت على وشك أن أقوم باكتشاف عظيم في ذلك اليوم. وعندما تشبثت بمجرفتي في البقعة المختارة، لم يكن لديَّ أي إحساس بالخوف من أن يكون ذلك هدراً للوقت. وفي غضون أقل من عشر دقائق، أعادني رايش إلى حالة التفاؤل والسلامة العقلية التي لم أكن أعرفها. ولكنني ربحت المعركة الأولى ضد أولئك الساثوغوان.

"ملاحظة المحرر: من هنا فصاعداً، يلاحظ أنّ الشريط أضيفت إليه ملاحظات من السيرة الذاتية للأستاذ أوستن بإذن من أمين مكتبة جامعة

تكساس. وقد نشرت الجامعة هذه الملاحظة منفردة في كتاب بعنوان منوعات للأستاذ أوستن ولم أحاول استخدام هذه الملاحظات إلا لتوسيع المادة المشار إليها في شريط التسجيل والذي يحتوي على عشرة آلاف كلمة".

من المؤكد أن آلهة علم الآثار كانت إلى جانبي في ذلك الربيع. كما اشتغلت مع رايش بصورة مرضية تماماً حتى إنّني قررت الحصول على شقة في ديار بكر والبقاء فيها مدة سنة تقريباً. وفي الربيع، وقبل أيام قليلة من انطلاقنا نحو الجبل الأسود في قره تبه وصلتني رسالة من شركة ستاندرد موتورز أند انجنيرنغ وهي الشركة التي كان يعمل فيها سابقاً كارل وايزمان تفيد أنّ الشركة ترغب في إعادة جزء كبير من أوراق وايزمان إليَّ ولهذا فهي تستفسر عن محل إقامتي. فأبلغت الشركة أنّ الرسائل يمكن إرسالها بواسطة شركة اليورانيوم الأنكلو هندية في ديار بكر، وأنني سأكون شاكراً جداً لو أنّها قامت بإعادة أوراق وايزمان إلى عنواني في مدينة لندن أو إلى بومكارت الذي ما زال يقطن في هامستيد.

وعندما اقترب الأستاذ هلموت بوسرت من مشارف مدينة قادرلي، وهي أقرب مدينة إلى الجبل الأسود للحثيين في العام 1946، كانت رحلته شاقة فوق الطريق الموحلة. إذ كانت يومئذٍ مدينة صغيرة من مدن الأقاليم تخلو من أية خدمات للكهرباء. أما اليوم فهي مدينة مريحة هادئة وصغيرة وتحتوي فندقين ممتازين، ولا يستغرق الوصول إليها من مدينة لندن سوى ساعة واحدة بواسطة الطائرة الصاروخية. وقد استغرقت الرحلة من هناك إلى الجبل الأسود في قره تبه يوماً شاقاً آخر فوق طرق رعاة الأغنام، التي كانت تعج بالنباتات الشوكية. أما نحن فقطعنا المسافة بالطائرة العمودية من قادرلي إلى ديار بكر في ساعة واحدة، ثم إلى قره تبه حيث استغرقت الرحلة عشرين دقيقة أخرى. أما

معدات رايش الإلكترونية فقد نقلت بواسطة طائرة نقل قبل وصولنا بثمان وأربعين ساعة.

لا بد لي من الإشارة هنا إلى الهدف من وراء بعثتنا. فهناك أسرار تكتنف الجبل الأسود الذي يشكل جزءاً من سلسلة الجبال المقابلة لطوروس. لقد انهارت إمبراطورية الحثيين حوالى العام 1200 ق.م على أيدي أقوام كثيرة أهمهم الآشوريون. ورغم ذلك، فإنّ أطلال قره تبه تعود إلى خمسمائة سنة تالية لذلك. ما الذي حدث خلال تلك الخمسمائة سنة؟ وكيف استطاع الحثيون الاحتفاظ بجزء كبير من ثقافتهم خلال ذلك العصر المليء بالأحداث، في الوقت الذي كانت فيه عاصمتهم الشمالية في أيدي الآشوريين؟ تلك هي المشكلة التي كرست لها عشر سنوات من عمري.

لقد آمنت دوماً أنّه ربما كانت هناك مفاتيح أخرى مدفونة في أعماق الأرض وفي قلب الجبل الأسود، تماماً مثلما كشفت التنقيبات في إحدى الهضاب في بوغازكوي، عن أضرحة شعب متقدم جداً في مدينة يزيد عمرها ألف عام على حضارة الحثيين.

أما تنقيباتي في العام 1987، فكشفت في الحقيقة عن عدد من تماثيل البازالت الصغيرة التي كانت نقوشها مختلفة تماماً عن نقوش النحت عند الحثيين، والتي عُثِرَ عليها قريبة من سطح الأرض كالثيران الشهيرة والأسود وأبي الهول المجنح. فقد كانت هذه التماثيل مسطحة وذات زوايا وبدت بربرية إلى حدٍ ما، لكنها لا تشبه النحت الإفريقي الذي كان يقارن بها في بعض الأحيان. إذ كانت الرموز المسمارية على هذه الأشكال رموزاً حثية بلا أدنى شك وليست فينيقية أو آشورية. ولو لم تكن هذه التماثيل كذلك لاعتقدت أنّها تنتمي إلى حضارة موغلة أكثر في القدم. كما أنّ الكتابة الهيروغليفية كشفت عن مشكلة أخرى.

فمعرفتنا بلغة الحثيين شاملة منذ أبحاث هروزني. وبالرغم من ذلك، ما تزال هناك فجوات كثيرة وبخاصة في النصوص المتعلقة بالطقوس الدينية؛ إذ نستطيع أن نتخيل على سبيل المثال عالماً من علماء الآثار ينتمي إلى حضارة مستقبلية وقد صدم بنسخة من القداس الكاثوليكي بما فيه من علامات. وفي تلك الحالة فقد اعتقدنا أنّ الرموز الموجودة في تماثيل البازالت لا بد أن تكون متعلقة بالطقوس الدينية إذ إنّ حوالى خمسٍ وسبعين بالمئة منها كانت مجهولة لنا. وكانت إحدى الملاحظات القليلة التي تمكنا من قراءتها تقول: "قبيل أن يقطن بيتخاناس العظام" وأخرى تقول: "أدى تود الياس مراسم الزيارة لآبوذ المظلم". ومن المفهوم أنّ رموز الحثيين الخاصة بالظلام تعني أيضاً أسود وقذر ومنبوذ في اللغة الهندية.

أثارت اكتشافاتي تعليقات واسعة في عالم الآثار. وتمثلت وجهة نظري الأولى في أن التماثيل كانت تعود إلى حضارة سابقة لحضارة الحثيين، وتختلف اختلافاً كبيراً عن تلك التي اكتشفت في بوغازكوي والتي أخذ عنها الحثيون لغتهم المسمارية. لقد كان بيتخاناس من أوائل الحكام الحثيين عام 1900 ق.م. وإذا كان ظني صحيحاً، فإنّ الكتابة تعني أنّه عاش قبل الحثيين شعب آخر، أخذ عنهم الحثيون فيما بعد الكتابة. أما بالنسبة لتود الياس فهو حاكم آخر من حكام الحثيين في حوالى العام 1700 ق.م وقد ظهر أنّه من المحتمل أنّ الحثيين أخذوا طقوسهم الدينية عن الشعوب التي جاءت قبلهم، والتي كان آبوذ عندها أحد الآلهة.

وتفسيري المبدئي هو أنّ الحثيين أخذوا جزءاً من دينهم عن الذين سبقوهم في قره تبه، كما حفروا بعض الكتابات على التماثيل الحثية. ولكن كلما أمعنت التفكير في الدليل – وهو من التعقيد بحيث

تصعب الإفاضة فيه – ازددت ميلاً إلى الاعتقاد أنّ التماثيل ساعدت على كشف الوسيلة التي استطاعت فيها قره تبه البقاء مركزاً حضارياً، حتى بعد سقوط إمبراطورية الحثيين بزمن طويل. ما هي القوة التي ستجعل الغزاة بمنأى عنها طيلة تلك الفترة؟ السبب حتماً ليس قوة السلاح في هذه الحالة. إذ تكشف الأدلة في قره تبه عن حضارة فنية لا عسكرية. فهل هي مجرد اللامبالاة؟ ولكن ما هو السبب الذي يدفعهم إلى ذلك؟ لقد ظهر لي أنّه لم تكن هناك سوى قوة واحدة كانت مهيأة لكبح جماح شعب طموح ومحارب، ألا وهي قوة الخوف. لقد كانت قوة قره تبه وجيرانها تتمثل في الدين وممارسة السحر! وربما كانت قره تبه مركزاً معترفاً به من مراكز حضارة السحر شأنها شأن دلفي. ومن هنا جاءت النقوش البارزة للرجال ذوي رؤوس العصافير والمخلوقات الغريبة التي تشبه الخنافس والثيران المجنحة والأسود.

لم يتفق معي رايش ويتلخص اختلافه حول تحديد تاريخ التماثيل. فقد زعم أنّه بالرغم من كونها وصلتنا محفوظة بشكل جيد، إلا أنّها أقدم من حضارة الأقوام التي سبقت الحثيين بعدة آلاف من السنين. وأكد على صحة هذا التحديد باستخدامه جهاز تحديد الوقت النيوتروني. وكنت في الواقع أرغب في العثور على من يصحح لي معلوماتي. إذ لم أكن سعيداً جداً بتحديدي الشخصي المرتجل لتاريخ التماثيل. إلا أنّ ذلك يساعد على بقاء المشكلة عويصة. فبحسب معلوماتنا، لم تكن هناك أي حضارة في آسيا الصغرى قبل العام 3000 ق.م، وإلى الجنوب من ذلك يرجع تاريخ الحضارة إلى خمسة آلاف سنة ق.م ولكن ليس في تركيا. فمن الذي صنع التماثيل إن لم تكن الأقوام التي سبقت الحثيين؟ هل يعقل أن يكونوا قادمين من مناطق جنوبية أخرى؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن أين؟

واصل رايش عمله في جهاز تحديد التاريخ النيوتروني خلال الشهرين الأولين اللذين قضيتهما معه. واستخدم تماثيلي الخاصة مادة اختبار أساسية. بيد أنّ مصاعب لا معقولة ظهرت إلى الوجود. فقد بدا الجهاز دقيقاً جداً في ما يتعلق بعينات الأجزاء المكسورة من الأواني لكل من سومر وبابل، والتي كنا نملك الوسائل لتدقيق نتائجها. إنّ العاملين على الجهاز لم ينجحوا إلا قليلاً في التماثيل الصغيرة أو على الأقل كانت نتائجهم من الغرابة، بحيث يتضح أنّها غير دقيقة. لقد سلّط شعاع نيوتروني على الأجزاء الدقيقة من التراب الحجري في شقوق التماثيل وتجاويفها، ومن خلال تأمل هذه الأجزاء الصغيرة وتأثير عامل الطقس فيها، يصبح في وسع الجهاز إعطاء تخمين عن الزمن الذي نقشت فيه هذه التماثيل. إلا أنّ الجهاز فشل تماماً. فقد اتجه المؤشر إلى أقصاه – حوالى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد – وتحدث رايش عن زيادة مدى المؤشر بدافع حب الاستطلاع، لكي يرى التاريخ الذي سيتوقف عنده في نهاية المطاف. لقد عمل في الواقع على مضاعفة مداه بإحداث بعض التعديلات البسيطة عليه. بيد أنّ المؤشر استمر في تأشير الحد الأقصى دون تردد. ودهش رايش لذلك واعتقد أنّه ربما كان قد ارتكب خطأ في البداية. ربما لم يكن الغبار نتيجة النقش. وفي تلك الحالة يتضح أنّ الجهاز يحاول إعطاءنا تحديد عمر البازالت نفسه! وفي كل الأحوال، فقد ترك رايش لمساعديه مهمة إعداد قرص مدرج من شأنه الإشارة إلى أي شيء خلال مليون سنة، وهذه مهمة جسيمة تتطلب وقتاً من الزمن يستغرق معظم فصل الصيف. وبعد ذلك، بدأنا رحلتنا نحو قره تبه في محاولة للتنقيب عن جوهر المسألة.

❖ ❖ ❖

نعم جوهر المسألة.

يبدو الأمر غير معقول تماماً الآن وأنا أقص هذه القصة. كيف يمكن الركون إلى صفة بسيطة في ضوء هذه الحقائق؟ والآن أرى مشكلتين تبرزان أمامي: مشكلة انتحار صديقي ومشكلة تماثيل البازالت الصغيرة. وعندما أعود بذاكرتي إلى ذلك الصيف، يصبح من العسير عليَّ أن أؤمن بالحتمية التاريخية المادية.

واسمحوا لي بسرد الأحداث وفق تسلسلها. لقد وصلنا إلى قادرلي في السادس عشر من نيسان. وفي اليوم التالي نصبنا مخيمنا في قره تبه. ولم يظهر أي عائق يحول دون السفر يومياً من قره تبه إلى فندقنا الكائن في قادرلي وبالعكس. بيد أنّه كان يتعيّن على عمالنا البقاء في أقرب قرية، وقررنا لهذا السبب أنّه ربما كان من الأفضل لو قضينا معظم وقتنا في موقع التنقيبات. إضافة إلى ذلك، فقد ثارت نوازع الرومانسية ضد فكرة ترك المليون الثاني قبل الميلاد والعودة إلى أواخر القرن العشرين مساء كل يوم. ولهذا السبب فقد نصبنا خيمنا في بقعة منبسطة من الأرض قرب قمة الهضبة. وكان صوت نهر بيرامس يتناهى إلى أسماعنا في مجراه أسفل الهضبة. أما المسبار الإلكتروني فقد نصب على قمة الهضبة.

وهنا لا بد لي من تقديم بعض الإيضاحات حول هذا الجهاز الذي اخترعه رايش وأحدث ثورة في عالم الآثار. إن هذا الجهاز ليس سوى جهاز أشعة إكس، يعمل على الأساس الذي صمّم عليه مؤشر المناجم. بيد أنّ الأخير لا يقدر إلا على تحديد المعادن بينما أشعة إكس لا يوقفها شيء سوى جسم صلب وغير شفاف. ولما كانت الأرض صلبة وغير شفافة، فإن المبدأ القديم لأشعة إكس كان عديم النفع في علم الآثار. إضافة إلى ذلك، فإن الأمور التي أثارت اهتمام علماء الآثار – الحجارة والتربة وما شابهها – تتمتع بالبنية الجزيئية ذاتها

التي تتمتع بها الأرض المحيطة بها ولهذا فإنّه من الصعب ظهورها للعيان بواسطة أشعة إكس.

وكان من شأن التعديل الذي أدخله رايش على جهاز الليزر الإلكتروني أن يتغلغل إلى عمق ثلاثة أميال. كما أنّ المبدأ الذي تقوم عليه التغذية النيوترونية كان يعني أنّه سيشير إلى الحالات التي تتواجد فيها أحجار عادية، كحجر البلاط مثلاً. أما المشكلة الوحيدة فكانت تتمثل في الحفر عميقاً لغرض الوصول إلى ذلك الجسم وهو أمر ميسور طالما كنا نملك الرجل الآلي (الرابوط).

ولهذا ليس من الصعب تخيل حالة الانفعال التي انتابتني في ذلك اليوم الذي انطلقنا فيه إلى قره تبه. فقد أخفقت جهود الحفر التي استغرقت خمسة عشر عاماً، في الكشف عن وجود تماثيل بازالت أخرى أو تقديم أي دليل يوضح مصدرها. كما أنّ حجم التربة التي يتعيّن حفرها جعل المشكلة عويصة جداً. إلا أنّ جهاز رايش وضع حلاً لهذه المشكلة بطريقة بسيطة. وبالرغم من ذلك، فقد جاءت النتائج مخيبة للآمال في الأيام الثلاثة الأولى. إذ لم يكشف مسبار التغلغل تحت الحفريات القديمة أي شيء. كما ضاع نصف نهار آخر بسبب نقل المسبار إلى موقع آخر يبعد مائتي ياردة عن الموقع الأولي. وفي هذه المرة أيقنت أنّ شيئاً ما لا بد أن يظهر، إلا أنّ ظني قد خاب. وأخذت أنظر مع رايش نظرة ملؤها الحزن نحو السهل الممتد تحتنا ثم نحو المسبار الإلكتروني العملاق، وتساءلنا عن عدد المرات التي يتعيّن علينا فيها نقل المسبار من مكان إلى آخر قبل العثور على أية اكتشافات.

في الأمسية الثالثة زارنا اثنان من زملائنا الأتراك وهما فؤاد ودارغا، فقررنا العودة إلى قادرلي بالطائرة وتناول وجبة طعام في الفندق. وسرعان ما زال إحساسنا بالقلق الذي كان مبعثه شكوكنا من

أن يكونا جاسوسين لحساب الحكومة التركية. فقد كان هذان الرجلان يتقدان حماسة. وبعد وجبة دسمة من الطعام والشراب بدت خيبة نهار ذلك اليوم أقل أهمية. ولدى الانتهاء من الطعام انتقلنا إلى صالة الضيوف التي كانت فارغة آنئذٍ لنشرب القهوة والشراب. في ذلك الوقت بالذات شرع الدكتور محمد دارغا بإثارة موضوع الانتحار. لقد أتى مسلماً بالحقائق والأرقام هذه المرة. ولا أبغي هنا إثارة تفاصيل النقاش الذي دار بعد ذلك – إذ استمر حتى منتصف الليل – بل أنّ الأمر المؤكد هو أنّ نظريات دارغا عن التفسخ البايولوجي لم تكن بالجرأة التي أرادت أن تتسم به. فقد تساءل دارغا كيف يمكن تفسير هذه الزيادة الهائلة في معدل الانتحار في العالم، إذا ما بقينا متشبثين بوجهة نظرنا القائلة إنّها ليست سوى قضية عصاب حضاري، أو مبالغة في اتخاذ الاحتياطات الأمنية أو غياب الدافع الحقيقي. إلا أنّه ما يزال هناك تحدٍّ كبير في العالم الحديث. كما أنّ علم النفس حقق تقدماً هائلاً خلال السنوات الخمسين الماضية، وباتت نسبة الجرائم أقل كثيراً مما نتوقع حدوثها في عالم مزدحم بالسكان إلى حدٍّ كبير. لقد ارتفع معدل الجريمة والانتحار ارتفاعاً مطرداً في النصف الأول من القرن العشرين. فما هو السبب وراء انخفاض معدل الجريمة بينما ارتفع معدل حالات الانتحار ارتفاعاً مخيفاً؟ فقد كان للجريمة والانتحار صلة بعضها ببعض سابقاً. ففي النصف الأول من القرن العشرين، كانت نسبة عالية من حوادث الانتحار سببها الجريمة. حيث أنّ ثلث عدد القتلى أقدموا على الانتحار؛ إلا أنّ دارغا اعترض قائلاً إنّ هذه القضية ذات قانون غريب يخص الانحطاط التاريخي، ولم يشك فيه سوى شبنغلر. أما الأفراد فهم ليسوا إلا خلايا في جسد الحضارة الهائل وأنّ نسبة الانحطاط تزداد مع التقدم في السن.

لا بد من الإقرار أنّ دارغا أوشك على إقناعي. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف افترقنا نحن الأربعة كما افترقت طائرتانا العموديتان في ضوء القمر فوق قادرلي، وفي الساعة الواحدة كنا قد عدنا إلى موقع التنقيبات.

كانت الليلة جميلة والهواء مشبعاً برائحة الخوخ التي كان يطلق عليها الإغريق زهرة العالم السفلي. كما كان مشبعاً بالرائحة المميزة للشجيرات التي كانت تنمو فوق التل. أما الصوت الوحيد الذي كان يتناهى إلى أسماعنا، فهو صوت ماء النهر وهو ينساب في مجراه. وقد ذكرتني قمم الجبال برحلتي الأولى إلى القمر، حيث كانت الجبال هناك تتمتع بالجمال الميت والمحايد ذاته.

توجه رايش إلى خيمته وكان ما يزال يفكر في الإحصائيات التي قدمها دارغا. أما أنا فقد تسلقت الجبل ودخلت إحدى غرف البوابة العليا. ثم صعدت السلالم نحو قمة الجدار ووقفت أنظر إلى السهل الذي كان يسبح في ضوء القمر. وأعترف أنّني كنت في حالة من الرومانسية وشعرت بالحاجة إلى تعزيز تلك الحالة. لذلك، توقفت هناك لا أكاد أتنفس، وبدأت أفكر بالحرس الموتى الذين كانوا يقفون في المكان حيث أقف آنذاك، كما فكرت في أيام حكم الآشوريين في الجانب الآخر من تلك الجبال.

وفجأة انقلبت أفكاري وغلفتها روح التشاؤم وشعرت في وقفتي تلك، أنّني إنسان تافه لا معنى له، وأن حياتي كانت أصغر قطرة في بحر الزمن. وشعرت بغربة العالم من حولي ولامبالاة الكون بي. لقد بدت لي الحياة كأنها ليست أكثر من مجرد حلم لم يتحول إلى واقع بالنسبة إلى الجنس البشري.

كانت الوحدة قاتلة. لهذا أردت الذهاب والتحدث مع رايش إلا أنّ النور كان مطفأً في خيمته. وبينما أنا أبحث عن منديل في جيبي،

عثرت على لفافة تبغ سبق أن قدّمها لي الدكتور فؤاد. أخذتها منه تعبيراً عن الود لأنّني لا أدخن. وبدا لي أنّ رائحتها أخذت تنقلني إلى عالم البشر، فقررت أن أدخنها. وما إن استنشقت الدخان حتى ندمت. فقد كان مذاقها كريهاً لذا، وضعتها فوق الجدار بجانبي وواصلت التحديق إلى الوادي. وبعد بضع دقائق، دفعتني رائحتها إلى التقاطها ثانية. هذه المرة بدأت أدخنها على عجل، حتى إنّني ابتلعت الدخان. كانت جبهتي تتفصد عرقاً وتعين عليّ أن أنحني فوق الجدار. للوهلة الأولى، انتابني الخوف من التقيؤ وافتقاد الإحساس بلذة العشاء الفاخر. ثم بدأ الإحساس بالغثيان يتلاشى، إلا أنّ شعوري بالتلاشي تواصل.

في هذه الأثناء تطلعت إلى القمر ثانية، واجتاحني فجأة إحساس بخوف لا يمكن التعبير عنه. شعرت كأنني كمن يسير في نومه، وقد استيقظ ووجد نفسه يتأرجح فوق سلك معدني على ارتفاع ألف قدم. وبلغ بي الخوف حدّاً، شعرت معه كأنّ دماغي بدأ يتلاشى. وبدا ذلك الأمر صعب الاحتمال، وبذلت ما في وسعي لمقاومة ذلك وفهم أسبابه. كان الخوف مرتبطاً بهذا العالم الذي كنت أحدق إليه، وبإدراكي أنّني كنت مجرد جسم في هذه الطبيعة. كان الأمر من الصعوبة بحيث لا يمكن إيضاحه. بيد أنّني فهمت فجأة أنّ البشر استطاعوا البقاء دون أن تختل عقولهم، لأنهم كانوا ينظرون إلى العالم من خلال وجهة نظرهم الشخصية. كانت الأشياء تثير إمّا اهتمامهم أو خوفهم إلا أنّهم ظلوا يرونها وفقاً لشخصياتهم. فالخوف كان يجعلهم يشعرون بأنهم أقل شأناً، إلا أنّه لم ينفِ وجودهم نفياً تاماً. ما يدعو إلى الغرابة أنّه ولّد تأثيراً مضاداً يعزز من إحساسهم بوجودهم الشخصي. أما أنا فقد شعرت فجأة وكأنني مسحوب خارج ذاتي، لكي أراها قطعة ضمن هذا المنظر الطبيعي الشامل وعديم الشأن، كصخرة أو ذبابة. وقد قادني هذا

إلى المرحلة الثانية من التجربة وقلت لنفسي: "ولكنك بالتأكيد أكثر من مجرد صخرة أو ذبابة، بل إنك لست ببساطة جسماً من الأجسام. وسواء أكان الأمر وهماً أم لا، فإن عقلك يختزن معرفة العصور كافة. كما تحمل في أعماقك معرفة أكبر من تلك المعرفة الموجودة في المتحف البريطاني والمرصوفة فوق آلاف الأميال من رفوف الكتب".

كانت هذه الفكرة جديدة عليَّ إلى حدٍّ ما وقد جعلتني أنسى المنظر الطبيعي وأبدأ النظر إلى أعماقي. وهنا طرح السؤال التالي نفسه: إذا كان المكان غير محدود، فما بالك بالمكان الموجود داخل الإنسان؟ لقد ذكر بليك أنّ الأبدية تبدأ من مركز الذرة. لقد زال إحساسي بالرعب وبدأت أدرك أنّني مخطئ في النظر إلى نفسي كجسم في الطبيعة الميتة. كنت أفترض أنّ الإنسان محدود، لأنّ عقله محدود؛ غير أنّ الأماكن الموجودة داخل العقل ليست إلا آفاقاً جديدة وأن الجسد ليس إلا جداراً بين مطلقين؛ والمكان يمتد إلى المطلق باتجاه الخارج أما العقل فيمتد إلى المطلق نحو الداخل.

إنها لحظة الكشف ولحظة التبصر العارم. ولكن بينما كنت أقف في مكاني ناسياً كل النسيان العالم الخارجي، ومستجمعاً قواي كلها للنظر إلى هذه الأماكن الداخلية، أثار أمرٌ يكاد يستحيل وصفه، الرعب في نفسي، إذ بدا لي وكأنني لمحت من طرف عيني حركة مخلوق غريب. كانت تلك صدمة غريبة لي، تشبه الإحساس الذي ينتابك عندما تكون مسترخياً في حمام دافئ، وتشعر فجأة أنّ شيئاً ما قد مسّ ساقك.

وبلحظة واحدة، كانت الرؤيا قد تلاشت. وبينما أنا أنظر إلى قمم الجبال من فوقي وإلى القمر الذي كان يبحر فوقها، شعرت بلذة فرح، وكأنني عائد إلى بيتي من الطرف الآخر للكون. شعرت بالإعياء والدوار – إذ حدث كل شيء خلال دقائق خمس لا غير – فالتفت وقفلت

راجعاً إلى خيمتي ، وحاولت أن أنظر إلى أعماقي ثانية. وبدا لي أنّني نجحت في محاولتي. غير أنّي هذه المرة لم أشعر بأي شيء.

وعندما دخلت كيس النوم ، فقدت رغبتي في النوم ، وتمنيت لو أتيحت لي فرصة التحدث مع رايش أو أي شخص آخر. كان لا بد لي من التعبير عما أدركته فجأة. إنّ الإنسان يزعم أنّ عالمه الداخلي خاص به. وقد قال مارڤل: "إنّ القبر مكان خاص وجميل". ولدينا نحن الشعور ذاته فيما يخص العقل. إنّ حريتنا في العالم الواقعي محدودة. أما في الخيال ، فنستطيع أن نفعل كل ما نريده. والأكثر من هذا ، إنّنا نستطيع تحدي العالم واكتناه أسراره ؛ والعقل هو أكثر الأماكن خصوصية في الكون ، بل إنّه خاص جداً في كثير من الأحيان.

بالرغم من ذلك فإنني لا أستطيع أن أنسى شعور ذلك الأمر الغريب داخل عقلي. وقد عدت الآن للتفكير به ثانية ولم يبدُ لي مرعباً إلى ذلك الحد. وعلى أي حال ، فإنك لو دخلت غرفتك متوقعاً أن تجدها خالية تماماً ، ثم تجد شخصاً آخر فيها فإن ردّ فعلك الأول سيكون الخوف. فإذا كان ذلك الشخص لصاً ، فإنك ستواجهه كحقيقة وعندها يتلاشى احساسك بالخوف. والأمر المثير للرهبة أن ينتابك ذلك الشعور داخل دماغك.

وما إن شرع عقلي بالتحرر من الخوف وأخذ يهتم بالمشكلة ، حتى شعرت بالنعاس. ومن الأفكار الأخيرة التي راودتني قبل أن أستسلم للنوم نهائياً ، تمثلت فيما لو أنّ الأمر قد حصل كله بتأثير شرب القهوة التركية والسيجار.

وعندما استيقظت في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، أدركت أنّ ما حصل لم يكن بفعل ذلك التأثير. فقد كانت ذكرى ذلك الإحساس واضحة إلى حدٍّ غريب. ومع هذا ، دعوني أقول إنّ

مـا حـدث أشـعرني بـنوعٍ مـن الإثـارة ولـيس الـرعب. هـنا لا بـدّ مـن الإيـضاح. فالعـالم اليومـي، يـتطلب مـنا تركيـز انتباهنا والحؤول دون الغـوص في أعماقـنا. بـيد أنـّني رفـضت هـذا المـبدأ نظـراً لنـزعتي الرومانـسية. فأنـا أمـيل إلى الفوضـى في أعماقـي، ومـشاكل الحـياة ومتاعـبها تـزيد من ذلك. إن هناك قلقاً كامنٌ في أعماقي، وقد ذكرني ذلـك بـأن عالمي الداخلـي كـان يتساوى في أهميته وواقعيته والعـالم القائم من حولي.

حاولت التحدث إلى رايش في الموضوع وقت الإفطار، بيد أن شيئاً مـا حـال دون ذلـك، الخـوف مـن أن يخطئ فهمي. وقد لاحظ أنّني كنت شـارد الـذهن. فقلـت له بأنّني ارتكبت خطأً بتدخيني لفافة دارغا وانتهى الموضوع عند ذلك الحدّ.

في ذلـك الـصباح أشرفت على تحريك ونقل المسبار الإلكتروني إلى مكـان أبعـد مـن الـهضبة. وقـد ذهـب رايـش إلى خيمـته في محاولـة لإيجـاد وسـيلة أسـهل لـنقل الجهـاز. وكـان العمـال قـد نقلـوا الجهـاز إلى منتصف المسافة نحـو أسفل الهضبة وتحت البوابة السفلية. ولما أصبح الجهاز مهيأً، اتخـذت مكاني علـى المقعـد وقمـت بتنظيم الأزرار علـى الشاشة وبدأت التشغيل.

وسـرعان ما اكتشفت أنّني قد اصطدمت بشيء ما. فقد أظهر الخط الأبـيض الممـتد مـن أعلـى الـشاشة وحتـى الأسـفل تكـوراً واضـحاً في منتصف الطريق نزولاً. وعندما قطعت التيار الكهربائي انتشر هذا التكوّر مكـوناً خطـوطاً أفقـية متوازية. فأرسلت رئيس العمال في طلب رايش ثم بـدأت بتحـريك المنظم في الجهـاز بحـذر بحيث أخـذ المسبار يـدور حـول الجسم في جهات عدة. وأظهرت الشاشة أن هناك عدداً آخر من الأجسام المماثلة إلى يمين ذلك الجسم ويساره.

كانت هذه أول تجربة لي في اكتشاف الأشياء بالمسبار، ولهذا فإنه لم تكن لديَّ أي فكرة عن حجم الجسم الذي اكتشفته أو عمقه تحت سطح الأرض. وعندما جاء رايش مهرولاً بعد لحظة، ألقى نظرة على مفاتيح السيطرة وقال:

– أوه لقد حدث خلل في الجهاز.

– أي خلل.

– لا بد أنك حركت مفتاح السيطرة إلى أقصى حد مما أدى إلى حدوث انقطاع ما. وطبقاً لهذا، فإن الجسم الذي اكتشفته يقع على بعد ميلين تحت سطح الأرض وارتفاعه سبعون قدماً.

صعدت إلى المقعد حزيناً. صحيح أنّني لا أملك أي قدرة في معالجة الأجهزة الميكانيكية. إذ ما إن أشرع في قيادة أي سيارة جديدة إلا وتصاب بعطل خلال ساعات. كما وينفجر الصمام الكهربائي في الآلات، حالما اقترب منها بينما تكون بحالٍ جيّدة قبل ذلك. ولم أشعر أبداً أنّني ارتكبت هذا الخطأ، بيد أنّني كنت أشعر بالذنب دائماً.

أزال رايش قطعة معدنية وأخذ يحدق إلى الداخل. ثم قال إنّه لا يوجد ثمة عطل. ثم أضاف أنّه سيعمل على فحص جميع الدوائر الكهربائية بعد الغداء. وعندما اعتذرت له عن الحادث ربّت كتفي وقال:

– لا تقلق. لقد اكتشفنا شيئاً على أي حال. وعلينا الآن معرفة عمقه. تناولنا غداء بارداً جداً. ثم هرع رايش بعد ذلك إلى آلته. أما أنا فآثرت الاستلقاء فوق فراشي في ظل بوابة الأسد، لكي أعوض عن النوم الذي فقدته. وكان أن أخذت قسطاً هادئاً ومريحاً من النوم أستغرق ساعتين.

وعندما فتحت عيني وجدت رايش يقف إلى جانبي وهو يحدق إلى النهر. نظرت إلى ساعتي ثم اعتدلت من نومي بسرعة وقلت:

– لِمَ لمْ توقظني بحق السماء؟

وهنا جلس على الأرض بجانبي وقد أذهلني هدوءه.

– ما الذي حدث؟ ألا تستطيع أن تحدد الخلل؟

فنظر إليَّ بتأمل وقال:

– ليس هناك أي خلل.

ولكني أخفقت في فهمه وقلت:

– أتقصد أنك أصلحته؟

– كلا. لم يكن هناك أي خلل.

– حسناً. ذلك يبعث على السرور. ما الذي حدث إذن؟

– ذلك هو مصدر قلقي. لم يحدث أي شيء؟

– حقاً؟ إذن فأنت تعرف كم هو عمق الجسم.

– نعم. لقد اتضح العمق من خلال المؤشر وهو ميلان.

وهنا كظمت انفعالي فقد حدثت أشياء غريبة وقلت:

– ميلان؟ ولكن تلك مسافة غير قليلة تحت قاعدة التل. أقصد أن عمقاً كهذا سيأخذنا إلى الصخور العتيقة.

– المسألة نسبية. بيد أنّني ميال إلى الاتفاق معك في هذا، وإذا كان المؤشر دقيقاً بشأن العمق، فإنه دقيق أيضاً في تحديد حجم الكتل إذ لا يعقل أن تكون بعمق سبعين قدماً في حين لا تبلغ الأحجار التي بنيت بها الأهرام هذا الحجم.

وهنا قال رايش:

– إنني أتفق معك يا عزيزي أوستن تمام الاتفاق. ومع أنّ الأمر يبدو مستحيلاً إلاّ أنّني قد فحصت كل دورة في الآلة ولا أدري كيف أكون مخطئاً.

– هناك طريقة واحدة للتأكد من ذلك. أرسل بجزيئة إلى الأعماق.

– إنني على وشك أن أقترح ذلك. وعلى أي حال، إذا كان العمق يمتد إلى مسافة ميلين، فلا فائدة من إرسال الجزيئة.

– لماذا؟

– أولاً لأنه ليس مصمماً لقطع الصخر بل للمرور خلال التربة والطين. ومن المحتم أن الجزيئة ستصادف في طريقها صخرة ما خلال ذلك العمق.

ثانياً، وحتى لو لم تكن هناك أي صخرة، فإن ضغط التربة سيؤدي إلى تحطمها. إن الأمر يشبه الغوص مسافة ميلين تحت سطح البحر. وسيكون الضغط مساوياً لآلاف الأرطال لكل بوصة مربعة. وبما أن الحرارة سترتفع لمئات الدرجات في كل ميل، فإن الحرارة ستكون بالغة الشدة بالنسبة لجهاز كهربائي.

وهنا أذهلتني حقيقة جسامة المشكلة. فإذا كان رايش على حق فلن نتمكّن من الكشف عن هذه الأجسام، والتي تبدو وكأنّها أجزاء من سور إحدى المدن أو المعابد. فمع كل كفاءتنا الهندسية الحديثة، فإنّنا ما زلنا لا نملك آلات تستطيع العمل في ظل مثل تلك الحرارة وذلك الضغط وترفع كميات هائلة من الأنقاض عن عمق يمتد إلى ميلين.

عدت مع رايش إلى المسبار لمناقشة المشكلة. فإذا كان المسبار صحيحاً – وهذا ما ظنه رايش – فإنه قد أظهر مشكلة غريبة لعالم الآثار، إذ كيف يمكن للآثار أن تغرق تحت مثل ذلك العمق؟ لعل الأرض برمتها انخسفت أو غارت في عمق ما، ثم حدث أن امتلأت الفجوة بالماء والطين. ولكن هل يعقل أن يكون الطين على عمق ميلين؟ ولو كان ذلك صحيحاً، فكم من الوقت استغرق بلوغها هذا العمق؟ وهنا شعرنا أنّنا سنصاب بالجنون مما حفزنا للتوجه إلى الهاتف والاتصال

بزملائنا لاستشارتهم، إلا أن الخوف من أن نكون قد ارتكبنا عملاً أخرق حال دون ذلك.

وفي الساعة الخامسة كانت آلة الحفر جاهزة للانطلاق. وعندما بدأ رايش بتشغيل مفتاح السيطرة عن بعد، أخذت الآلة تهتز. توجهت نحو شاشة الرادار. وعند أعلى الشاشة ظهرت نقطة بيضاء لامعة، ثم أخذت تتحرك ببطء شديد إلى الأسفل. وبجانب شاشة الرادار كانت هناك شاشة تلفزيونية أظهرت مجرد خطوط متأرجحة، بدت وكأنها خطوط من الدخان. ومن وقت لآخر بدت بعض هذه الخطوط أدق فأدق في بعض المناطق، حتى اختفت نهائياً. وقد حدث هذا الأمر عندما اصطدمت الآلة بإحدى الصخور. والمعروف أن الآلة عندما تصادف جسماً يبعد حوالى عشرة أقدام تتوقف على نحو آلي فتقوم أشعة الليزر بقياس سطحه.

وبعد مرور ساعة من الزمان، كانت النقطة البيضاء قد سارت نصف المسافة إلى أسفل الشاشة، وهو عمق يبلغ مسافة الميل تقريباً. وكان سير النقطة بطيئاً جداً، فذهب رايش إلى المسبار وشغله. فما كان من الشاشة إلا أن سجلت وجود الآلة على مسافة ميل تقريباً. وفي الموضع نفسه وإلى الأسفل أظهرت الشاشة وجود أنقاض هائلة. فقد كان المسبار دقيقاً، وشعرنا جميعاً بالتوتر، فقد وقف العمال في مجموعة، وعيونهم شاخصة نحو شاشة الرادار. وكان رايش قد أوقف المسبار، طالما أن أشعته كانت تكفي لتدمير الآلة. لقد كنا نعرض للدمار آلة باهظة الثمن، وبالرغم من ذلك لم يكن هنالك من بدائل، فقد فحصنا المسبار مرات ومرات، ولكنه كان يشير بدقة إلى أن الكتل الهائلة ذات شكل أكثر أو أقل انتظاماً، وأنها كانت مرصوفة الواحدة جنب الأخرى. وقد بدا من المستحيل أن تكون تلك الصخور طبيعية.

وكـان مـن غـير المعقـول أن نخسر آلة الحفر. إذ إن المعدن الإلكتروني الـذي صنعت منه يستطيع مقاومة درجة حرارة مرتفعة تبلغ ألفي درجة ، وبيـنـت الـشركة المنـتجة لـه أن في وسـع الآلـة مـواجهة صـخور اللافـا البـركانية ، كمـا أن قـوة القشرة الخارجية هائلة ، حتى أن المنتجين ضمنوا مقاومتها للـضغط الـذي يـصل إلى طـن ونـصف الطن لكل بوصة مربعة. إلا أن وصـولها إلى الكـتل الـواقعة علـى عمـق مـيلين قـد لا يـسمح لهـذه المعـدات مقاومـة الحـرارة فـضلاً عـن أنّ احـتمال تجـاوز مقـياس جهـاز السيطرة عن بعد قد يلحق الضرر بالملقط.

وفي الـساعة الثامـنة والنـصف ، كـان اللـيل يرخـي سـدوله بيـنما آلة الحفـر اجـتازت نـصف المسافة. ولم يكـن يفصلها عن الكتل سوى نصف مـيل. فطلبـنا مـن العمـال الـتوجه إلى بيوتهـم إلا أن العديد منهم آثر البقاء معـنا. وأعـد لـنا الطـباخ وجـبة مـن الطعـام المعلب ، إذ لم يبدُ أنّـه في حالة تـسمح لـه أن يكلـف نفـسه عـناء إعـداد طعـام فخـم. وما إن خيم الظلام تمامـاً ، حتـى جلـسنا وأخـذنا نـصغي إلى الهمهمـة الـضعيفة الـتي كانـت تنـبعث مـن معـدات الـرادار ، كمـا أخذنا نراقب النقطة المضيئة أيضاً. وقد بـدا لـي أنّ الـرادار كـان يـتوقف أحـياناً ، إلا أن رايـش وهـو يملـك عيـنين أفضل مني أكد بأنه لم يتوقف.

وفي الـساعة العاشـرة والنـصف ، كـان آخر عامل قد توجه إلى بيته. أمـا أنـا فقـد تدثـرت بعـدد مـن البطانيات لأن الـريح ازدادت قـوة. وبينما استمر رايـش بالتدخين ، لم أدخن أنا سوى لفافتين اثنتين لا غير. وفجأة توقفت الهمهمة. فقفز رايش من مكانه وصاح :

— إنّـه هناك !

وهنا وجدت نفسي أصيح بصوت متحشرج :

— هل أنت واثق من ذلك.

– بلا شك أن الموضع صحيح وهو الآن فوق الكتل مباشرة. وما الذي سنفعله الآن؟

– الآن سنعمل على تشغيل الأداة الأوتوماتيكية الفاحصة.

عدنا لتشغيل الآلة مرة أخرى، وعيوننا الآن مثبتة على شاشة التلفزيون. كانت خالية من أي شيء ما يدل على أن الأداة الفاحصة كانت مجدية على الأجسام الصلبة والضخمة، فأعاد رايش ترتيب أجهزة التحكّم، وهنا أخذت الخطوط المتأرجحة بالظهور إلا أنّها كانت هذه المرة أدق وأكثر استقامة. فما كان من رايش إلا أن استمر في ضبط أزرار التحكّم، حتى أخذت هذه الخطوط تقترب بعضها من بعض، مما جعل الشاشة تبدو في نهاية المطاف أشبه بنموذج من الخطوط الدقيقة السوداء والبيضاء. إلى جانبها عدد من الندب السوداء والأخاديد في الصخرة. لقد كانت حماستي في الساعات القليلة الماضية عظيمة، بحيث أصبحت قادراً على النظر الآن إلى الندب بحماس أقل. إذ بدا من المستحيل أن أرتاب في ماهيتها، لأنّني رأيتها مرات عدة في السابق على تماثيل البازالت الصغيرة، وكنت أنظر إلى الرموز التي تشير إلى الاسم آبوذ.

ولم يكن أمامنا ما نقوم به. لذا صورنا الشاشة ثم توجهنا إلى خيمة رايش للاتصال بدارغا في أزمير، وفي غضون خمس دقائق كان رايش يتحدث معه، فأوضح له الموقف واعتذر منه على المغامرة التي قمنا بها بواسطة آلة الحفر – والتي كانت ملكاً للحكومة التركية – وأخبره أنّنا من المؤكد قد توصلنا إلى أن هذه الكتل تعود إلى حضارة الأقوام العظام المدونة على أحد التماثيل. انتابني الشك أن دارغا كان مخموراً إلى حدٍّ ما، إذ تطلب الأمر شرح الوضع بعض الوقت كي يفهم ما حدث، ثم اقترح بعد ذلك استدعاء فؤاد والسفر جواً للالتقاء بنا فوراً، بيد أنّنا

أقنعناه بعبث المحاولة إذ إنّنا كُنّا على وشك الذهاب للنوم. وقد أخبرنا أنّه يتعين علينا تحريك آلة الحفر لفحص الكتل التالية. وأشار رايش إلى استحالة ذلك إذ لا يمكن تحريكها نحو الجوانب، بل إلى الأمام والخلف ولا بد من سحبها من مكانها إلى مسافة حوالى مائة قدم ومن ثم توجيهها ثانية، الأمر الذي قد يتطلب ساعات عديدة. وأخيراً أقنعنا دارغا فقطعنا الاتصال بعد أن كان الإنهاك قد أخذ منا كل مأخذ ولكن بالرغم من ذلك، لم يشعر أحد منا بالرغبة في النوم.

ولما كان الطباخ قد ترك أدوات القهوة معنا، فقد استخدمناها وفتحنا زجاجة من الشراب. وأثناء جلوسي مع رايش في خيمته في منتصف ليلة الحادي والعشرين من نيسان العام 1997، ذكرت له التجربة التي مررت بها في الليلة السابقة. وأعتقد أنّني أخبرته بما جرى كوسيلة لطرد مشكلة الكتل التي تمتد مسافة سبعين قدماً تحت سطح الأرض عن أذهاننا. وأفلحت في ذلك إذ لم يجد رايش ولدهشتي الكبيرة، ما يثير الغرابة في الأمر. فقد سبق أن درس في الجامعة علم النفس للعالم يونغ، وأصبحت لديه فكرة عن اللاوعي العرقي. وإذا كان هناك من لاوعي عرقي، فإن العقول البشرية ليست أجزاء منفصلة بل هي جزء من قارة العقل العظيمة. ولما كان اطلاعه في علم النفس أوسع مني بكثير، فقد شرع بالاستشهاد بأولدز هكسلي الذي سبق له أن تعاطى عقار المسكل في فترة ما من أربعينيات القرن العشرين، وتوصل إلى النتيجة التي توصلت إليها ومفادها أنّ العقل يتوسع إلى ما لا نهاية في أعماقنا. ويبدو أن هكسلي قد ذهب بعيداً وتحدث عن العقل باعتباره عالماً قائماً بذاته تماماً كالعالم الذي نعيش فيه، كوكباً له غاباته وصحاريه ومحيطاته. وفي هذا الكوكب تعيش جميع المخلوقات الغريبة، وهو أمر من شأن الفرد أن يتوقعه.

عند هذه النقطة أبديت اعتراضي، ذلك أنّ حديث هكسلي عن المخلوقات الغريبة، إنما هو محض استعارة أو من قبيل المجاز الشعري، إذ تسكن العقل الذكريات والأخطار لا الوحوش، وهو أمر اهتز له رايش وقال:

– وكيف لنا أن نعرف ذلك؟

– إنّني أتفق معك في أنّنا لا نعرف ذلك غير أنّها مسألة بديهية.

وفكرت في التجربة التي مررت بها في الليلة السابقة، وشعرت أنّني لست متأكداً تماماً من نفسي. فهل المسألة بديهية؟ أم إنّنا أخذنا نفكر في العقل البشري بطريقة تشبه ما كان يعتقده أجدادنا في أنّ الأرض هي مركز الكون؟ إنّني أتحدث عن عقلي كما أتحدث عن حديقة بيتي الخلفية. لكن ضمن أي منظور تصبح حديقتي ملكي، وهي مليئة بالديدان والحشرات تعيش فيها دون إذن مني؟ وسوف تستمر في العيش فيها حتى بعد موتي...

ومما يدعو إلى الغرابة، أن قطار الأفكار هذا كان يبعث الارتياح فيَّ، إذ كان يفسر قلقي أو هكذا تراءى لي، وإذا كانت الشخصية الفردية وهماً من الأوهام وأن العقل بحر من نوع ما، فلم لا يحتوي على مخلوقات غريبة. وقبل أن أنام دونت ملاحظة كي تذكرني بطلب إرسال نسخة من كتاب أولدز هكسلي الموسوم **السماء والجحيم**.

أما أفكار رايش فقد أخذت منحى أكثر واقعية، إذ بعد عشر دقائق على افتراقنا صاح بي وهو في خيمته.

– أعتقد أن لدينا ما يبرر الطلب إلى دارغا إرسال حوامة لتحريك المسبار وهو أمر سيسهل علينا الحياة كثيراً. وبدا الآن من العبث أن أحداً لم يتوقع نتائج اكتشافنا. لقد توقعنا حقاً إثارة بعض الحماسة في دوائر الآثار. لقد نسي كل واحد منا ما حدث عند اكتشاف كارتر ضريح توت

عنخ آمون، أو عندما اكتشفت مخطوطات البحر الميت في قمران. إن علماء الآثار ميالون إلى غض أنظارهم عن عالم الاتصالات المكثفة وهستيريا الصحافة.

أيقظنا فؤاد ودارغا في الساعة السادسة والنصف قبل مجيء العمال. وكان برفقتهما أربعة موظفين من الحكومة التركية ونجمان من نجوم السينما الأميركية كانا يقومان بجولة سياحية في ذلك الوقت. وقلق رايش من هذا التطفل الطارئ، إلا أنّني أشرت إليه أن الحكومة التركية لم تتجاوز حقوقها في ذلك، إلا في ما يتعلق بقدوم نجمي السينما.

أرادوا أولاً أن يطمئنوا إلى أن الكتل كانت تمتد فعلاً إلى مسافة ميلين. فبدأ رايش بتشغيل المسبار وأظهر لهم حدود كتلة آبوز — وهو الاسم الذي أطلقناه عليها — وآلة الحفر الموجودة بقربها. وعبر دارغا عن ارتيابه في أن يكون في وسع الآلة التوغل إلى عمق يتجاوز الميلين. وبصبر، توجه رايش إلى لوح الاتصال بالآلة وبدأ تشغيله.

لم تبعث النتيجة على الرضا إذ ظلت الشاشة بيضاء خالية. وهنا حاول بواسطة مفتاح الحفر دون أي نتيجة تذكر. ولم يبقَ سوى استنتاج واحد هو أن الحرارة أو ربما الضغط قد حطم معدات آلة الحفر.

كان ما حدث نكسة بحق. إلا أنّها لم تكن نكسة خطيرة جداً فالآلة باهظة الثمن غير أنّه من الممكن تعويضها. ولكنّ فؤاد ودارغا ظلا بحاجة إلى من يقنعهما أن ثمة خللاً في مكننة المسبار. وقد أمضى رايش صباح ذلك اليوم موضحاً أن كل دورة في حالة جيدة، وأنّه لا مجال للشك في أنّ الكتل كانت تمتد إلى عمق ميلين. ثم قمنا بتحميض الصورة التي التقطها الرادار لكتلة آبوز، وأجرينا مقارنة بين خطوطها المسمارية والخطوط المسمارية لتماثيل البازالت الصغيرة. وقد تبين أنّه من المستحيل الارتياب في أن الاثنين كانا ينتميان إلى حضارة واحدة.

كـان هناك خلّ واحد لهذه المشكلة : وهو حفر نفق كامل يتجه نحو الكـتل. ولا بـد لـي مـن أن أوضـح هـنا أنّـه لم تكـن لديـنا أي فكـرة عـن حجـم الكـتل الفـردية. وافترضـنا أن الارتفـاع الـذي أشـارت إلـيه شاشـة المسبار قـد يـصل إلى ارتفاع حائط أو مبنى بأكمله. كانت مشكلة الصورة أنّهـا الـتقطت من الأعلى، ما يعني أن الحائط كان أفقياً لا عمودياً، ولم يُعرف قطّ عن أيّ حضارة أنّها كُتِبَت على حائط أو سطح مبنى.

ارتـبك الـزوار مـن هـذا الاسـتنتاج وتأثروا لما سمعوا أيضاً. ذلك أنّ صحّة هذا الاستنتاج تبرهن أنّه أعظم اكتشاف يتمّ التوصل إليه في تاريخ علـم الآثـار. فقـد بـات معـروفاً أنّ حـضارة الماسما الهندية التي عُرِفَت في أحـد سهول الأنديز، هـي أقـدم حضارة عرفها الإنسان، وهي تعود إلى تـسعة آلاف سـنة. ولكـنـنا الآن نقـوم بجمـع نـتائج اختباراتـنا علـى تماثـيل الـبازالت الـصغيرة بمؤشـر يحـدد الـتاريخ تحديـداً نيوتـرونياً، وهـو مؤشـر افترضـنا عـدم دقـته. ويـبدو أنّ هـذه الـنتائج تمـيل إلى دعـم افتراضـنا أنّـنا أخـذنا الآن نـتعامل مـع بقايـا حـضارة يـصل عمرها ضعف عمر حضارة الأنديز.

مكـث فـؤاد وزمـلاؤه معـنا لتـناول الغـداء ثـم انـصرفوا في الـساعة الثانية. وفي هـذه الأثـناء أخـذ حماسـهم يؤثـر فيَّ، بالـرغم مـن أنّ شعوراً بالقلـق انـتابني جـراء الـسماح لنفسي بالخضوع لهـذا الـتأثير. وقـد وعدنا فـؤاد بإرسـال حـوامة بأسـرع مـا يـستطيع، إلا أنّـه أشـار إلى أنّ الأمـر قد يـستغرق عـدة أيـام. في هـذه الأثـناء بقيـنا مترددين في تحديـد المسبار باليد. وبـدا واضـحاً أنّـنا علـى وشـك أن نتلقـى دعماً حكومياً أكبر مما نتوقعه، وأنّـه لا فائـدة مـن هدر الطاقة. كنّا نملك آلة حفر ثانية إلا أنّه تبين أن من العبث المجازفة بهـا. لهـذا جلسنا في الـساعة الثانيـة والـنصف تحت ظلال البوابة السفلى نشرب عصير البرتقال.

وبعد مرور نصف ساعة وصل أول الصحفيين، وهو مراسل جريدة نيويورك تايمز في أنقرة. وهنا اعترى رايش الغضب. إذ افترض — مخطئاً — أن الحكومة التركية انتهزت هذه الفرصة لأغراض الدعاية، وقد اكتشفنا في فترة لاحقة أن النجمين السينمائيين كانا مسؤولين عن إخبار الصحافة بالأمر. توارى رايش عن الأنظار متجهاً إلى خيمته، وبقيت في رفقة الصحفي الذي كان يبعث على السرور. وكان قد قرأ كتابي الذي ألفته عن الحثيين، أطلعته على الصور وشرحت له كيفية سير العمل. وعندما سألني عما حل بآلة الحفر أخبرته أنّني لا أملك أي فكرة عن ذلك، وأن كل معلوماتي عنها تفيد بأنّها قد تحطمت بسبب سكان الكهوف. كان هذا أول أخطائي. أما الخطأ الثاني فكان عندما سألني عن حجم كتلة آبوز، فأوضحت له أنّنا لا نملك أي دليل يفيد أن الكتلة واحدة بالرغم من ظهور كتل شبيهة على جانبيها. وربما كان ذلك نصباً دينياً بهيئة كتلة ضخمة أو بناء يشبه زقورة أور. وإذا كانت عبارة عن كتلة واحدة، فمن شأنها أن تشير إلى أنّنا نتعامل مع حضارة للعمالقة.

ولدهشتي البالغة أخذ الصحفي كلامي مأخذ الجد. فهل أؤيد النظرية القائلة إنّ العالم سكنه يوماً ما عمالقة دمرتهم كارثة عظمى؟ فأجبته أنّني كعالم يتعين عليَّ أن أكون واسع الأفق حتى يتحقق دليل محدد. ولكن الصحفي ألح فيما إذا كان ذلك وحده دليلاً. فأخبرته أن ذلك سابق لأوانه. وهنا سألني إذا كنت أوافق على القول بأنّه كان في وسع الإنسان العادي تحريك كتل البناء الضخمة، كما هو الحال في أهرام الجيزة، وهنا أوضحت دون أن أدرك أن أضخم كتلة صخرية في هرم الجيزة يصل وزنها إلى اثني عشر طناً، بينما يصل وزن كتلة يبلغ ارتفاعها سبعين قدماً ألف طن. وذكرت أنّنا لا نملك أية معلومات حقيقية حول الطريقة التي تم بها نقل أحجار هرم الجيزة أو حتى صخور

ستون هينغ ، مما يوحي أن هؤلاء السكان كانوا يملكون من المعرفة ما يفوق تصورنا.

وقبل أن أفرغ من الحديث مع مراسل النيويورك تايمز ، ظهرت ثلاث طائرات عمودية وفيها المزيد من الصحفيين. وفي الساعة الرابعة اقتنع رايش بضرورة مغادرة خيمته حيث شرح على مضض مكننة المسبار. وفي الساعة السادسة بُحَّت أصواتنا وأخذ التعب منا كل مأخذ ، مما جعلنا نهرب عائدين إلى الفندق في قادرلي حيث تناولنا عشاءنا بهدوء. بالرغم من الطلب إلى المدير بعدم تحويل المكالمات الهاتفية ، إلا أنّه وفي الساعة التاسعة تماماً ، كان فؤاد قد دخل علينا وهو يلوح بصحيفة نيويورك تايمز ، وكانت الصفحة الأولى مخصصة لموضوع رئيس بعنوان **أكبر اكتشاف في العالم**. وفيه نُسب إليَّ القول بتأييد النظرية القائلة إنّنا اكتشفنا مدينة للعمالقة ، وأنّني كنت أوحي أن هؤلاء العمالقة كانوا أيضاً سحرة ، استطاعوا رفع كتل حجرية يصل وزنها إلى ألف طن بطريقة فنية غريبة أصبحت الآن منسية. وذكرت الصحيفة أن زميلاً لي أدلى برأيه قائلاً إن أهرامات مصر بنيت بطريقة غامضة جداً ، وأنّ هذا الاكتشاف الجديد سيثبت ذلك بلا أدنى شك. وفي الصفحة الداخلية من الجريدة ثمة مقالة عن الآثار لكاتب شعبي بعنوان **عمالقة أطلس**.

أكدت لفؤاد أنّني لم أذكر أي شيء عن العمالقة ، وبخاصة ضمن المقطع المنسوب لي. فوعدني بالاتصال بالجريدة لتصحيح المعلومات. ثم تسللت إلى غرفة رايش لأحتسي قدحاً أخيراً من الشراب.

أعتقد أنّني ذكرت بما فيه الكفاية ، السبب الذي لم نعد معه قادرين على العودة إلى موقع العمل أسبوعاً آخر. فقد أرسلت الحكومة التركية عدداً من الجنود لحماية معداتنا. لكنّ هؤلاء الجنود لم تكن لديهم

الأوامر بمنع اقتراب الزوار، فضلاً عن انتشار الطائرات العمودية التي كانت تحلّق في سماء قره تبه. أما الفنادق في قادرلي فقد اكتظت بالنزلاء لأول مرة منذ تشييدها. وكان يتعين عليَّ وعلى رايش البقاء في الفندق وإلا تعرضنا لمضايقة المهووسين والباحثين عن الإثارة. لقد منحتنا الحكومة التركية حوامة في غضون اثنتي عشرة ساعة إلا أنّه كان من المستحيل استخدامها. وفي اليوم التالي منحتنا مؤسسة كارنجي مليوني دولار للبدء في حفر النفق، وقدمت اللجنة المالية الدولية مليونين إضافيين. وفي النهاية وافقت الحكومة التركية على بناء سياج من الأسلاك حول الجبل الأسود ارتفاعه أربعون قدماً، تمّ تنفيذه في أقل من أسبوع بمساعدة المؤسسات الأميركية والروسية، وعندها فقط أصبحنا قادرين على العودة إلى العمل. وفي النهاية تغير كل شيء ولم تعد هناك أي فرصة للقيلولة بعد الغداء، كما انتهت أحاديث منتصف الليل في خيمتنا. كان الجنود ينتشرون على الهضبة كلها، وانهال علينا علماء الآثار البارزون من جميع أنحاء العالم بالأسئلة والاقتراحات بينما كانت السماء تمتلئ بالطائرات العمودية التي منعت من الهبوط بواسطة مذياع نصب على جناح السرعة فوق برج المراقبة.

قام فريق من المهندسين بشد المسبار بالحوامة لكي يتمكن من تسجيل قراءة سريعة على أصعب بقعة. وزودتنا الحكومة التركية بآلتي حفر متطورتين، وأوضحت لنا استعدادها لتزويدنا بالمال والمعدات بمجرد مفاتحتها، مما يبعث السرور في نفس أي عالم من علماء الآثار.

وفي غضون يومين، توصلنا إلى بعض الاكتشافات المدهشة. أولها أن المسبار أشار إلى أنّنا اكتشفنا مدينة مدفونة تمتد أسوارها مسافة ميل في كلا الاتجاهين. وبدا أن الجبل الأسود في قره تبه ينتصب فوق مركز المدينة

تماماً، وهي مدينة كان يسكنها العمالقة في الواقع. أما كتلة آبوذ فلم تكن مبنى أو نصباً دينياً بل كتلة واحدة من أحجار البازالت الذي يعد أصلب أنواع البازالت البركاني.

إلا أنّ سوء الطالع رافقنا. ففي غضون ثمان وأربعين ساعة خسرنا إحدى آلات الحفر بالطريقة ذاتها التي فقدنا فيها الآلة الأولى إذ توقفت عن إرسال الإشارات في عمق ميلين، وبعد أسبوع واحد فقدنا الآلة الأخرى بالطريقة نفسها. وهكذا دُفِنَت معدات قيمتها مليون باوند تحت سطح الأرض. كما فقد أحد عمال التشغيل القدرة على السيطرة على الحوامة مما جعل المسبار يصطدم بكوخ مكتظ بالجنود الأتراك وتسبب في مصرع ثمانية عشر جندياً، ولم يصب المسبار بأذى. إلا أنّ الصحف التي كانت ما تزال تندب الحادث، أعادت إلى الأذهان وبسرعة، كارثة كارتر – كارنارقون في العام 1922 والقصص المثيرة حول لعبة توت عنخ آمون، كما أن زميلاً لي اعتقدْتُ أن في وسعي الاعتماد على قدرته، أعلن عن نظريتي القائلة إنّ الحثيين في قره تبه كانوا يدينون ببقائهم على قيد الحياة إلى سمعتهم كسَحَرَة، مما أطلق العنان لموجة أخرى من القصص المثيرة. وعند هذا الحد دخل اسم جاي. بي. لافكرافت في القصة. ولم أكن قد سمعت باسمه أسوة بزملائي، وهو كاتب من كتب القصص التي تدور حول الخرافات توفي في العام 1937. وبعد موته بمدة طويلة، شاع في أميركا ما يشبه عبادة لافكرافت بفضل دفاع أحد أصدقاء لافكرافت وهو الروائي أوغست دارليث. وكتب دارليث إلى رايش موضحاً أنّ اسم آبوذ الوسخ ورد في كتابات لافكرافت وأنّه واحد من العظام الأقدمين.

وعندما أطلعني رايش على الرسالة، فكرت لأول وهلة أن الأمر لا يعدو كونه دعابة. وقمنا بالبحث عن اسمه في قاموس الأدب فوجدنا

أن دارليث كان كاتباً أميركياً مشهوراً وهو الآن في العقد الثامن من عمره. ولم يكن اسم لافكرافت موجوداً في القاموس، إلا أنّ اتصالاً مع المتحف البريطاني أظهر أنّه كان موجوداً على قيد الحياة، وأنّه ألّف الكتب التي أوردها دارليث.

وكانت رسالة دارليث تتضمن سطراً أثار دهشتي. فهو يعترف أولاً أنّه لم يستطع تفسير كيفية توصل لافكرافت إلى معرفة آبوذ – طالما أن الاسم غير موجود في أي وثيقة من وثائق الحثيين التي اكتشفت في العام 1937 – كما يضيف دارليث السطر التالي:

"لقد علق لافكرافت أهمية كبيرة على الأحلام، وغالباً ما أخبرني أن مواضيع عدد كبير من قصصه قد صادفها في أحلامه".

وقلت لرايش: "ها هو دليل آخر على فكرتك عن اللاشعور العرقي". وعبّر عن اعتقاده أنّ الأمر لا يعدو كونه مصادفة لا أكثر. فأبادون، هو الملك المدمر في الأسطورة الواردة في العهد القديم. أما نهاية الكلمة هوث فهي مصرية. وقد جاء ذكر اسم الإله أباوث في بعض الكتابات البابلية التي كان لافكرافت قد اطلع عليها. وبعد بضعة أيام غيّرنا رأينا. فقد وصلت أخيراً رزمة الكتب التي أرسلها دارليث. تناولت فيها قصة عنوانها **الظل خارج الزمن**، وحينما وصلت إلى وصف لكتل صخرية عظيمة مدفونة تحت سطح قارة أستراليا، وفي اللحظة ذاتها، أطلق رايش صرخة إعجاب أثناء جلوسه على الكرسي، وأخذ يقرأ الجملة التالية بصوت عالٍ: "إن ساكن الظلام يعرف أيضاً باسم نيوكثا". في المساء الذي سبق ذلك اليوم كُنّا قد توصلنا إلى ترجمة مؤقتة للكلمات المحفورة على كتلة آبوذ. وعندها أخذتُ أقرأ أمام رايش وصف المدن السفلى من كتاب **الظل خارج الزمن**:

"مـدن البـازالـت العظـيمة ذات الأبـراج عديمـة الـنوافذ بـناها جـنسٌ أشبه بالمرجان".

ولم يبق هـناك أي شـك من أن لافكـرافت توقـع باكتشافاتنا بطريقة غـريبة ولم نُضِع الـوقت في الـتكهن في كيفـية حـدوث ذلك: فسواء أكان لافكـرافت قـد توقـع بالمستقبل بالطـريقة الـتي وصـفها دان في **تجـربة في الـزمن** وشـاهد نـتائج أبحاثـنا، أو أنّ عقلـه الحـالم تـوغل في هذه الأسـرار المدفـونة تحـت الأرض في آسـيا الـصغرى. فالأمـر خـارج عـن الموضـوع. والـسؤال الـذي أخـذ يفـرض نفـسه الآن هـو: مـا حجـم الإبـداع الأدبـي المجرد في أعمال لافكرافت؟ وما هو الحجم الرؤيوي لنظرته الثانية؟

وبـدا غـريباً أن نهمـل واجباتـنا الآثاريـة مـن أجـل دراسـة أعمـال كاتـب، نـشر معظـم أعمالـه في مجلـة مـن مجـلات التـشويق تدعـى **قصص عجيبة**. احتفظنا بأسـرارنا أطـول مـدة ممكـنة، معللـين ذلـك أنّـنا نكـرس أيامـنا لدراسـة الكـتابة المسمارية. وقـضينا أيامـاً عديدة داخـل غـرفة رايش — الـتي كانـت أكـبر من غـرفتي — ونحن نقرأ باستمرار أعمال لافكـرافت. وعـندما كانـت تـصلنا وجـبات الطعـام كُنّا نخفـي الكـتب تحت الوسـائد، ونـأخـذ بالـتمعن في صـور الكـتابات. وقـد تعلمـنا درسـاً. إذ عرفنا جيداً ما الـذي سيحدث لـو أن صـحفياً اكتشف كيف نقضي وقتنا. لقد تحدثنا مع دارلـيث بواسـطة الهـاتف الـتلفزيونـي، وتـبين أنّـه رجـل ودود وكيّس، له شـعر أبـيض كثـيف. وطلبـنا مـنه عـدم إفـشاء سـر اكتـشافه لأي شـخص. فوافـق بـسرعة إلا أنّـه أوضـح أن هـناك عـدداً كبيراً من قراء لافكـرافت من شـأنهم أن يتوصـلوا إلى الاكتـشاف نفـسه. كانت دراسة لافكرافت قضيةً ممتعة ومسلية. فهو رجل ذو خيال واسع. ومن خلال قـراءة أعمـاله بحسب تسلسلها الـزمني، تـبين أنّ هـناك تحـولاً تدريجياً في وجهة نظره. فقصصه المبكـرة تمـتلك خلفية نيو أنغلند، وتدور حول إقليم خيالي يدعى أركهام

وهو إقليم غني بتلاله الموحشة ووديانه المخيفة. أما سكان الإقليم فيُلَوَّح أنّهم، في الأغلب، منحرفون ولهم ذوق يميل إلى اللغة المحرمة واستحضار أرواح الشياطين. وقد انتهى أمر الكثيرين منهم نهاية عنيفة. وقد حدث تحول في لهجة لافكرافت. فخياله ينتقل من كل ما هو مرعب إلى كل ما هو مكتنف بالأسرار، وإلى رؤى دهور هائلة ومدن عملاقة، وإلى الصراع بين الأجناس المتوحشة والمتفوقة. وباستثناء استمرار الكتابة بلغة القصص المرعبة – حيث لا بد أنه كان يضع في حسبانه حركة السوق – فإنه يمكن اعتباره واحداً من أفضل ومن أوائل من مثلوا قصص الخيال العلمي. وما يهمنا في الغالب، هذه الفترة الخاصة بقصصِ الخيال العلمي بالرغم من أنّ هذا الأمر يجب أن لا يؤخذ حرفياً. فقد ذُكِرَ آبوذ في واحدة من قصص أركهام المبكرة.

ومن أكثر الأمور إثارة، هو أنّ تلك المدن الضخمة للعظماء القدامى كانت تشبه ما نعرفه اليوم عن مدينتنا القائمة تحت الأرض. وهذه المدن بحسب لافكرافت لم تكن مجهزة بسلالم بل بألواح مائلة، لأن سكانها عمالقة يشبهون المخلوقات المخروطية ولها مجسات. أما قاعدة المخروط، فذات إطار مصنوع من مادة مطاطية رمادية اللون، تقوم بتحريك الجسم كله عن طريق التمدد والتقلص. وقد كشف المسبار أن هذه المدينة القائمة تحت مدينة قره تبه، ذات ألواح مائلة تخلو من السلالم كما يبدو. وأنّ حجمها يناسب تماماً صفة الضخامة السيكلوبية التي أطلقت عليها.

ومن الممكن التصور أن وجود مدينة تحت الأرض أثارت مشكلة جديدة تقريباً في الآثار، لا تقارن بمشكلة لايارد في التنقيب في موقع النمرود. وفكر رايش أنّه لأجل تعريض الآثار لضوء النهار ينبغي علينا إزالة ما يقارب أربعين مليون طن من التربة وهو أمر شبه مستحيل. أما

الحل البديل، فيتمثل في حفر سلسلة من الأنفاق العريضة تمتد إلى أعماق المدينة، وتشييد غرف كبيرة عند نهاية هذه الأنفاق. وينبغي أن تكون هذه الأنفاق سلسلة متصلة، لأنّنا لا نستطيع المغامرة بجعل غرفة واحدة بهذا الحجم. إذ لا يوجد أي معدن لدى الإنسان يستطيع دعم سيف بسماكة ميلين. ما يعني أنّه لن يتمّ الكشف عن المدينة برمّتها. لكن استخدام المسبار من شأنه أن يبين لنا أي الأقسام تستحق أن نبذل من أجلها العناء. وحتى حفر نفق واحد، من شأنه أن يتضمن تحريك مائة ألف طن من التربة وهو أمر ممكن رغم ذلك.

بعد مرور أسبوع واحد فقط توصلت الصحافة إلى اكتشافنا للافكرافت. ولعل ذلك كان من أكثر الأمور إثارة منذ اكتشافنا الأول. وقد جن جنون الصحافة إذ لم يكن ينقصها سوى هذه القصة، بعد كل الحديث الدائر حول العمالقة والسحرة وآلهة الظلام. لقد كان أمام علماء الآثار الشعبيين وأصحاب النظريات مجال خصب ينهلون منه. أما الآن فقد جاء دور الروحانيين والمنجمين. وبلغ الأمر بأحدهم أن زجّ مقالة يوضح فيها أن لافكرافت استعاد أساطيره من السيدة بلافاتسكي. بينما أعلن آخر أن الأمر كله لا يعدو كونه موروثاً قبلياً. وعلى حين غرة أصبح لافكرافت أكثر الكتّاب رواجاً في العالم وبيع من كتبه مليون نسخة بلغات عدة، كما أصاب الهلع قلوب القراء الذين التهموا كتبه وساورهم الاعتقاد بأنّنا على وشك أن نقلق راحة أولئك العظماء القدامى وهم راقدون في قبورهم، وأن من شأن ذلك العمل أن يجلب لنا الكارثة التي وصفها لافكرافت وصفاً هائلاً في كتابه **نداء كثولهو**.

والواقع أن مدينة **الظل خارج الزمن** لم تكن مذكورة بيد أن رواية مبكرة من روايات لافكرافت أوردت ذكر هذه المدينة باسم قادش المجهولة، فأطلق كتاب الصحف اسم قادش على مدينتنا هذه وظل

الاسم هكذا. ولم يمضِ وقت طويل حتى أعلن شخص مجنون في نيويورك يدعى دالكيش فيلر عن تأسيس جمعية مناهضة لقادش غرضها منعنا من التنقيب عن المدينة وإقلاق راحة العظماء القدامى. ومما يشير إلى الجنون المستشري في هذا العصر أن هذه الجمعية سرعان ما انضوى تحت لوائها نصف مليون عضو وبلغ الرقم الثلاثة ملايين في فترة وجيزة. اتّخذت الجمعية شعاراً لها يقول: "سلامة العقل تكمن في المستقبل. انسَ الماضي". واشترت الجمعية فترة إعلانية من التلفزيون واستأجرت علماء نفس محترفين، للإعلان عن أن رؤى لافكرافت كانت نموذجاً واضحاً للإدراك المفرط الذي أبداه راين وزملاؤه على نحو بالغ الإقناع في جامعة ديوك. وفي تلك الحالة ينبغي الأخذ في الاعتبار تحذيرات لافكرافت: فإنّ إقلاق راحة العظماء القدامى من شأنه أن يكون نهاية للجنس البشري. لقد كان دالكيش فيلر مهووساً وذا قدرات تنظيمية، حيث استأجر قطعة أرض واسعة تبعد مسافة خمسة أميال عن مدينة قره تبه وأقام له معسكراً فيها. أما أتباعه فقد أجبروا على السفر إلى هذه البقعة لقضاء عطلهم السنوية ولإثارة المتاعب لنا في قره تبه. وكان صاحب قطعة الأرض هذا فلاحاً شعر بالسعادة تغمره وهو يتلقى المبالغ الطائلة ثمناً لأرضه. لقد تمّ ترتيب كل شيء قبل أن تمتنع الحكومة التركية عن اتخاذ أي إجراء. ولا بد من الإشارة إلى أن فيلر كان يتمتع بموهبة اجتذاب النساء المرحات الثريات، اللواتي بادرن بالتبرع وبسخاء للجمعية. كما استأجر فيلر طائرات عمودية أخذت تحلق فوق الهضبة، وقد تدلت منها لافتات تحمل شعارات معادية. أما في الليل، فقد جاءت هذه الطائرات وألقت بالنفايات فوق موقع العمل، بحيث إنّنا عندما وصلنا الموقع في صباح اليوم التالي، استغرق الأمر منا عدة ساعات لتنظيف المكان من الفواكه والخضراوات الفاسدة والعلب الفارغة. كما

قام أهل المخيم بمسيرة احتجاج نحو الأسلاك الشائكة للموقع مرتين في اليوم، وكانت المسيرة في بعض الأحيان عبارة عن أرتال تضم الآلاف بين صفوفها. مرّت ستة أسابيع قبل أن يتم إقناع الأمم المتحدة بضرورة اتخاذ الإجراءات وإرسال الجنود إلى الموقع. في هذه الأثناء، كان فيلر قد جنّد خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي في صفوف حركته، وقاموا معاً بتقديم لائحة تقضي بمنع عمليات التنقيب في قره تبه، وأوضحوا في لائحتهم أن حافزهم ليس الخوف من الخرافات بل إكباراً لحضارة اندثرت منذ وقت طويل. وتساءلوا فيما إذا كان من حقهم إقلاق راحة أولئك الذين رقدوا أبدياً منذ قرون عديدة. وبفضل مجلس الشيوخ كان الاقتراع بتأييد اللائحة بالأغلبية.

وفي الوقت الذي بدا فيه أن هذه الجمعية أخذت تفقد مواقعها، جرى تعزيزها بجرعة أخرى تمثلت في نشر اكتشافات ستانيسلاف بيرزنسكي وميرزادان. والحقائق المتعلقة بهذين الشخصين، يمكن إيجازها على الصورة الآتية:

كان بيرزنسكي وميرزادان قد ماتا بعد أن أصيبا بالجنون في العقد الأول من القرن العشرين. والمعلومات الخاصة ببيرزنسكي متوفرة أكثر من تلك الخاصة بدان. فبيرزنسكي كان قد نال شهرة بعد نشر سيرة حياة جده الشاعر نادسن. كما أنّه تولى تحرير مجموعة قصص خرافية للكاتب الكونت بوتوكوي. في العام 1898، نشر كتاباً غريباً حذر فيه الجنس البشري من أنّه سيتعرض للغزو على أيدي جنس من الوحوش، يأتي من عالم آخر. وإنّ هؤلاء الوحوش قد شيدوا لأنفسهم مدناً عملاقة تحت الأرض. وبعد سنة واحدة من ذلك أُدْخِل إلى مستشفى للأمراض العقلية. وكانت أوراقه تتضمن تخطيطات غريبة ربما كان غرضها أن تستخدم رسوماً إيضاحية لقصص لافكرافت حول قادش: مبنى غريب

الشكل ذو ألواح مائلة وأبراج عظيمة ذات زوايا. وقامت الجمعية بنشر هذه الرسوم بكاملها. أما فيما يتعلق بميرزادان، فإن أمره يثير الارتياب. وقد كان كاتباً أمضى هو الآخر السنوات الخمس الأخيرة من حياته في مستشفى للأمراض العقلية، كتب خلالها رسائل إلى أعضاء الحكومة يحذرهم من جنس من الوحوش يرمي إلى قيادة الكرة الأرضية. وقد حدّد ميرزادان موقع هؤلاء الوحوش في مكان ما بين الأدغال في وسط أفريقيا. ووصفهم بأنّهم مخلوقات تشبه اليرقانات العملاقة. أما مدنهم الضخمة، فمشيّدة من برازهم بعد تجفيفه حيث يصبح صلداً كالحجارة.

بالرغم من أنّ رسائل ميرزادان أتلفت كلها، إلا أنّ الجزء القليل الذي ظلّ منها يشير إلى أنّ أسلوبها يشبه إلى حدٍّ كبير أسلوب الرسائل التي كتبها بيرزنسكي. كما أن ما أسماهم باليرقانات يشبهون المخلوقات المخروطية عند لافكرافت، مما يوحي أنّ الثلاثة كانوا يصفون رؤيتهم المتشابهة حول العظماء القدامى ومدنهم.

وبعد تدخل الحكومة وحفر النفق الأول، تضاءل نشاط جمعية فيلر فبعد أن نجح أنصار الجمعية في إثارة بعض البلبلة، في غضون ثمانية عشر شهراً، لقي فيلر مصرعه على يد واحدة من طالباته في ظروف غامضة.

كان إنجاز النفق الأول بعد سنة كاملة من اكتشافنا لكتلة آبوذ. وقامت الحكومة الإيطالية بعملية الحفر مستخدمة لذلك آلة الحفر العملاقة ذاتها، التي سبق وأن استُخْدِمَت في بناء النفق الذي يربط بين سيلا ومسينا في صقلية. وكذلك في النفق بين أوترانتو ولنكوتيا في ألبانيا. واستغرقت عملية الحفر بضعة أيام إلا أنّ المشكلة الرئيسة تمثلت في الحؤول دون انهيار الأجزاء السفلى من النفق. وكانت الكتلة مثيرة كما توقعنا. ارتفاعها ثمانية وستون قدماً وعرضها ثلاثون قدماً وطولها

تسعون قدماً، وهي من حجر البازالت البركاني الصلد. ويبدا مستحيلاً الارتياب في أنّنا لا نتعامل إلا مع جنس من العمالقة. فتماثيل البازالت صغيرة جداً. وبعد مرور عشر سنوات أكّدت ذلك الاكتشافات الهامة التي قام بها ميرمر في تنزانيا عن هذه المدن الضخمة التي كان يسكنها العمالقة والبشر على حدٍّ سواء، ومما لا شك فيه تقريباً أن هؤلاء العمالقة كانوا عبيداً للجنس البشري.

إلا أنّ تحديد تاريخ هذه الكتل ظلّ مشكلة قائمة. واستناداً إلى لافكرافت فإن العظماء القدامى عاشوا قبل مائة وخمسين مليون سنة، وقد لاقت فكرته هذه تأييداً ملحوظاً. وكان من الصعب فهم ذلك حتماً. إذ أظهر مؤشر تحديد التاريخ الإلكتروني لرايش، أن عمر الآثار أقل من مليوني سنة ولعل هذا تخمين مبالغ فيه أيضاً. ومشاكل تحديد التاريخ في هذه الحالة معقدة على نحو غريب. لأن عالم الآثار يستند كالمعتاد إلى طبقات الأرض المختلفة القائمة فوق اكتشافه، كونه يملك في هذه الحالة تقويماً زمنياً جاهزاً. ولكن في الحالات الثلاث المعروفة لهذه المدن العملاقة، فإن الدلائل تبدو متناقضة مع بعضها. وكل ما نستطيع أن نؤكده، هو أن كل واحدة من هذه المدن دمرها طوفان هائل ودفنها تحت آلاف الأقدام من الطين. وتوحي كلمة طوفان في الجيولوجيا بعصر البلستوسيين — حوالى مليون سنة — وقد عثر على آثار قوارض لم تكن معروفة إلا في الفترة البليوسينية — العصر الحديث القريب — في مطمورات كوينزلاند، مما يستدعي إضافة خمسة ملايين سنة أخرى إلى التاريخ.

إن هذه المعلومات كلها لا علاقة لها بقصتي. إذ قبل أن ينتهي حفر النفق الأول بوقت طويل، بدأت أفقد اهتمامي بتنقيبات قره تبه. ورحت أنظر إليها كما هي، مجرد محاولة لصرف الأنظار قامت بها عمداً طفيليات العقل. ولقد تحقق اكتشافي هذا على الصورة التالية.

أصبحت مع حلول أواخر شهر تموز من العام 1997 في حالة إعياء تام. فالحرارة في قره تبه لا تطاق، وحتى بوجود مظلة كبيرة فإن حرارة الشمس لم تنخفض إلا ستين درجة. كما أن النفايات التي ألقاها علينا أتباع فيلر جعلت المكان أشبه بمستنقع. ولم تفلح الوسائل التي استخدمناها لتعقيم الجو إلا في زيادة الطين بلة. أما الريح فكانت جافة يكتنفها الغبار وقد أمضينا نصف ذلك اليوم في بيوتنا المكيفة نشرب العصير والمثلجات. وأود الإشارة إلى أنّه مع حلول شهر تموز أخذت أشعر بصداع عنيف. وتحسن الحال عندما سافرت إلى اسكتلندا لقضاء يومين، إلا أنّه بعد عودتي وقضاء أسبوع في العمل أصبحت طريح الفراش بسبب الحمى. وبما أن عملي تعطل عدة مرات بسبب وجود الصحفيين والجمعية المعادية لقادش، فقد آثرت التوجه إلى شقتي في ديار بكر. كان كل شيء بارداً وهادئاً على قطعة الأرض العائدة إلى شركة اليورانيوم الأنغلو – هندية وحيث الحراس يعرفون كيف يتعاملون مع المتطفلين. وهناك وجدت كومة من الرسائل وعدة طرود كبيرة الحجم في انتظاري، إلا أنّني تجاهلت أمرها كلها لليومين التاليين. ولزمت سريري وأنا أصغي إلى أوبرات موزارت. وأخذت الحمى تزول بالتدريج. وما إن حلّ اليوم الثالث حتى غادرت فراشي وشرعت بفتح الرسائل.

وكان من ضمن هذه الرسائل إشعار من شركة ستاندرد موتورز آند إنجنيرنغ تشير فيه إلى أنّها قامت كما طلبت بإرسال معظم أوراق كارل وايزمان إليّ في ديار بكر. مما يوضح السبب في وجود الطرود الكبيرة. وكانت هناك رسالة أخرى من مطبعة جامعة نورث ويسترن تستفسر فيها عما إذا كنت راغباً في تكليفهم بطبع بحوث كارل في علم النفس.

لقد سبّب ذلك كله الإرهاق الشديد لي. إذ أرسلت خطاباً إلى بومكارت في لندن وعدت ثانية إلى موزارت، وفي اليوم التالي بدأ ضميري يؤنبني ففتحت بقية الرسائل ووجدت رسالة من كارل سيدل وهو رجل كان قد شارك بومكارت شقته وذكر فيها أن بومكارت أصيب بانهيار عصبي وأنّه مسافر الآن بصحبة أسرته إلى ألمانيا.

ويتضح من هذا، أن قضية أوراق كارل في يدي الآن. لهذا توجهت دون أي رغبة إلى فتح أول طرد من هذه الطرود وكان وزنه حوالى أربعين رطلاً ويحتوي نتائج توصل إليها بعد إجراء اختبار على مائة موظف لتقرير مدى استجابتهم لتغير الألوان.

وفي أمسية ذلك اليوم حلَّ ضيفاً عليَّ موظف شاب. وكنت أحس بالوحدة قليلاً وشعرت بالسعادة وأنا أتحدث إليه. حتى أن موضوع التنقيبات لم يعد موضوعاً يبعث على السأم، بل إنه كان من دواعي سروري أن أقص عليه القصة الخفية الحقيقية لعملنا. وبينما هو يهمّ بالانصراف، لاحظ وجود الطرود وسألني فيما إذا كانت تتعلق بالتنقيبات، فأخبرته بقصة انتحار وايزمان واعترفت له أن فكرة فتح هذه الطرود تصيبني بالسأم الذي كاد أن يتحول إلى عذاب جسدي. وبأسلوب مرح عرض عليَّ أن يعود في صباح اليوم التالي كي يقوم بالمهمة بدلاً مني. وإذا تبين أن هذه الأوراق ليست سوى أوراق اختبارات شكلية، فإنه سيكلف عندئذٍ سكرتيره لإرسالها إلى جامعة نورث وسترن. وعرفت أنّه قدم ذلك العرض كمقابل للثقة التي أوليتها له في ذلك المساء مما جعلني أوافق بكل امتنان.

وفي الوقت الذي غادرت فيه الحمام في صباح اليوم التالي، كان ذلك الشاب قد فرغ من المهمة. وكانت خمسة طرود تحتوي على مواد

عادية أما الطرد السادس، فكان يحتوي بحسب رأيه، على مواد ذات طبيعة فلسفية، وقد اعتقد أنّني أرغب في إلقاء نظرة عليها. وعند ذلك انسحب ثم جاء سكرتيره بعد فترة قصيرة لإزاحة الركام الهائل من الأوراق الصفراء التي ازدحمت فيها غرفة الجلوس في شقتي.

أما المواد المتبقية فكانت محفوظة في ملفات زرقاء وهي عبارة عن أوراق مطبوعة بالآلة الكاتبة ومثبتة ببعضها بحلقات حديدية. وحمل غلاف كل ملفٍ بطاقة مكتوب عليها باليد العنوان: **تأملات تاريخية**. وكان كل ملف مختوماً بشريط لاصق ملون واستنتجت كما ثبت لي فيما بعد أن هذه الملفات لم يفتحها أحد منذ وفاة وايزمان. ولم أكتشف أبداً الخطأ الذي جعل بومكارت يرسل هذه الملفات إلى شركة موتورز جنرال. وظننت أنّه ربما أراد جذب اهتمامي إليها فوضعها مع المواد الصناعية.

لم تكن الملفات تحمل أرقاماً. وعندما فتحت الملف الأول اكتشفت فوراً أن هذه **التأملات التاريخية** لم تعالج سوى القرنين الماضيين، وهي فترة زمنية لم تثر اهتمامي أبداً. وراودني الإحساس بإرسالها إلى جامعة نورث وسترن دون أن أجري أي فحص عليها. غير أن ضميري أنّبني فعدت إلى سريري بعد أن حملت معي الملفات الزرقاء الستة. وفي هذه المرة بدأت صدفة، من النقطة الصحيحة. إذ كانت الجملة الافتتاحية في الملف الأول تقول: "لقد آمنت منذ عدة أشهر أن الجنس البشري يواجه الآن هجوماً من قبل نوع من سرطان العقل".

لقد كانت جملة تأسر القلب وفكرت بروعة الافتتاحية في القسم الأول من أوراق كارل. سرطان العقل وهو اسم آخر للعصاب مرض القرن العشرين الروحي، ولم أفكر لحظة واحدة في المعنى الحرفي للكلمة. فواصلت القراءة:

"المشكلة الغريبة لزيادة معدل حوادث الانتحار، ارتفاع نسبة حالات قتل الأطفال في الأسر الحديثة، الخطر الدائم للحرب الذرية، زيادة الإدمان على المخدرات". لقد بدت هذه الأمور مألوفة لي مما جعلني أتساءل وأقلب الأوراق.

وبعد لحظات، شرعت أقرأ باهتمام أكبر. ولم يكن ذلك بسبب أهمية ما أقرأه باعتباره من الحقائق المعروفة، بل لأنّني بدأت فجأة أشعر بشك في أن كارل أصيب بالجنون. لقد قرأت في أيام شبابي كتب دجارلز فورث بما فيها من إيحاءات حول العمالقة والجنيات والقارات العائمة. لكن الخلط العجيب لفورت حول المعنى واللامعنى اتسم بالمبالغات الفكهة وبدت أفكار كارل وايزمان جنونية شأنها شأن أفكار فورث. غير أن أفكار الأول كانت تتجه أكثر نحو أكثر جدّية، وبدا لي أنّه إما أن يكون قد انضم إلى صفوف طبقة العلماء المشهورين الشاذين أو أنّه أصيب بالجنون. ونظراً لإقدامه على الانتحار فقد أخذت أميل إلى الرأي الثاني.

واصلت القراءة باستغراق كامل. وبعد الصفحات الأولى توقف كارل عن الإشارة إلى سرطان العقل وبدأ بتقصي التاريخ الحضاري للقرنين الماضيين، وكان يقدم حججه بعناية وبصياغة ذكية. وقد أعاد ذلك إلى ذهني الأحاديث الطويلة في أبسالا. عند الظهيرة كنت ما أزال مستغرقاً في القراءة. في الساعة الواحدة من بعد الظهر أدركت أنّني اصطدمت بشيء من شأنه أن يجعلني أتذكر ذلك اليوم طيلة حياتي. وسواء أكان مجنوناً أم لا، فإنه كان مقنعاً بصورة رهيبة. وتمنيت لو كان مجنوناً. غير أنّني بمواصلة القراءة، أخذت أنقد ذلك اليقين. إذ أصبح كل شيء مشوشاً مما جعلني أتخلى عن عادتي التي استمرت سنوات طويلة، وأن ألجأ إلى تناول الشراب في فترة الظهيرة. أما الغداء فلم أتناول منه إلا شطيرة من لحم الديك الرومي. ولكنني بالرغم من الشراب ازددت

قنوطاً وصحواً. عند العصر كنت قد استوعبت الصورة الكابوسية الهائلة كلها وشعرت أنّ دماغي سينفجر. فإذا لم يكن كارل وايزمان قد أصيب بالجنون، فإن الجنس البشري سيواجه أعظم الأخطار في التاريخ.

❖ ❖ ❖

وقد اتضح أنّـه من المستحيل تقديم شرح وافٍ حول الطريقة التي توصل فيها كارل إلى تأملاته الفلسفية. لقد كان ذلك العمل حصيلة جهدٍ استغرق حياته. إلا أنّني في الأقل أستطيع أن أحدّد النتائج التي توصل إليها في تأملاته التاريخية.

يقول وايزمان إن أعظم ملكة يتمتع بها البشر هي القدرة على التجديد الذاتي والخلق. وأبسط مثال على هذا هو نوع التجديد الذي يحدث عندما يخلد الإنسان إلى النوم. فالإنسان المرهق هو إنسان وقع تواً في قبضة الموت والجنون. وتتمثل أكثر نظريات وايزمان إثارة في تشبيهه للجنون بالنوم. فالإنسان العاقل هو إنسان يقظ تمام اليقظة. وما إن ينتابه الإرهاق حتى يفقد قدرته على النهوض فوق مستوى الأحلام والأوهام وعندها تصبح الحياة أكثر فوضى على نحو مطرد.

ويحاجج وايزمان الآن في أن ملكة الابتكار هذه أو التجديد الذاتي واضحة تمام الوضوح للإنسان الأوروبي منذ عصر النهضة وحتى القرن الثامن عشر. فالتاريخ البشري في تلك الفترة، كان مشحوناً بالقسوة والفظائع. لكن الإنسان استطاع بالرغم من ذلك أن يتجاهل الأمر بسهولة تعادل سهولة تلاشي تعب الطفل عندما يهجع للنوم. أصبحت فترة العصر الأليزابيثي في إنكلترا مثالاً يذكر بأنّه عصر ذهبي، وذلك بسبب عملية الإبداع التي اتسم بها. إلا أنّ أيَّ امرئ يدرس ذلك العصر دراسة تمحيصية، سينتابه الرعب جراء القسوة والوحشية. بالرغم من التعذيب والحرق اللذين لقيهما الإنسان، فإن تفاؤل ذلك الإنسان

وقدرته على التجديد الذاتي من الضخامة، بحيث لا تؤدي الفوضى إلاّ إلى تحفيزه لبذل جهود جديدة. والعصر العظيم يتبعه عصر عظيم آخر: عصر ليونارد وعصر رابليه وعصر جوسر وعصر شكسبير وعصر نيوتن وعصر جونس وعصر موزارت. لا شيء أكثر وضوحاً من أن الإنسان يستطيع أن يذلل كل المصاعب.

بعد هذا كله يحدث تغير غريب في الجنس البشري. ويحدث هذا التغير عند أواخر القرن الثامن عشر. فعملية الخلق الرائع والمتفجر عند موزارت تقابله قسوة دي ساد الكابوسية. فجأة نجد أنفسنا في عصر الظلام، وهو عصر لم يعد يقدر فيه العباقرة على الإبداع بل النضال وكأنّهم في قبضة أخطبوط خفي. هنا يبدأ قرن الانتحار. بل يبدأ التاريخ الحديث: عصر الهزيمة والأمراض العصابية.

لكن لماذا حدث كل شيء فجأة هكذا؟ الثورة الصناعية؟ لكن الثورة الصناعية لم تحدث بين عشية وضحاها، كما أنّها لم تؤثر في مساحة واسعة من أوروبا، لأن أوروبا ظلت تكسوها الحقول والغابات. ويتساءل وايزمان كيف نستطيع أن نوضح الاختلاف الهائل بين عبقري من عباقرة القرن الثامن عشر وآخر من التاسع عشر، إن لم يكن من خلال الاستنتاج أن تغيراً خفياً طرأ على الجنس البشري في حوالى العام 1800؟ كيف تستطيع الثورة الصناعية أن تفسر البون الشاسع بين موزارت وبتهوفن علماً أن بتهوفن يصغر موزارت بأربعة عشر عاماً؟ لماذا نُقْبل على قرن انتحر فيه نصف العباقرة أو ماتوا بسبب مرض السل؟ لقد قال شبنغلر إنّ الحضارة تهرم كالنباتات، لكنّ هذه طفرة مفاجئة من الشباب إلى الشيخوخة. كما يخيم التشاؤم المرير على الجنس البشري، ويتضح ذلك من خلال الفن والموسيقى والأدب. ولا يكفي مجرد القول إنّ الإنسان أخذ يهرم فجأة، بل إنّ الأمر الأكثر أهمية يتمثل

في أنّه يبدو قد فقد قدرته على التجديد الذاتي. هل نستطيع أن نستحضر في أذهاننا عبقرياً واحداً من عباقرة القرن الثامن عشر أقدم على الانتحار؟ هذا مع العلم أنّ الحياة في تلك الفترة اتسمت بقسوة تشابه قسوة القرن التاسع عشر. لقد فقد الإنسان الإيمان بالحياة وفقد الإيمان بالمعرفة. ويتّفق الإنسان المعاصر مع فاوست في قوله: "عندما يكون كل شيء قد تحقق فليس بوسعنا أن نعرف أي شيء آخر".

كان كارل وايزمان عالماً نفسانياً وليس مؤرخاً، أما الميدان الذي ساعده في العيش فهو ميدان علم النفس الصناعي. ففي **تأملات تاريخية** يشير قائلاً:

"في العام 1990 دخلت ميدان علم النفس الصناعي مساعداً للأستاذ إيمس في ترانز أولد كوزماتيكس. وسرعان ما اكتشفت حالة كابوسية غريبة. كنت أدرك تماماً أنّ العصاب الصناعي بات قضية خطيرة، حتى أنّ محاكم صناعية خاصة شُكِلَت للنظر في أعمال التخريب في المكائن أو القتل المتعمد للعمال على أيدي زملائهم، بيد أنّ عدداً محدداً من الناس كان يدرك حجم المشكلة الحقيقي. لقد ازداد معدل الجريمة في المصانع الكبيرة وغيرها من المؤسسات الكبيرة، إلى ضعفي معدلها عند بقية السكان. ففي مصنع لفائف تبغ في أميركا، لقي ثمانية من رؤساء العمال واثنان من الموظفين من ذوي المناصب الكبيرة مصرعهم في غضون سنة واحدة. وفي سبع من هذه الحالات انتحر الجناة بعد ارتكابهم الجريمة حالاً. وقررت شركة بلاستيكس كوربورايشن الصناعية الإيسلندية أن تقوم بتجربة المصنع المفتوح الذي ينتشر فوق عدة دونمات، بحيث لا يشعر العمال بالازدحام الشديد. وقد استخدمت الطاقة في الحقول المفتوحة بدلاً من استخدامها داخل الجدران. نجحت التجربة أول الأمر نجاحاً باهراً. لكن بعد سنتين ارتفعت نسبة الجرائم

الصناعية والأمراض العصابية ارتفاعاً شديداً في المعمل. ولم تصل هذه الأرقام إلى متناول الصحف المحلية. وفكر علماء النفس أنّ نشر الأرقام من شأنه أن يؤدي إلى تفاقم الأمور، واعتقدوا أنّه من الأفضل معالجة كل قضية بصورة منفردة، تماماً كما تعالج قضية وجوب السيطرة على حريق وإطفائه. كلما أوغلت في التفكير في هذه المشكلة، ازداد شعوري أنّنا لا نملك أي فكرة حقيقية عن سببها. وقد هزمت المشكلة زملائي كما اعترف الدكتور إيمس لي خلال الأسبوع الأول الذي أمضيته في ترانز أولد كوزماتيكس، إذ ذكر أنّه من الصعب الغور في جذورها لأنّها تبدو ذات جذور عديدة: الانفجار السكاني، الازدحام الخانق في المدن، شعور الفرد باللامبالاة، ازدياد الإحساس بالعيش في فراغ، وافتقار الحياة الحديثة عنصر المغامرة. وذكر أيضاً أنّه غير متأكد من أن الصناعة لم تعالج المشكلة بأسلوب خاطئ تماماً. فهي تنفق الأموال الطائلة على الأطباء النفسانيين وتحسين ظروف المعيشة. لكن طالما أنّ حياتنا أصبحت تعتمد على هذا الخطأ، فإنّ عبء اقتراح التغيير لا يكاد يقع علينا.

لهذا السبب لجأت إلى التاريخ بغية العثور على الأجوبة التي ما إن عثرت عليها، حتى بدأت أشعر أنّها تجعلني أُفَضِّلُ الإقدام على الانتحار. فالأمر كله محتوم استناداً إلى التاريخ. باتت الحضارة ثقيلة الوطأة وأصبح لزاماً عليها السقوط. غير أن الأمر الوحيد الذي فشلت هذه النتيجة في أخذه بالاعتبار إنما يتمثل في قدرة البشر على التجديد الذاتي. وفي الإطار ذاته فقد بات يتعين على موزارت الإقدام على الانتحار لأن حياته أضحت تعيسة. إلا أنّه لم يفعل ذلك.

ما هو الشيء الذي يدمر قدرة البشر على التجديد الذاتي؟ إنّني لا أستطيع تماماً أن أفسر كيف بدأت أعتقد بوجود سبب وحيد لذلك، وقد

شرع يخيم عليَّ ببطء خلال سنوات عديدة. وبدأت أشعر أن الأرقام الخاصة بالجريمة الصناعية تجاوزت جميع الحدود بالنسبة إلى الأسباب التاريخية، وكأنّني رئيس شركة ينتابه الإحساس أن محاسبه يهيئ له الكتب رغم كونه لا يملك أي فكرة حول كيفية حصول ذلك. وفي يوم ما أخذ الشك يساورني أن هناك مصاصي دماء في العقل. ومنذ ذلك اليوم أكدت الأحداث ظنوني كلها.

فقد حدث الأمر أولاً عندما كنت أفكر في استعمال عقار المسكل لعلاج العصاب الصناعي. إن مثل هذا العقار لا يختلف من الناحية الجوهرية عن تأثير الكحول أو التبغ. فالإنسان الذي يجهد نفسه في العمل يشعر بالتوتر وما يلبث الأمر يصبح عادة يصعب التخلّص منها. ولن يزيل توتره سوى قدح من الشراب أو لفافة يدخنها. غير أن لدى الإنسان عاداته التي تجعله لا يحس بالإجهاد، وقد ساعده ارتقاؤه وتطوير عاداته على مرّ السنين على البقاء حياً. وحين تخرج إحدى هذه العادات عن سيطرته يصاب بمرض عقلي. فالإنسان على سبيل المثال يملك عادة الاستعداد لمواجهة الأعداء، غير أنّه إذا سمح لهذه العادة بالاستحواذ عليه، فسيصاب بعقدة الارتياب بالآخرين.

ومن أشد عادات الإنسان تأصلاً فيه الحذر من الأخطار والصعوبات وهو في ذلك يرفض السماح لنفسه القيام باستغوار عقله لأنّه لا يجرؤ على صرف نظر عن العالم المحيط به. أما العادة الأخرى فهي رفضه الانتباه للجمال لأنّه يفضل التركيز على المشاكل العملية. وهذه المشاكل من التأصل بحيث لا يؤثر فيها الشراب والتبغ، بل يصلها عقار المسكل الذي يستطيع أن يصل أيضاً إلى أعمق المستويات البدائية للإنسان ويحرر التوتر الآلي الذي يجعل منه عبداً لسأمه وللعالم الذي يحيط به.

لا بد لي من الاعتراف الآن أنّني أصبحت ميالاً إلى إلقاء اللوم على عاتق هذه العادات البدائية جراء المشاكل العالمية المتمثلة في معدل الانتحار ونسبة الجريمة في المصانع. إن الإنسان ينبغي عليه أن يتعلم كيف يسترخي وإلا غدا مجهداً وخطيراً. كما يتعين عليه تعلم كيفية الاتصال بأعمق مستوياته لكي ينشط وعيه. ولهذا بدا لي أن عقاقير المسكل قد تزودنا بالجواب.

لقد تم حتى الآن تجنب استخدام هذه العقاقير في علم النفس الصناعي لسبب واضح، إذ يعمل المسكل على توليد حالةٍ من الاسترخاء عند الإنسان إلى حدٍّ يصبح معه العمل مستحيلاً. ولا يعود هذا الإنسان يريد شيئاً سوى تأمل جمال العالم وأسرار عقله.

وشعرت أنّه لا يوجد سبب يؤدي بلوغ هذا الحدّ. إذ إن كمية قليلة جداً من هذا العقار قد تحرر، لدى استخدامها على نحو صحيح، قوى الإنسان الخلاقة دون أن تدفعه إلى حالة الغيبوبة. على أي حال، فإنّ أجداد الإنسان خلال الألفي سنة الماضية كانوا شبه مصابين بعمى الألوان. فقد اعتادوا إهمال الألوان، إذ كانت الحياة من الصعوبة والخطورة بحيث لم يتمكنوا من ملاحظتها. لكن بالرغم من ذلك نجح الإنسان المعاصر بالتخلّص من هذه العادة القديمة في عمى الألوان دون أن يفقد حوافزه وحيويته، والأمر كله ليس سوى الاحتفاظ بالتوازن.

هكذا شرعت بسلسلة من التجارب مستخدماً مجموعة عقاقير المسكل. كانت النتائج الأولية التي توصلت إليها مثيرة للهلع، حتى أنّ ارتباطي بشركة ترانز أولد كوزماتيكس فُسِخَ بسرعة. إذ أقدم خمسة من الأشخاص العشرة الذين أجريت عليهم التجارب بالانتحار خلال أيام قليلة. وأصيب آخران بانهيار عقلي كامل أدى إلى دخولهم مستشفى الأمراض العقلية.

انتابتني الحيرة. فقد سبق أن أجريت تجربة المسكل على نفسي خلال أيام دراستي في الجامعة، إلا أنّني وجدت النتائج غير مثيرة. إنّ الإجازة التي يمنحها المسكل ممتعة جداً، بيد أنّها تعتمد أساساً على مدى استمتاعك بهذه الإجازة وهو شيء لا أتّصف به لأنّني أشعر أنّ العمل مثير جداً.

لكنّ النتائج التي توصلت إليها جعلتني أقرّر القيام بتكرار التجربة. فأخذت نصف غرام وكانت النتيجة فظيعة جداً حتى أنّني ما زلت أقطر عرقاً كلما فكرت فيها.

فمنذ البداية انتابني التأثير الممتع المعتاد. ثم خيم عليَّ إحساس هائل بالسلام والهدوء وتأمل الكون. وبعد مرور ساعة على ذلك عدت إلى وضعي الطبيعي، ولم أكن على ما يبدو قد اكتشفت سبب حوادث الانتحار. حاولت أن أركّز انتباهي الآن على داخل نفسي، ومراقبة أحاسيسي وعواطفي، فكانت النتيجة مربكة. إذ كان الأمر شبيهاً بمحاولة النظر من خلال التلسكوب بينما شخص آخر يسدّ فتحة التلسكوب بيده؛ وفشلت كل محاولة في المراقبة الذاتية. حاولت بعدئذٍ وبجهد بالغ التغلغل في جدار الظلام هذا. فجأة انتابني شعور واضح أن شيئاً حياً وغريباً يسرع بالتواري عن أنظاري. بدا ذلك طبيعياً، فأنا لا أتحدث عن الرؤية الطبيعية. فقد كان ذلك مجرد إحساس، إلا أنّه امتاز بمسحة من الواقعية، بحيث كدت أجن من الخوف للحظة من الزمان. ذلك أنّه في وسع المرء أن يهرب من خطر مادي واضح، ولكن في حالتي لم يكن هناك مفر من هذا الخطر، لأنّه كان متغلغلاً في أعماقي.

خلال الأسبوع التالي للحادث كنت في حالة من الرعب القاتل، كما أنّني اقتربت جداً من حافة الجنون أكثر من أي وقت مضى. فبالرغم من أنّني عدت أدراجي إلى العالم المادي الاعتيادي فإنّني لم أشعر بالأمان. بل

أحسست أنّني في العودة إلى الوعي يومياً، كنت أشبه بالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال؛ ما يعني أنّني لم أكن واعياً بالخطر المحدق بي.

لحسن الحظ، لم يكن لديَّ عمل في ذلك الوقت، إذ لتعذر عليَّ القيام به. بعد مرور أسبوع، وجدت نفسي أفكر قائلاً: "حسناً ما هو الشيء الذي يثير خوفك؟ فأنت لم تصب بأيّ أذىً"؟ حالاً بدأت أشعر بالارتياح، وبعد مرور أيام عرضت عليَّ شركة ستاندر موتورز آند إنجنيرنغ منصب رئيس الأطباء، وكنتُ قد توقعت ذلك. دخلت في لجّة عمل منظّمة، معقّدة وهائلة، لم تترك لي مجالاً للتفكير أو القيام بتجارب جديدة في معظم الأحيان. فكلمّا عادت أفكاري إلى تجارب المسكل، شعرت بنفور قوي منها، وتالياً إيجاد المبرر اللازم لتأجيلها.

قبل ستة أشهر، عدت أخيراً للتفكير بهذه المشكلة ولكن من زاوية مختلفة هذه المرة. وقد أخبرني صديقي روبرت هادون من جامعة برنستن عن تجاربه الناجحة في تأهيل وإصلاح مرتكبي الجرائم الجنسية، وذلك باستخدام أل. أس. دي. وقد استخدم في معرض شرح نظرياته عدداً من مصطلحات الفيلسوف هوسرل. سرعان ما تبيّن لي أنّ الظواهرية ليست سوى اسماً آخر للمراقبة الذاتية التي حاولت القيام بها تحت تأثير المسكل، فعندما كان هوسرل يتحدث عن الكشف عن بناء الوعي، إنّما كان يعني النزول إلى عوالم العادات العقلية التي تحدَّثْتُ عنها. لقد أدرك هوسرل أنّنا في حين نملك خرائط مسح المعدات الحربية التي تغطي كل بوصة من الأرض، فإنّنا لا نملك أي أطلس لعالمنا العقلي.

بثّت قراءة هوسرل الشجاعة فيَّ من جديد. لقد أفزعتني فكرة تجربة المسكل مرة أخرى إلا أنّ الظواهرية تبدأ من الوعي الاعتيادي، ولهذا عاوَدْتُ تسجيل الملاحظات حول مشاكل العالم الداخلي عند الإنسان وجغرافية وعيه.

سرعان ما تَنَبَّهْتُ إلى أنّ تلك القوى الداخلية كانت تتصدى لأبحاثي. إذ ما إن شرعْتُ بالتأمل في هذه المشكلات حتى انتابني صداع شديد وشعور بالغثيان. كنت أَسْتَيْقِظُ صباح كل يوم والشعور بالقنوط يخيم عليَّ. لقد كنت طالباً أدرس الرياضيات على سبيل الهواية إضافة إلى كوني لاعِبَ شطرنج جيد. اكتشفت أنّ حالتي كانت تتحسن عندما أحوّل انتباهي نحو الرياضيات أو الشطرنج ؛ وفي اللحظة التي أفكر فيها في العقل، فإن القنوط يستحوذ عليَّ ثانية.

أصبح ضعفي سبباً يثيرني، فقررت أن أتغلب عليه مهما كان الثمن. لذلك طلبت السماح لي بالتمتع بإجازة لمدة شهرين، وأخبرت زوجتي أنّني على وشك السقوط فريسة مرض خطير. حوّلت عقلي إلى مشكلات الظواهرية عمداً ؛ وكانت النتيجة كما توقعت، إذ شعرت في الأيام الأولى بالتعب والقنوط. ثم أَخَذْتُ أشعرُ بصداع وآلام في الأعصاب وصرت أتقيأ كل ما أتناوله من طعام. لزمت سريري وحاولت استخدام عقلي في سبر أسباب مَرَضي مستعيناً بطرق التحليل التي وضعها هوسرل. لم تكن زوجتي تملك أي فكرة عما حدث لي كما أنّ قلقها زاد من تفاقم الأمور. لحسن الحظ لم يكن لدينا أولاد وإلاّ كان عليَّ الاستسلام حتماً.

بعد مرور أسبوعين أصبحتُ على درجة من الإرهاق بحيث لم أعد أقوى على تناول ملعقة من الحليب إلا بصعوبة بالغة. بذلت جهداً هائلاً لأستجمع قواي حتى تلك الكامنة في أعمق مستويات الشعور. في تلك اللحظة، تنبَّهتُ للأعداء، وبدَوْتُ كشبحٍ في أعماق البحر محاطاً بأسماك القرش. لم أكن أستطيع رؤية الأعداء بالمعنى الاعتيادي. كنت أشعر بوجودهم مثلما يشعر المرء بألم في أسنانه. إنّهم هناك في مكان ما من كياني حيث لا يستطيع الوعي أبداً أن يصل إليهم.

وبينما حاولتُ منع نفسي من الصراخ خوفاً، وهو خوف الإنسان الذي يواجه الدمار الحتمي، أدركتُ فجأة أنّني تمكنت من التغلب عليهم. استجمعتُ قوى الحياة العميقة لمقاومتهم، ووُلِدَتْ فِيَّ قوة هائلة لم يسبق لي معرفتها، ونهضتُ كالعملاق بالرغم من شعوري بوجود الآلاف من هؤلاء الأعداء يحيطون بي، كنت واثقاً أنّهم لا يستطيعون القيام بشيء ضدي.

ثم انتابني إحساس هائل وكأنّ الصاعقة نزلت عليّ. لقد بدا كل شيء واضحاً تماماً: فقد عرفتُ السبب في أهمية عدم ارتياب أحد بوجودهم. فالإنسان يمتلك من القوة ما يكفي لتدميرهم جميعاً. بيد أنّه بقدر ما يكون غافلاً عنهم، فإنّهم يقتاتون عليه وكأنّهم مصاصو دماء يستنزفون قواه.

دخلت زوجتي إلى غرفة النوم وذهلت عندما رأتني أضحك كالمجنون. وقد ظنَّت لوهلةٍ أنّ عقلي انهار. ثم أدركت أنّها ضحكة تدل على سلامة العقل.

طلبتُ منها أن تحضر لي صحناً من الحساء. وبعد ثمانٍ وأربعين ساعة استعدْتُ كامل قواي وأصبحتُ قادراً على الوقوف على قدميّ، بل وفي صحة أفضل من السابق بكثير. لقد شعرتُ أوّل الأمر بغبطة عظيمة إزاء اكتشافي أنّني نسيت أمر مصاصي دماء العقل. ثم أدركت أنّ هذا الشعور بطبيعته إنما هو الغباء بعينه. فهُم يقدّمون فائدة عظيمة لي. يعرفون عقلي أكثر منّي وفي ميسورهم تدميري ما لم أكن حذراً. غير أنّني كنت بمأمن منهم في تلك اللحظة، وعندما انتابني الإحساس بالقنوط في وقت متأخر من ذلك اليوم، عدتُ ثانية إلى القوى الداخلية في أعماقي وإلى تفاؤلي بمستقبل البشرية. وسرعان ما توقّفت تلك الهجمات فانفجرْتُ بالضحك من جديد. ومرّت أسابيع عدّة قبل أن أتمكّن من السيطرة على هذه الضحكة كلّما اشتبكْتُ مع هذه الطفيليات.

لقد كان الاكتشاف الذي توصّلْتُ إليه مذهلاً بحيث لا يستطيع العقل الاعتيادي أن يفهم فحواه. لِحُسْنِ الحظ أنّني لم أتوصّل إلى هذا الاكتشاف قبل ست سنوات، عندما كنت أعمل لحساب شركة ترانز أولد. في الوقت نفسه، أخذ عقلي يستعدّ ببطء وعلى نحو لاشعوري لذلك الاكتشاف. ففي الأشهر القليلة الماضية، أصبحت أشدّ اعتقاداً من أنّ هناك قوىً هائلة تعمل لصالح البشرية بالرغم من أنّني لا أدرك طبيعتها.

وسجَّلْتُ ملاحظة حول هذه الجملة وذلك لأنّها كانت تشير إلى أمرٍ لطالما أحسست به غريزياً.

ما تشير إليه هو التالي: لقد كان العقل البشري وخلال القرنين الماضيين ضحية لقوى مصاصي الدماء هذه. وفي حالات قليلة، استطاعت هذه القوى السيطرة تماماً على العقل البشري واستخدامه لأغراضها الخاصة. فأنا على سبيل المثال، متأكد تقريباً من أن دي ساد كان واحداً من أولئك الْمُسْتَلَبي الإرادة الذين سَيَطَرَ مصاصو الدماء على أدمغتهم. إنّ الغباء الذي تميزت به أعماله ليست مؤشّراً على النشاط الشيطاني، والدليل على ذلك أنّ دي ساد لم ينضج أبداً بالرغم من أنّه عاش حتى سن الرابعة والسبعين. إنّ الهدف الوحيد الكامن وراء مؤلفاته هو إضافة اضطراب عقلي للجنس البشري متعمّداً في ذلك تشويه حقيقة الجنس البشري وتحريفها.

حالما فهمت أمر مصاصي دماء العقل، أصبح تاريخ المائتي سنة الماضية واضحاً على نحو سافر. فحتى العام 1780 — وهو تقريباً التاريخ الذي قام به مصاصو دماء العقل بغزو الأرض — كان الفن يميل إلى تنشيط الحياة مثل موسيقى هايدن وموزارت. وبعد غزو مصاصي دماء العقل، فإنّ هذا التفاؤل المريح أصبح شبه متعذّرٍ على الفنان. إذ اختار

مصاصو الدماء دوماً أشدّ الناس ذكاءً أداة لهم، لأنّ الأذكياء يتمتعون بالتأثير الأكبر على الجنس البشري في النهاية. وقد كان عدد قليل من الفنانين يملكون القوة لتجاهلهم، واستطاع أولئك الفنانون الحصول على قوة جديدة من خلال القيام بذلك، ومن الواضح أنّ بتهوفن وغوتيه يعتبران مثالين في هذا الخصوص.

يوضح هذا توضيحاً دقيقاً السبب في أنّه من المهم جداً لمصاصي دماء العقل الاحتفاظ بوجودهم سراً، وذلك لامتصاص دم الحياة عند الإنسان دون أن يعي ذلك. إنّ الإنسان الذي يقهر مصاصي دماء العقل يصبح أشد خطراً عليها لأن الغلبة تصبح لقوى التجديد الذاتي التي يتمتع بها هذا الإنسان. في مثل هذه الحالات، يحاول مصاصو الدماء تدميره بطريقة أخرى، بمحاولة تأليب الآخرين عليه. وينبغي علينا أن نتذكر أنّ موت بتهوفن حصل لأنّه ترك بيت شقيقته بعد مشاحنة غريبة، وأخذ يقود عربته المكشوفة تحت الأمطار مسافة عدة أميال. في جميع الأحوال نلاحظ أنّه في القرن التاسع عشر أخذ الفنانون يشكون لأول مرة من أنّ العالم يقف ضدهم. لقد نال هايدن وموزارت ما يستحقان من تقدير وعرفان في عصريهما. لكن حالما يموت الفنان، يتلاشى هذا الإهمال، إذ يخفف مصاصو الدماء من قبضتهم على عقول الناس، وتصبح لديهم أمور أكثر أهمية من ذلك.

نلاحظ في تاريخ الفن والأدب ومنذ العام 1780 نتائج المعركة مع مصاصي دماء العقول. إنّ المفترين على الحياة هم الذين يعيشون غالباً حياة طويلة ويانعة. ومن المهم أن نقارن على سبيل المثال بين قدر شوبنهاور المفتري على الحياة ونيتشه الشاهد عليها، أو بين دي ساد المنحط جنسياً ولورنس الصوفي في الجنس.

باستثناء هذه الحقائق الواضحة، فإنّني لم أنجح في تعلّم الكثير حول مصاصي دماء العقل، إذ أميل إلى الشك في أنّهم موجودون على الأرض دوماً، وبأعداد صغيرة. ولعل الفكرة المسيحية حول الشيطان، ناشئة من حدس غريب بالدور الذي لعبه مصّاصو الدماء في التاريخ البشري. كيف يستولون على عقل الإنسان. وكيف يقومون بتحويله إلى عدو للحياة والجنس البشري. إلا أنّه من قبيل الخطأ أن نوجه اللوم إلى مصاصي الدماء في المصائب التي حلّت بالجنس البشري. فبما أنّ الإنسان حيوان يحاول الارتقاء إلى صفوف الآلهة، فإنّ العديد من مشاكله نتيجة حتمية لهذا الصراع.

لديَّ نظرية أودّ إيضاحها هنا، من أجل أن تكتمل الصورة. فأنا أرتاب من أن يحتوي الكون أجناساً بشرية مثلنا تناضل من أجل الارتقاء. فكل جنس ومنذ مراحل ارتقائه الأولى يهتم أساساً بالتغلب على الطبيعة وقهر الأعداء وتأمين الغذاء. لكن عاجلاً أم آجلاً، سيحين الوقت الذي يكون فيه هذا الجنس قد تخطّى حدود هذه المرحلة، سيستطيع عندها أن يحوّل اهتمامه إلى داخله، وإلى متعة العقل. وقد قال الدكتور إدوارد دير: "عقلي هو ملكوتي". فعندما يدرك الإنسان أنّ عقله هو ملكوته بالمعنى الحرفي للكلمة، فإنّه يكون قد عبر الحدود الفاصلة بين الإنسان والإله. كما أنّني أرتاب الآن من أنّ مصاصي دماء العقل هؤلاء، متخصصون في إيجاد الأجناس التي وصلت إلى هذه النقطة من الارتقاء والتي على وشك أن تحقق قوة جديدة، فيقوم عندئذ مصاصو الدماء بالتغذي منها حتى تدميرها. إنّ التدمير ليس هدفهم الحقيقي، لأنّهم ما إن ينجزوا ذلك حتى يضطروا للبحث عن مضيف جديد، بل إنّ هدفهم هو أن يسيطروا ولأطول فترة ممكنة، على الطاقات الهائلة التي يولّدها الصراع من أجل الارتقاء. لهذا السبب فإنّ

هدفهم يتمثّل في منع الإنسان من اكتشاف العوالم القائمة في أعماق نفسه وإبقاء اهتمامه منصبّاً على الخارج. ومما لا شك فيه أنّ حروب القرن العشرين ليست إلا اختراعاً متعمداً من اختراعات مصاصي الدماء هؤلاء. فقد كان هتلر، أسوة بدي ساد مستلب إرادة آخر بلا شك. إذ ليس من شأن حرب عالمية مدمّرة تماماً أن تخدم أغراضهما، وقد كان من الأفضل الاقتصار على المناوشات البسيطة المستمرة.

ترى ماذا سيشبه الإنسان إذا تمكّن من تدمير مصاصي الدماء أو طردهم؟ من شأن النتيجة الأولى أن تكون الإحساس الهائل بالارتياح العقلي، وزوال القهر وظهور طاقة جديدة من الأمل. وفي الدفقة الأولى من الطاقة هذه، يكون ابتكار الروائع الفنية الكثيرة. ومن شأن الجنس البشري أن يقوم برد فعل شأن الأطفال الذين يُسْمَحُ لهم بالخروج من المدرسة في اليوم الأخير من الفصل الدراسي. إنّ طاقات الإنسان من شأنها أن تتجه نحو الداخل. عندئذ سيتحمّل وزر تركة هوسرل، ويبدو من المهم الإشارة إلى أن هتلر كان السبب في موت هوسرل الذي كانت مؤلفاته على وشك أن تحقق إنجازاً جديداً. ومن شأنه أن يدرك فجأة أنّه يملك قوى داخلية تجعل القنبلة الهيدروجينية تبدو مجرد شمعة. ولعلّه يصبح بمساعدة المسكل مثلاً ولأول مرّة من سكان عالم العقل، تماماً كما هو الآن من سكان العالم. ومن شأنه أن يسبر غور مساحات العقل كما قام لفنكستن وستانلي بسبر غور أفريقيا. ومن شأنه أيضاً أن يكتشف أنّ لديه أكثر من نفس واحدة. وأنّ النفس العليا هي ما أطلقها عليها أجداده الآلهة.

لديَّ نظرية أخرى، وهي من العبث بحيث لا أملك الجرأة للبوح بها. تتلّخص في أنّ مصاصي دماء العقل ودون قصد منهم ليسوا سوى أدوات لبعض القوى العليا. ومن الجائز أن تنجح في تدمير أي جنس

يصبح مضيفاً لها. لكن إذا تعيّن على أي جنس أن يكون واعياً بالخطر المحدق به، فإنّ النتيجة من شأنها أن تكون عكسية. إنّ إحدى العقبات الأساسية أمام الارتقاء البشري هو سأم الإنسان وجهله ونزعته نحو الشرود، وترك الغد يتحكم بالأمور. بمعنى آخر نلاحظ أنّ هذا الأمر ربما يمثّل خطراً محيقاً بالارتقاء – أو على الأقل عائقاً أمامه – أكثر من مصاصي الدماء أنفسهم. وما أن يَعِيَ جنس من الأجناس مصاصي الدماء هؤلاء حتى تكون نصف المعركة التي يخوضها ضدهم قد حُسِمَتْ لصالحه. فعندما يكون للإنسان هدف وإيمان يصعب قهره. لهذا السبب ربما يقوم مصاصو الدماء بعملهم هذا في تلقيح الإنسان ضد كسله ولامبالاته، وعلى أي حال، فإنّ ذلك لا يعدو كونه أكثر من مجرد تأملات طارئة.

المشكلة التالية نغدو أكثر أهمية من كل هذه التأملات: كيف السبيل إلى التخلص من هؤلاء؟ والإجابة لا تكمن ببساطة في نشر الحقائق. إذ لا تعني الحقائق التاريخية أي شيء تماماً. لذلك سَتُهْمَل. بطريقة ما لا بدّ من تحذير الجنس البشري من ذلك الخطر. ولو فَعَلْتُ ما من شأنه أن يبدو سهلاً للغاية – مثل ترتيب إجراء مقابلة تلفزيونية أو كتابة سلسلة من المقالات للصحف حول الموضوع – فربما وَجَدْتُ أذناً صاغية، إلا أنّني أعتقد أنّ الاحتمال الأكبر يتمثل في أن يَتَّهِمَني الناس بالجنون. نعم هذه المشكلة عويصة تماماً. إذ بالنظر لعدم تمكّني من إقناع كل فرد بتناول جرعة من المسكل، فإنّني غير قادر على التفكير بأي طريقة أقنع بها الآخرين. كما أنّه ما من ضمانة في أن يُحْدِثَ المسكل التأثير المطلوب أولاً، فإنّني قد أغامر بإلقاء كمية كبيرة منه في مستودع ماء إحدى المدن. كلا لا يجوز التفكير في مثل هذا العمل. إذ في الوقت الذي يحتشد فيه مصاصو الدماء للهجوم يجب عدم تعريض سلامة العقل إلى الخطر.

وأفهم الآن لماذا انتهت تجربتي في ترانز أولد نهايةً مأساوية. إنّ مصاصي الدماء دمّروا هؤلاء الناس عمداً كتحذير لي. فالإنسان الاعتيادي يفتقر إلى النظام العقلي لمقاومتهم؛ وهذا هو السبب في ارتفاع نسبة الانتحار.

لذا يتعين عليَّ أن أعرف المزيد عن هذه المخلوقات. ففي الوقت الذي أجد فيه جهلي كاملاً فإنّها تستطيع تدميري. وعندما تتوفّر لديَّ المعلومات الكافية عنها، فلربما أستطيع أن أعرف كيف أحذّر الجنس البشري منها.

❖ ❖ ❖

إنّ هذا المقطع الطويل جداً الذي أوردته لا يمثّل البداية التي انطلقت منها. لكنّه يمثل منتصف الموضوع. إنّ التأملات التاريخية ليست في الواقع تأملات مطوّلة حول طبيعة مصاصي الدماء أولئك ودورهم في تاريخ البشرية. بل إنّ العمل يقع في صورة مذكرات، وأفكار. ولهذا، فهو يمتاز بالتكرار الكثير. إنّ وايزمان يحاول الإمساك برؤيةٍ ما مركزية، ولكنّها تتملّص منه دوماً.

لقد أذهلتني حقيقة أنّني كنت أستطيع التركيز لفترات طويلة جداً. ولو أنّني مررت بالظروف التي مرَّ بها لَوَجَدْتُ — بلا شك — صعوبة أشد في كبت قلقي. إلا أنّني بدأت أعتقد أنّ ذلك حدث لأنّه شعر بأنّه قد أصبح الآن في مأمن منهم نسبياً. لقد تغلّب عليهم في أول معركة وشعر بنشوة النصر. أما مشكلته الرئيسة فهي — كما يقول — جعل الآخرين يصدقونه. ويبدو أنّه لم يكن يعتقد أنّ ذلك كان أمراً عاجلاً. إذ كان يعلم أنّه لو قام بنشر اكتشافاته كما هي، فإنّهم سيعتبرونه مجنوناً. وفي كل الأحوال، يتعين عليه كونه عالماً أن يبرهن الحقائق التي يتوصل إليها ويوسّعها قبل أن يقوم بالإعلان عنها. إنّ الأمر الذي أثار حيرتي

ولا يـزال هـو أنّـه لم يحـاول أن يخبر أحـداً بـذلك ، ولا حتى زوجته ، ما يـشير إلى حالـة عقلـية غـريبة. فهـل كـان واثقاً تماماً من أنّه أصبح الآن في مـأمن وأنّ مـسألة الـوقت لم تعـد تهم؟ أو هل إنّ الشعور بالنشاط ما هو إلا حيلة أخرى مـن حِيَلِ مـصاصي الـدماء؟ مهمـا حـدث ، فإنّه واصل العمـل في تـسجيل ملاحظاته مقتنعاً في أنّه كان يحارب في معركة سينتصر فيها ، إلى أن جاء اليوم الذي دفعوه فيه إلى الانتحار.

يمكن التكّهن بالمشاعر التي انتابتني وأنا أقرأ هذا كلّه. فمنذ البداية ، راودتـني الشكوك. ثم انتابني الخوف والإثارة. وأعتقد أنّه كان في وسعي أن أغـضّ النظر عـن الموضـوع برمته باعتباره جنوناً ، لولا التجربة التي مـررت بها على جدار قره تبه. لقد كنت مستعداً للإيمان بوجود مصاصي الدماء هؤلاء. ولكن ماذا بعد ذلك؟

على النقـيض من وايزمان ، لم تكن لديَّ القدرة على الاحتفاظ بالأمر سراً. لقد أصابني الهلع ، وأدركْتُ أيضاً أنّ أفضل وسيلة هي حرق الأوراق والتظاهـر بـأنّني لم أقـرأها أبـداً. أيْقَـنْتُ أنـّهم سيتركوني وشـأني في تلـك الحالـة ، وبـدا لـي أنـّني أقترب مـن الجنون. وفي الـوقت الـذي واصَـلْتُ فـيه القـراءة كـنت أختلس النظـر حولـي بعـصبية ، ثـم أدركْتُ أنـّهم إذا كانـوا يقومـون بمـراقبتي ، فـلا بـد أنّ ذلك يجري من الداخل. أصبحت تلك الفكرة لا تطـاق حتـى وصـلت إلى مقطـع يقـارن فـيه وايـزمان ، بـين أسـاليبهم في استراق الـسمع والإصـغاء إلى الـراديو. ثـم فكـرت أنّ ذلـك أمر معقول. فهم موجـودون في أعمـاق الوعـي وفي ملكـوت أعمـق الـذكريات. وإذا مـا اقتربوا كـثيراً مـن الوعـي ، فـإنّهم سيتعرضـون إلى خطـر الكـشف عـن أنفـسهم. توصَّلْتُ إلى نتـيجة مفادهـا أنـّهم امـتلكوا الجـرأة للاقـتراب مـن الـسطح في وقـت متأخـر مـن الليل ، عندما يكون العقل منهكاً والانتباه مستنفذاً ؛ الأمر الذي يفسّر ما حدث فوق الجدار عند قره تبه.

لقد كنْتُ أعْلَمُ ماهية الخطوة التالية، وتعيّن عليَّ أن أخبر رايش بالأمر. فهو الإنسان الوحيد الذي أحبّه وأثق فيه ثقةً كبيرة. لعلّ مأساة كارل وايزمان أنّه لم يحبّ أحداً أو يثق بأحد بمقدار ما كنت أحبّ رايش وأثق به، إلا أنّني لو أردت إخباره، فإنّ أفضل وقت لذلك سيكون في الصباح، حيث كلانا في يقظة تامة. كما أنّني أعجز عن كتمان السر حتى صباح اليوم التالي.

لهذا السبب اتصلت برايش في موقع العمل، وما إن لاح وجهه على شاشة التلفزيون، حتى شعرت بنفسي أقرب إلى سلامة العقل. وسألته إن كان يرغب في تناول وجبة طعام معي في ذلك المساء. وعندما استفسر إن كان ثمة سبب خاص، لم أقل له شيئاً سوى أنّني سأكون في حال أفضل برفقته. كان الحظ إلى جانبي إذ أراد بعض مدراء شركة اليورانيوم الذين كانوا في موقع العمل عصر ذلك اليوم العودة إلى ديار بكر بواسطة الصاروخ في الساعة السادسة. وفي خلال نصف ساعة سيكون رايش معي.

بينما كنت أقطع التيار مرّت بي أوّل فكرة حول السبب الذي جعل وايزمان يلزم الصمت حيالهم. إنّ فكرة استراق السمع أدّت إلى أن يقوم المرء بالتصرف على نحو هادئ وأن يحاول كبت أفكاره ومعالجة الأمور العامة.

طلبتُ وجبة الطعام في الطابق السفلي في مطعم المدير وكان يُسْمَحُ لنا بدخوله، إذ بدا لي المكان أكثر أماناً إن أخبرته فيه. وفي الساعة التي سبقت وصوله، اضطجعْتُ في سريري وأغمضْتُ عيني وحاولْتُ متعمداً الاسترخاء وإفراغ ما في ذهني.

الغريب في الأمر أنّني لم أجد صعوبة في ذلك هذه المرة، فهذا التمرين الخاص بالتركيز على الذهن يخلق تأثيراً منبهاً، سرعان ما بدأت

أفهم أموراً معيّنة بفعل تأثيره. وبما أنّني رومانسي صريح، فقد كنتُ دائماً عرضةً للسأم الذي ينشأ عن نوع من عدم الثقة بالعالم. تشعر بأنّك لا تستطيع تجاهله أو تحويل أنظارك عنه أو نسيانه. لهذا تجلس وتحدّق إلى زاوية السقف بينما تكون قادراً على الإصغاء إلى الموسيقى أو التفكير في التاريخ، وإحساس غريب بالمسؤولية يستحوذ عليك. لقد شعرت الآن أنّ مسؤوليتي تتمثّل في تجاهل العالم الخارجي، وأدركت ما كان يقصده كارل: من المهم بالنسبة للطفيليات أن نظلّ نجهل وجودها. فمجرّد وعينا بوجودها يعني شعور جديد بالقوة ووجود الهدف.

وصل رايش في الساعة السادسة والنصف تماماً وأخبرني أنّني أبدو في حال أفضل من السابق. تناولنا الشراب وأخبرني بما دار في الموقع منذ مغادرتي إياه، وكلها شجارات تافهة حول أفضل زاوية للنفوذ إلى النفق. في الساعة السابعة ذهبنا لتناول العشاء. في المطعم أرشدونا إلى منضدة هادئة قرب النافذة وأحنى لنا عدة رجال رؤوسهم، إذ كُنّا قد أصبحنا شخصيات عالمية مشهورة خلال الشهرين الماضيين.

بعد أن جلسنا طلبنا بطيخاً مثلجاً ثم تناول رايش قائمة المشروبات بيد أنّني بادرت وأخذتها منه وقلت: "إنّني لا أحبّ أن نشرب المزيد هذه الليلة، وستعرف السبب فيما بعد. فنحن في حاجة إلى فكر صافٍ".

فنظر إليَّ في دهشة وقال:

— ما الذي حدث؟ لقد اعتقدت أنّكَ قُلْتَ أن ليس هناك ما يشغل بالك.

— ليس من ذلك بد. إنّ ما أريد قوله لك ينبغي أن يبقى سراً بيننا في الوقت الحاضر.

فقال وهو يبتسم:

– إذا كان الأمر بمثل تلك الأهمية فإنّه ربما كان من الأفضل أن نبحث تحت المنضدة، لعلّ هناك ميكروفونات.

فقلت له ليس ثمة ضرورة لذلك لأنّ ما سأقوله لن يصدقه أي شخص يسترق السمع. وهنا بدا في حيرة من أمره، لهذا أَرْدَفْتُ قائلاً:

– هل أبدو لك في تمام قواي العقلية؟

– نعم فعلاً.

– ولنفرض أنّك في غضون نصف ساعة من الآن سترتاب في سلامة عقلي؟

– قل لي ما الأمر بحق السماء. إنّني أعلم أنّك لست مجنوناً. فماذا هناك؟ لا تقل لي إنّها فكرة جديدة حول مدينتنا تحت الأرض؟

فهززت رأسي بالنفي وبما أنّه بدا وقد أصابه الذهول هذه المرة أخبرته أنّني كنت أقرأ أوراق كارل وايزمان طيلة عصر ذلك اليوم. وقلت:

– أعتقد أنّني اكتشفت لماذا أقدم على الانتحار.

– لماذا؟

– أعتقد أنّه من الأفضل أن تقرأ هذا القسم بنفسك. فهو يشرح ذلك شرحاً أفضل من شرحي. لكنّ النقطة الرئيسة هي أنّني لا أعتقد أنّه كان مجنوناً. كما أنّه لم ينتحر، بل كان الأمر اغتيالاً.

وفي الوقت الذي أخذْتُ أتحدث فيه بهذا الشأن رُحْتُ أتساءل إن كان سيعتقد بأنّني مجنون. وحاولْتُ أن أبدو هادئاً سليم العقل قدر المستطاع. ومما دعا إلى ارتياحي أنّه لم يقل سوى:

– أُنْظُرْ. لنتناول بعض الشراب لو سمحت على أي حال. فأنا في حاجة إلى قدح.

طلبنا زجاجة من الشراب وشاركته في احتسائها، وأخبرته بأقل ما يمكن من الإيجاز عن نظريات وايزمان الخاصة بطفيليات العقل. وبدأت الحديث بأن ذكّرته بتجربتي فوق الجدار في قره تبه، ومناقشتنا لذلك.

قبل أن أنهي حديثي كان احترامي وحبي لرايش قد تضاعف. إنّ الشرح المختصر الذي قدّمته له لا بد قد اتّسم بالجنون ولكن بالرغم من ذلك، فقد أدرك أنّني ربما قرأت شيئاً في أوراق وايزمان جعلني أقتنع بما أقول وأنّه أراد أن يقتنع هو الآخر.

وبينما نحن نتّجه إلى الطابق العلوي بعد تناول وجبة الطعام، أَخَذْتُ أتذكر إحساسي باللاواقع. إذ لو كُنْتُ محقاً، فإنّ الحديث الذي جرى تواً بيننا كان من أعظم الأحاديث في تاريخ البشرية. وها نحن هنا شخصان عاديّان نحاول العودة إلى عزلة غرفتنا، ويبادرنا بالكلام رجال تبدو عليهم آثار النعمة أرادوا أن نقابل زوجاتهم. بدا ذلك أمراً طبيعياً واعتيادياً. نظرت إلى ولفكانك رايش وهو يسبقني في صعود السلالم وفكرت فيما إذا كان حقاً قد صدّق قصتي الخيالية. وعرفت جيداً أنّ سلامة عقلي تعتمد اعتماداً أساسياً على مدى تصديقه إياي.

تناولنا عصير البرتقال في غرفتي. وفهم رايش الآن لماذا أَرَدْتُ أن يبقى ذهننا صافياً، فضلاً عن أنّه لم يدخّن. ناولته ملف التأملات التاريخية وأَطْلَعْتُهُ على المقاطع التي أَشَرْتُ إليها سابقاً. وأَعَدْتُ قراءتها وأنا جالس بجانبه. عندما فَرَغْت وقف على قدميه وأخذ يروح جيئةً وذهاباً دون أن ينبس بكلمة. وأخيراً قلت:

— ألا تقرّ أنّ الأمر ليس مجرّد حلم مجنون؟ لقد عَرَّضْتَ حياتك للخطر بسبب ما ذكرته لك.

فقال:

– ذلك لا يقلقني. إذ تَعَرَّضْتُ للخطر من قبل. غير أنّني أريد أن أعرف إلى أي حدٍّ يكمن الخطر الحقيقي. إنّني لم أمرّ بتجربتك مع مصاصي دماء العقول ولهذا لا أملك وسيلةً للحكم.

– ولا حتى أنا. فمعلوماتي قليلة مثلك تماماً. ومجلدات وايزمان الأخرى مليئة بالتكهنات حولهم إلا أنّها تفتقر إلى الأمور المحددة. وعلينا أن نبدأ من نقطة الصفر.

وبعد أن نظر إليَّ لبضع ثوان قال :

– وهل تعتقد في هذه الأمور؟

– أتمنّى ألا أعتقد فيها.

وبدا كل شيء لنا عبثاً إذ كُنّا نتحدث مثل شخصيتين في رواية من روايات رايدر هاكارد. ولكن بالرغم من ذلك ، كان كل شيء حقيقياً. وتحدثنا بدون هدف لمدة نصف ساعة وبعدها أضاف :

– هناك أمر واحد يتعيّن علينا القيام به حالاً. لا بد أن نسجّل ذلك كله على شريط كاسيت ونودِعْهُ أحد البنوك هذه الليلة. وإذا حدث أي شيء لنا خلال الليل ، فذلك سيكون بمثابة إنذار لنا كما سيقلّ عندئذٍ احتمال تفكير الناس بنا كمجنونين.

لقد كان على حق. أَخْرَجْتُ جهاز التسجيل وَنفَّذْتُ اقتراحه بأن أخذْتُ أقرأ بصوت عال مقاطع من ملاحظات وايزمان. وكانت الكلمة الأخيرة لرايش. إذ ذكر أنّه ليس متأكداً إن كان ذلك كلّه جنوناً أم لا. وبدا الأمر محتملاً جداً ليبرر هذا الحذر.

فنحن لا نزال نجهل كيف توفي وايزمان ، ولدينا يومياته وفيها مذكرات اليوم السابق لانتحاره التي توحي بأنّه كان سليم العقل تماماً.

وعندما انتهى التسجيل على الشريط ، احتفظنا به في صندوق مصنوع من اللدائن وتوجهنا لإيداعه في الخزانة الليلية لمصرف شركة

اليورانيوم وبعد ذلك اتّصَلْتُ بالمدير في منزله وأخبرْتُه بإيداعنا المصرف شريطاً يحتوي على بعض الأفكار المهمة وطلبنا منه الاحتفاظ بالشريط في القبو حتى تدعونا الضرورة لاسترجاعه. ولم نواجه أي صعوبة في هذا الشأن وقد افترض المدير أنّ الأمر يتعلق ببعض المعلومات المهمة حول التنقيبات والشركة ووعد أن يهتم بالأمر شخصياً.

أَخْبَرْتُ رايش عن حاجتنا نحن الاثنين إلى أخذ قسط من النوم وشَرَحْتُ له فكرتي من أنّ الطفيليات يقلّ تأثيرها في العقل الواعي كلياً. واتفقنا على الاحتفاظ بجهاز الهاتف التلفزيوني مفتوحاً بيننا طيلة الليل إذ ربما احتاج أحدنا إلى مساعدة. ثم افترقنا بعد ذلك. وبلا تردد تناوَلْتُ مسكناً قوياً – بالرغم من أنّ الساعة لم تكن قد بلغت العاشرة بعد – وذهبت للنوم. وعندما لامس رأسي الوسادة تمنيت ألا أظل يقظاً ومنشغلاً بالتفكير وسرعان ما غرقت في نوم عميق. كانت أفكاري منتظمة ومهذبة ولم أجد صعوبة في منع عقلي من التحريف.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي أيقظني رايش وبدا مغتبطاً عندما اكتشف أنّني على ما يرام. وبعد عشر دقائق، جاء إليَّ لتناول طعام الإفطار.

بينما كنّا نجلس في الغرفة التي أضاءها نور الشمس ونشرب عصير البرتقال المثلج بدأنا لأول مرة نفكّر في موضوع الطفيليات. كان عقلانا صافيين يقظين وسجّلنا معظم الحديث الذي دار بيننا على الشريط. تضمّن نقاشنا منذ البداية كيفيّة الاحتفاظ بمعلوماتنا في سرية تامة. كانت الإجابة أنّنا لا نملك وسيلة نتبيّن بها ذلك. بالرغم من ذلك، فإن وايزمان ظلّ حياً لمدة ستة أشهر مما يدل على أن الخطر لم يكن مباشراً. إضافة إلى هذا، فالطفيليات كانت تعلم أنّ وايزمان مستعد لها وقاومت فعلاً محاولاته لصرف أنظاره عن المشكلة. لهذا فقد كان مستهدفاً منذ

البداية ؛ من ناحية أخرى ، لم ألحظ وجود مخلوقات غريبة في اليوم السابق أثناء قراءتي لتأملات تاريخية وبعد أن سيطرت على ذلك الشعور الأولي من القلق والرعب ، بدأت أشعر بسلامة قواي العقلية والجسدية. لقد بدأت أرقى إلى مستوى التحدي ، وتذكّرت ما أخبرتني به جدتي ذات مرة أنّ كل فرد خلال الحرب العالمية الثانية بدا أكثر سعادة وصلابة من السابق ، وبدأت الآن أفهم ذلك جيداً.

لهذا فمن الممكن أنّ الطفيليات لم تدرك بعد أن سرّ وايزمان قد انكشف. لكن قلّما يبعث هذا على الدهشة. إذ إنّنا لا نعرف عددها أو فيما إذا كان مفهوم العدو ينطبق عليها. لكن إذا كانت لديها مشكلة ضبط الأمن على خمسة بلايين شخص – وهو عدد السكان الحالي – فالخطر عندئذ ليس عظيماً إلى ذلك الحدّ. افترض رايش أنّ نظرية يونغ صحيحة وأنّ الجنس البشري لديه عقل واحد كبير ومحيط شاسع من تحت الوعي. كما افترض أنّ هذه الطفيليات مخلوقات تعيش في أعماق هذا المحيط وتتجنّب الاقتراب كثيراً من السطح خشية اكتشاف أمرها. في هذه الحالة ، قد لا تكتشف ما نملكه من معلومات خلال سنوات طويلة شرط ألاّ نسمح لأذهاننا بالشرود كما فعل وايزمان بتحذيرها.

سبّب ذلك مشكلة ، ففي الليلة السابقة ، شعر كلانا أنّ أفضل وسيلة لمعرفة المزيد عن الطفيليات هي تناول العقاقير التي تساعد على سبر غور أذهاننا. إلا أنّنا أدركنا أنّ من شأن ذلك أن يكون خطراً. في هذه الحالة ، هل هناك وسيلة نستطيع بواسطتها أن نعرف عن العقل دون استخدام العقاقير؟

لحسن الحظ ، كتب وايزمان عن هذه المشكلة بالتفصيل. وقد اكتشفنا ذلك مع مرور الوقت خلال ذلك اليوم ، أثناء قراءتنا التأملات صفحة تلو الأخرى. وتبين أنّ ظواهرية هوسرل هي ما كُنّا بحاجة إليه.

فقد كان هوسرل مهتماً بوضع خريطة لبناء الوعي أو جغرافيته كما فضلنا أن نطلق عليها، وذلك عبر التأمل الواعي ليس إلا. وبينما نحن نفكر في الموضوع، وجدنا أنّ الأمر لا يعدو كونه فطرة. فإذا أردت رسم خريطة لقارة مجهولة – مثلاً أدغال الزهرة – فإنّك لا تحتاج إلى هدر الوقت متنقلاً بين الأشجار. بل تعتمد أساساً على الأدوات وطائرتك العمودية. والأمر الأكثر أهمية أن تكون خبيراً في معرفة ما هو موجود تحتك، وتدرك كيفية تمييز المستنقعات من خلال لونها. وبقدر ما يتعلق الأمر بجغرافية العقل البشري، فإنّ المشكلة الرئيسة لا تكمن في الدخول في العوالم الكامنة تحت الوعي بل في تعلّم السبيل إلى مواءمة الكلمات لما تعرفه عنها. باستعمال الخريطة، أستطيع السير في باريس إلى كالكوتا، وبدونها قد أجد نفسي في أوديسا. فإذا كانت لدينا خريطة مماثلة للعقل البشري، فإنّه في وسع الإنسان أن يسبر غور الأرض الواقعة بين الموت والرؤيا الصوفية، وبين الإغماء التخشبي والعبقرية.

بطريقة أخرى، إنّ عقل الإنسان يشبه دماغاً إلكترونياً ضخماً قادراً على القيام بأشد الأعمال غرابة. وعلى أي حال ولسوء الحظ، فإنّ الإنسان لا يعرف كيفيّة تشغيله. فعند كل صباح يتوجّه الإنسان لدى استيقاظه إلى لوحة السيطرة في دماغه الهائل ويتقدم ليدير المفاتيح ويضغط الأزرار.

هنا يكمن العبث، إذ بوجود هذه الآلة تحت تصرف الإنسان، فإنّه لا يعرف كيف يجعلها تنجز أبسط الأعمال وتعالج أكثر المشاكل اليومية وضوحاً. صحيح أنّ هناك أشخاصاً نطلق عليهم تسمية العباقرة، حيث يستطيعون جعل الآلة تنفّذ أشياء كثيرة: مثل كتابة السيمفونيات والقصائد واكتشاف القوانين الرياضية. وهناك أيضاً عدد قليل من الرجال وهم ربما أهم الرجال على الإطلاق ممّن يستخدمون هذه الآلة

للكشف عن طاقاتها. وهم يستخدمون الآلات لاكتشاف ما يستطيعون القيام به بواسطتها، ويعرفون أيضاً أنّها قادرة على تأليف سيمفونية جوبيتر وفاوست ونقد العقل الخالص والهندسة ذات الأبعاد المختلفة. مع هذا، فقد حقّقت هذه الأعمال تقدماً عبر الصدفة أو أقلّه غريزياً. إنّ عدداً كبيراً من الاكتشافات حدث عبر الصدفة ولكن عندما يتم اكتشافها، فإنّ المهمة الأولى الملقاة على عاتق العالِم تتمثّل في إدراك القوانين الخفية التي تحكمها. من هنا، كان العقل الإلكتروني يُعَدُّ سراً من الأسرار. إذ إنّ إدراك كنهه يعني أنّ الإنسان سيتحول إلى آلة. فما هو إذن أفضل هدف يمكن أن يُوَجَّهَ إليه الوعي عدا سبر غور قوانين الوعي؟ هذا هو معنى الظواهرية وهي ربما أفضل مصطلح في مصطلحات الجنس البشري.

إنّ حجم المهمة الصرف أثار فزعنا. لكنّه لم يبعث فينا القنوط. إذ لا يمكن لأيّ عالِم أن يقنط وهو يقف على مشارف اكتشافات لا نهاية لها. ولا بد لي من التأكيد مرّات ومرّات أنّنا سجّلنا الملاحظة ذاتها وهي أنّنا نستطيع أن نفهم حاجة مصاصي الدماء إلى السرية لأن كل شيء يعتمد على فرضيّة أنّ المرض العقلي للجنس البشري أمر مفروغ منه باعتباره حالة طبيعية. لكن ما إن يأخذ الجنس البشري بالتشكيك بهذا المرض والنضال ضده، فإنّه ليس في وسع أي شيء الوقوف في طريقه.

أتذكّر أنّنا ذهبنا إلى الحانوت لتناول الشاي وقت الضحى، إذ قررنا اعتبار القهوة نوعاً من المخدرات وتالياً تجنّبها. وبينما نحن نعبر الساحة العامة عند شركة اليورانيوم وجدنا أنفسنا ننظر إلى هؤلاء الأشخاص الذين أحاطوا بنا نظرة فيها الكثير من الإشفاق. لقد كانوا جميعاً مهمومين بأمور تافهة وأسرى أحلام يقظتهم الشخصية، في حين كُنّا نصارع الواقع، الواقع الحقيقي الوحيد المتمثل في نشأة العقل.

ظهرت نتيجة واحدة مباشرة، إذ أخذت أفقد وزني الفائض وأصبحت صحتي البدنية ممتازة. كما بدأت أنام نوماً هانئاً عميقاً وأستيقظ والشعور التام بالهدوء ينتابني. أما العمليات العقلية فَغَدَتْ أشدّ دقّةً، وبتُّ أفكر بهدوء وبطء. أدرك كلانا أهمية هذا الأمر، فقد شبّه وايزمان الطفيليات بأسماك القرش. إنّ أسرع طريقة يجتذب بها السابح أنظار القرش إليه هي أن يرمي بنفسه في الماء ويبدأ بالصياح عند سطح الماء. أما نحن فلم نرتكب تلك الهفوة.

عُدْنا إلى موقع الحفريات، لكنّنا اختلقنا التبريرات لقضاء أقصر فترة ممكنة هناك. ولم يكن ذلك بالأمر الصعب إذ إنّ كل ما بقي لنا يتمثل في مشكلة تخصّ المهندسين أكثر مما تخصّ علماء الآثار. وقد فكّر رايش على أي حال، بنقل جهازه إلى أستراليا من أجل التنقيب عن الموقع الذي جاء وصفه في كتاب لافكرافت الموسوم **الظل خارج الزمن**، إذ إنّ اكتشافاتنا الحالية لم تترك مجالاً للشك في أنّ لافكرافت كان أشبه بالعرّاف وأنّ الاحتمال الوارد يستحق المجازفة. أما الآن ونحن لا نزال في شهر آب، فقد قررنا ببساطة أن نتمتع بعطلة مؤقتة وقد بررنا ذلك بسبب حرارة الجو في ذلك الشهر.

كان كل واحد منا يقظاً يراقب أي علاقة قد تظهر وتشير إلى الطفيليات. وكان عملنا يسير سيراً حسناً، حيث كُنّا نشعر بالأعراض نفسها في ما يخص الصحة البدنية والعقلية. كما أنّنا بقينا ساهرين نترقب أيّ إشارة تدل على تدخّل عقلي مما جاء ذكره في وصف كارل. ولم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل مما أثار حيرتنا. وقد اكتشفت السبب وراء ذلك عن طريق الصدفة، عندما قمت بزيارة لندن في أوائل شهر تشرين الأول. إذ كان يتعيّن عليَّ تجديد إيجار شقتي في شارع بيرسي. ولم أستطع أن أقرّر فيما إذا كان الأمر يستحق ذلك العناء كله. لهذا

السبب سافرت إلى لندن بواسطة صاروخ الصباح ووصلت شقتي في الساعة الحادية عشرة صباحاً. وفي اللحظة التي دخلت فيها الشقة أدركت أنّ الطفيليات كانت تراقبني. إنّ أشهراً طويلة من الترقب جعلتني حسّاساً، وقد كنْتُ أغضّ الطرف في الأيام الخالية، عن هذا الشعور المفاجئ بالقنوط والخطر الدائم الذي كنت أعزوه إلى سوء الهضم.

في غرفتي عرفت أنّ الطفيليات كانت تراقبني. ولعلّه من قبيل التناقض القول إنّها كانت موجودة هناك في غرفتي، في حين قلت تواً إنّها موجودة في داخلي. وهذا سببه عدم الدقة في اللغة اليومية. وبمعنى آخر فإنّ العقل الشامل والمكان الشامل ما هما إلا محض مصادفة كما أدرك وايتهيد. فالعقل في الواقع ليس موجوداً في أعماقنا بالمعنى ذاته الذي نقول فيه إنّ الأمعاء موجودة في داخلنا. إذ إنّ فردية كل شخص منا ما هي إلا نوع من الدوامة في بحر العقل، وانعكاس لهويّة الإنسانية الكاملة. لهذا، عندما أويت إلى غرفتي، كانت الطفيليات موجودة تواً في داخلي وتنتظرني هناك. كانت تقوم بمهمة حراسة الأوراق الموجودة فيها.

كانت أسابيع التدريب ذات أثر فعلي. فقد سمحت لعقلي أن ينحني أمام مراقبتها كما تنحني الشجرة في وجه الريح، أو كما يستسلم المريض لمرضه. انتابني الشعور ثانية أنّني مراقب من الأخطبوط لا من أسماك القرش. توجهت إلى عملي متظاهراً بعدم ملاحظتها، حتى أنّني توجهت إلى الدرج ونظرت في داخله في الوقت الذي سمحت فيه للجزء الأعلى من عقلي بالاستجابة للملفات الخاصة بعلم النفس. وقد أصبحت واعياً تماماً أنّ قوة جديدة نشأت في عقلي. فقد كنت منعزلاً تماماً عن الإنسان الذي أَطْلَقْتُ عليه قبل شهرين اسم جلبرت أوستن،

كما ينعزل محرك الدمى عن دميته التي يقوم بتحريكها أمام الجمهور. بالرغم من هذا، فإنّني في الوقت الذي كانت فيه الطفيليات تراقبني، عُدْتُ إلى نفسي الأولية وأصبحت مجرد مسافر إليها. ولم أكن أخشى التورط في شيء، إذ كنت أسيطر تمام السيطرة على نفسي. ثم انتقلت بعد ذلك إلى دوائر جلبرت أوستن الذي أصبح يتحرك داخل الغرفة وقد اتصل هاتفياً بهامستيد للاستفسار عن صحة السيدة وايزمان. وأخيراً اتصل بإحدى شركات نقل الأثاث – أثاثي أنا شخصياً – وإدراج الملفات إلى أحد المستودعات. وبعد ذلك خرجت وذهبت إلى صاحب الشقة وتحدثت معه ثم أمضيتُ ما تبقّى من ذلك اليوم في المتحف البريطاني حيث تحدثت مع هيرمان بيل رئيس قسم علم الآثار فيه. وكنت طيلة ذلك الوقت أعي تماماً أنّني تحت مراقبة الطفيليات بالرغم من أنّ تلك المراقبة تجري الآن عن كثب. وبما أنّني طلبت من شركة النقل حمل الأثاث لي، فإنّ اهتمام الطفيليات بدأ يفتر.

استطعت أن أسيطر على عقلي خلال الأربع والعشرين ساعة تقريباً بحيث لم أفكر إلا في القضايا الشكلية الخاصة بالتنقيب في قره تبه. لم يكن هذا أمراً صعباً كما يبدو للوهلة الأولى. بل كان الأمر مجرد مسألة تحديد هويتي ودَوْري الخاص بالاشتراك في إثارة بيل حول موضوع التنقيبات وما إليها. طُفْتُ في أرجاء لندن والتقيت أصدقائي، وسمحت لنفسي أن أكون موضوع احتفاء في حفلة صغيرة، تبين لي فيما بعد أنّها تحولت إلى حفلة صاخبة حيث قام المضيف بدعوة مائة ضيف عندما وعدته بالحضور. تعمّدتُ السماح لعقلي بالعمل وفق أسلوبه القديم أي بطريقة سيئة، إذ وجدت نفسي عرضة لإثارة بالغة ومن ثم اجتاحني القنوط. وفي طريق عودتي إلى البيت تساءلْتُ إن كان الأمر برمته مجرد هدر للوقت. وقد قررت عدم وضع نفسي في هذا

الموضع بهذه الطريقة مرة أخرى. وعندما هبطت بي الطائرة في ديار بكر انتابني الشعور أن السماء صافية مرة أخرى. إلا أنّني واصلت حماية أفكاري خلال الأربع والعشرين ساعة التالية تحسباً لأي طارئ. لحسن الحظ، كان رايش قد عاد إلى موقع الحفريات، ولهذا لم يكن هناك أي إغراء يدفعني إلى تحرير حذري. وما إن عاد من الموقع حتى قصصت عليه قصتي، وأخبرته أنّ نقل أدراج الملفات إلى المستودع ربما قلّل من اهتمام الطفيليات إلى درجة الصفر. إلا أنّه لم تكن لأي واحد منا النيَّة في السماح لنفسه الوثوق تمام الثقة.

بنتيجة هذه التجربة نشأت نظرية أخرى حول الطفيليات: فهي كما يتّضح لا تنشغل بمراقبة كل إنسان طيلة الوقت. في تلك الحالة، لماذا لا يتماثل بقية الناس للشفاء بسرعة، كما هي حالنا، طالما لا توجد أية طفيليات حولهم؟

أثار هذا التساؤل قلقنا في الساعات الأربع والعشرين التالية. وكان رايش هو من أجاب على هذا التساؤل. إذ تكلم مع زوجة إيفريت روبكه رئيس شركة اليورانيوم، وكان الأخير قد سافر تواً لقضاء أسبوعين في القمر للاستشفاء. واعترفت الزوجة أنّ أعصاب زوجها مرهقة تماماً. وعندما سألها رايش عن السبب خصوصاً أنّ أعمال الشركة على ما يرام أجابت قائلة:

— أوه. نعم. عندما يكون الإنسان مسؤولاً عن شركة ضخمة فإنّه يدخل في عادة القلق ولا يستطيع أن يوقف ذلك.

تلك هي القضية! العادة! لقد ظلّ علماء النفس يقولون على مدى سنوات إنّ الإنسان ليس سوى آلة. وشبّه اللورد لستر البشر بساعات الأجداد التي كانت تعمل بواسطة النابض. إنّ تجربة غيبوبة واحدة يمر بها الإنسان في طفولته من شأنها أن تجعله متفائلاً طوال طيلة حياته. إذ

ستدمر جراثيم المرض البدني الجسم خلال أسبوع. لكنّ العقل سيحتفظ بجراثيم المرض أو الخوف على مدى الحياة. لماذا؟ لأنّ العقل ميّال إلى الاسترخاء بقدر ما تريد قوى الحياة الاستمرار ويعمل ذلك وفق العادة ومن الصعب جداً كسر طوق هذه العادات، وبخاصة العادات السلبية.

بمعنى آخر، فإنّه سرعان ما يتكيف الإنسان بواسطة طفيليات العقل حتى يصبح أشبه بالساعة المعبأة ولا يعد بحاجة إلى الانتباه إلا مرة في العام أو ما يقرب من ذلك. إضافة إلى ذلك، اكتشف وايزمان أنّ البشر يقوم كل واحد منهم بتكييف الآخر، مما يجنب الطفيليات مشقة العمل. فنظرة الأبوين إلى الحياة تنتقل إلى أطفالهما. كما أنّ كاتباً متشائماً كئيباً واحداً له أسلوبه المميز، من شأنه أن يؤثر في جيل كامل من الكتّاب الذين سيؤثرون في كل شخص متعلم.

❖ ❖ ❖

كلما أوغلنا في معرفة الطفيليات كلما ازداد إدراكنا لمدى البساطة الهائلة للأمر برمّته، حيث بدا الحظ في معرفة سرّ هذه الطفيليات مستحيلاً. ولا بد أن ينقضي وقت طويل جداً قبل أن ندرك أنّ الحظ ليس سوى تسمية غامضة لا تبعث على الرضى شأنها في ذلك شأن معظم التسميات المجردة في لغتنا، أَنّ شيئاً مختلفاً تماماً كان يأخذ مجراه.

من الطبيعي أنّنا قضينا وقتاً طويلاً جداً نناقش فيه إمكانية البوح بسرّنا إلى شخص ثالث. إلاّ أنّ ذلك قد يؤدّي إلى مشكلة عويصة، فقد بدأنا بداية طيبة ومن شأن أي خطوة غير صحيحة أن تقضي على كل شيء. فأولاً وقبل كل شيء يتعيّن علينا أن نكون واثقين من أنّنا قد اخترنا من الأشخاص من له الاستعداد العقلي لسماع ما ينبغي لنا قوله. ولا تتعلق المشكلة في احتمال أن ينظر إلينا مثل هؤلاء الأشخاص باعتبارنا مجانين – إذ لم نعد نهتم كثيراً لهذا الأمر – بل في أن نكون

واثقين تمام الثقة أنّ حليفاً جرى اختياره بشيء من التقصير قد يذيع النبأ على الملأ كله.

قرأنا كثيراً في كتب الفلسفة وعلم النفس بغية التوصل إلى احتمال وجود عقول أخرى أخذت تواً تفكر في الاتجاه الصحيح. ووجدنا عدة عقول. إلا أنّنا كُنّا لا نزال حذرين. عثرت صدفة مع رايش على تقنية الظواهرية. ولأنّنا لسنا فيلسوفين، وليست لدينا أفكار مسبقة نريد التخلص منها، فإنّ بذور هوسرل لقيت أرضاً خصبة. وطالما كانت هذه معركة، فإنّه يتعيّن علينا البحث عن وسيلة ندرّب فيها الناس على هذا الانضباط العقلي. لم يكن كافياً الاعتماد على الذكاء الاعتيادي لهؤلاء الناس، بل ينبغي تعليمهم السبيل إلى حماية أنفسهم ضد طفيليات العقل بأسرع فترة زمنية ممكنة.

تتمثل الحقيقة كما يلي: إذ ما إن تصبح لديك القدرة على استخدام العقل استخداماً صحيحاً، حتى يصبح كل شيء سهلاً بعد ذلك. والقضية كلها تكمن في كسر إطار العادة التي اكتسبها البشر عَبْرَ ملايين السنين، وهي العادة المتمثلة في تركيز جلّ اهتمامهم على العالم الخارجي والتفكير في الخيال كونه نوعاً من الهروب، عِوَضَ إدراكهم أنّه ليس سوى رحلة قصيرة إلى مجاهل العقل الشاسعة. فالمرء بحاجة إلى أن يعتاد على التفكير في كيفية اشتغال العقل، ليس عقله وحسب، بل مشاعره وأحاسيسه أيضاً. وَوَجَدْتُ شخصياً أنّ أصعب الأمور في البداية تتمثّل في الإدراك أنّ المشاعر ما هي إلاّ شكل آخر من أشكال الأحاسيس، التي تميل إلى الاحتفاظ بها في جزء خاص مستقل. فأنا أنظر إلى شخص ما وعندئذٍ أراه... ذلك أمر موضوعي. وينظر طفل ما إليه ويقول: "أوه! يا له من رجل يثير الهلع". إنّ الطفل هنا يحسّ به وعندئذ نقول إنّ ذلك موضوعي. إنّنا لا نعي مدى غباء هذه التصنيفات ولا

مدى تشويهها لأفكارنا. بمعنى آخر، فإنّ إحساس الطفل هو شعور أيضاً. من ناحية أخرى، فإن رؤيتنا، هي نوع من الإحساس.

فَكِّرْ لبرهة من الزمن فيما سيحدث لو حاوَلْتَ أن تنظم عدسة الرؤية في المنظار. إنّك تقوم بتحريك العتلة الصغيرة ويصبح كل شيء أمامك غائماً. وفجأة فإنّ حركة صغيرة أخرى تجعل كل شيء واضحاً ومحدداً. والآن فَكِّرْ فيما سيحدث إذا قال لك أحد الأشخاص: "توفي الشخص الفلاني ليلة أمس". إنّ عقلك يكون عادة ممتلئاً بأمور كثيرة، بحيث لا تنتابك أية أحاسيس، أو أن أحاسيسك تكون مشوشة تماماً، وغير واضحة، كما هو الحال عندما تكون عدسة المنظار غير مركزة. وربما تمر أسابيع بعد ذلك ثم أثناء جلوسك هادئاً في غرفة مكتبك يذكّرك أحدهم بذلك الشخص الذي توفي، وفجأة ينتابك شعور حاد بالحزن لحظة من الزمان. لقد أصبحت المشاعر الآن تحت بؤرة التركيز. فهل هناك شيء آخر أكثر أهمية من هذا كله، لكي يقنعنا أنّ الأحاسيس والمشاعر ليست سوى شيئاً واحداً بالأساس؟

هذا شأن من شؤون التاريخ وليس فلسفة، لهذا لا أقترح الاسترسال في الظواهرية، إذ سبق أن ذكرت ذلك في كتبي الأخرى، وأفضّل إحالة القارئ إلى كتب اللورد لستر بوصفها مقدمة ممتازة عن الموضوع. إلاّ أنّ هذه الفلسفة ضرورية من أجل فهم تاريخ الحرب ضد طفيليات العقل. فكما أدركنا عند تفكيرنا بهذه القضية، فإنّ سلاح طفيليات العقل الأساس عبارة عن جهاز تشويش للعقل يشبه إلى حدٍّ ما جهاز التشويش في الرادار. إنّ عقل الإنسان الواعي يراقب الكون طيلة الوقت، وهو يشبه عالِمَ الفلك الذي يراقب السماوات بحثاً عن كواكب جديدة. واليوم يكتشف عالِمُ الفلك الكوكب الجديد، من خلال المقارنة بين صور النجم القديمة والصور الجديدة، فإذا تحرك نجم من النجوم

عندئذٍ لا يكون نجماً بل كوكباً. وهكذا نجد عقولنا ومشاعرنا مشغولة دوماً بعملية مراقبة الكون بحثاً عن المعاني. ويتكشّف المعنى عندما نقارن بين نوعين من التجارب وندرك فجأة ما يتعلق بهما، مثال على ذلك تجربة الطفل الأولى مع النار إذ قد تَوَلَّدَ لديه الانطباع أنّ النار ممتعة تماماً: دافئة وبراقة ومثيرة. وإذا حاول بعد ذلك أن يضع إصبعه في النار، فإنّه يتعلم شيئاً جديداً عنها وهي أنّها تحرق. إلا أنّه لا يقرر بالرغم من ذلك أن النار كلها غير ممتعة، إلا إذا كان رعديداً وعصابياً على نحو غريب، فهو يضم التجربتين الواحدة للأخرى مثل خريطتين لنجم واحد، ثم يسجل أنّ صفة النار الأولى لا بد أن تكون منفصلة عن الصفات الأخرى. وتدعى هذه العملية عملية التعلّم.

لنفرض الآن أنّ طفيليات العقل تشوش عمداً المشاعر عندما نحاول مقارنتها بهاتين التجربتين. ويبدو الأمر وكأنّنا نقوم باستبدال نظارات عالِم الفلك بعدسات مصنوعة من زجاج آخر. فهو يدقق ملياً في خريطتيه إلا أنّه لا يستطيع أن يميز بينهما كثيراً. نحن لا نتعلم بوضوح من التجربة حال حدوثها. وإذا كُنّا ضُعفاء أو عصابيين، فإنّنا نتعلم عندئذٍ الأمر المغلوط، وهو أنّ النار على سبيل المثال رديئة لأنّها تُحرق.

❖ ❖ ❖

أعتذر للقراء غير المطلعين على الفلسفة عن هذه الإيضاحات التي أرى أنّها ضرورية جداً. لقد تمثل هدف الطفيليات في منع الجنس البشري من الوصول إلى أقصى درجات القوة وقد فعلت ذلك بطريقة تشويش العواطف وتشويش أحاسيسنا بحيث إنّنا فشلنا في التعلم منها وسرنا بدلاً من ذلك في طريق من الضباب العقلي. لقد أصبحت الآن التأملات التاريخية التي كتبها وايزمان محاولة لدراسة تاريخ القرنين الماضيين بغية اكتشاف الكيفية التي شنّت بها الطفيليات هجماتها على الجنس البشري.

وكـان هـذا مـن أول الأمـور الـتي أدركهـا وايـزمان. فقـد كـان الـشعراء الرومانسيون منذ بداية القرن التاسع عشر أمثال ووردزورث وبايرن وشلي وغوتيه، مختلفين تمام الاختلاف عن شعراء القرن السابق لهم شأن درايدن وبوب وغيرهما. لقد كانت عقولهم أشبه بمنظار هائل يتمتع بطاقة حادة جداً في تركيز وجود البشر. فعندما ألقى ووردزورث نظرة على نهر التايمز وهو يقف على جسر وستمنستر في الصباح الباكر، تفجر عقله فجأة وكأنّه محرك قام بتكديس تجارب عظيمة كثيرة الواحدة تِلْوَ الأخرى. وفي لحظة من الزمن رأى الحياة الإنسانية من أعلى كما يراها نسر، بدلاً من أن ينظر إليها نظرة اعتيادية، فكلّما نظر الإنسان إلى الحياة على أنّها صورة – سواء أكان شاعراً أم عالماً أم رجل دولة – كانت النتيجة شعور عظيم بالشجاعة ونظرة إلى ماهية الحياة ومعنى الارتقاء البشري. عند هذه النقطة من التاريخ، وتماماً كما هو الحال عندما قام العقل البشري بقفزته الارتقائية الهائلة إلى الأمام – حيث الارتقاء يتقدم دوماً في قفزات وكأنّه إلكترون يقفز من مدار إلى آخر – فإنّ طفيليات العقل تضرب بقوة، وحَمَلَتُها ماكرون وبعيدو النظر ما أتاح لها الاستمرار في استغلال العقول الرئيسة على كوكبنا. وقد أبعد تولستوي هذه الحقيقة في الحرب والسلم عندما أعلن أنّ الأفراد يلعبون دوراً ضئيلاً في التاريخ وأنّهم كانوا يسيرون سيراً آلياً. فجميع أبطال الحرب النابوليونية كانوا يتحركون بآلية إذ كانوا مجرد رقع شطرنج في أيدي طفيليات العقل. وقد لقي العلماء التشجيع ليصبحوا ماديين وعقائديين. وكان ذلك عبر منحهم شعوراً عميقاً بالافتقار إلى الأمان الذي جعلهم يتشبثون بقوة بفكرة العلم باعتباره معرفة موضوعية خالصة، تماماً كما حاولت طفيليات العقل تحويل أنظار وايزمان نحو المشاكل الرياضية والشطرنج. وقد جرى التحكم في الفنانين والكتّاب تحكماً ماكراً. ولعل

طفيليات العقل نظرت بوجل إلى العمالقة من أمثال بتهوفن وغوتيه وشلي وأدركت أنّ حفنة من هؤلاء الرجال من شأنها أن تضع الإنسان على عتبة جديدة من مراحل الارتقاء. لهذا أصيب شومان وهولدرلن بالجنون، بينما أدمن هوفمان تناول الشراب. أما كولرج ودي كونسي فقد أدمنا تعاطي المخدرات. لقد كان تدمير العباقرة تدميراً شاملاً وكأنّهم ذباب. ولهذا فليس هناك ما يدعو إلى العجب من شعور الفنانين الكبار في القرن التاسع عشر أنّ العالم كان يقف ضدهم. كما ليس هناك ما يدعو إلى العجب أنّ محاولة نيتشه الشجاعة في دقّ طبول التفاؤل عالجتها ضربة من الجنون. ولن أتطرق إلى هذا الموضوع بالتفصيل الآن، إذ إنّ مؤلفات اللورد لستر حوله تُعَدُّ وثيقة مفصلة.

أما الآن فكما ذكرت آنفاً فنحن في اللحظة التي ندرك فيها وجود طفيليات العقل، نكون قد هربنا من فخها المنصوب بإحكام وهو فخ تاريخي في الواقع. فالتاريخ نفسه كان سلاحها الرئيس. لقد أوقفت الطفيليات التاريخ خلال قرنين من الزمن حيث أصبح التاريخ البشري رمزاً لضعف الجنس البشري ولامبالاة الطبيعة ويأس الإنسان في مواجهة الضرورة. إنّنا في اللحظة التي عرفنا فيها أنّ التاريخ قد توقف، بات التاريخ غير قادرٍ على احتوائنا. لقد عدنا بأفكارنا إلى موزارت وبتهوفن وغوتيه وشلي وأيقنّا صحة المقولة بأنّ العظام يمكن أن يكونوا طعماً جيداً للطفيليات، ووجدنا من غير المجدي التحدث عن الضعف البشري كون الجنس البشري يملك قوة هائلة ما لم يستنزفها مصاصو دماء الروح أولئك كل ليلة.

إنّ هذه المعرفة ذاتها كانت تكفي بطبيعتها لشحننا بالتفاؤل العظيم. وفي المرحلة المبكرة، ازداد هذا التفاؤل بتجاهلنا لهذه الطفيليات. وبما أنّنا كُنّا نعرف أنّها تحرص كل هذا الحرص على السرية، وعلى أن يبقى

الجنس البشري جاهلاً أمر وجودها، فإنّنا قفزنا إلى الاستنتاج – الذي من شأننا أن ندفع ثمنه غالياً – ومفاده أنّها لا تملك قوة حقيقية لإلحاق الأذى بنا. لقد أثارت مشكلة انتحار كارل قلقنا غير أنّ زوجته زوّدتني بنظرية مثيرة للاهتمام. فقد تناول كارل السكرين في شايه. وكانت زجاجة أقراص السانيد تشبه زجاجة السكرين. فماذا لو أنّه بفعل إجهاده في العمل وشرود ذهنه وضع السانيد في شايه بدلاً من السكرين؟ إنّ من شأن الرائحة أن تكشف الأمر طبيعياً. ولنفرض أنّ الطفيليات قامت بطريقة ما بحجب حاسة الشم وتشويشها مثلاً؟ لعل كارل كان جالساً إلى مكتبه دون أن يرتاب في شيء وأنّه كان يركز على عمله بشكل جعله مرهقاً جداً. وحين يمد يده آلياً لتناول السكرين تقوم إحدى الطفيليات بقيادة يده بضع بوصات نحو اليسار.

كنت ورايش ميالَيْنِ إلى قبول هذه النظرية التي كانت تتلاءم ووجود السانيد في الشاي. كما أنّها كانت تتفق ورأينا المتمثل في أنّ الطفيليات ليست في الأساس أشد خطورة من أية طفيليات أخرى، شرط أن تعرف بأمرها وتتخذ الإجراءات الخاصة ضدها، وعندها يكون كل شيء على ما يرام. وقلنا لأنفسنا إنّنا لن نكون فريسة سهلة مثل كارل. إذ إنّ هناك عدداً محدوداً من الوسائل التي في وسع الطفيليات أن تحاول إيقاعنا بواسطتها في الفخ كما حاولت مع كارل. فالقيادة مسألة غريزية إلى حدٍّ بعيد، ومن السهولة جداً إخضاع هذه الغريزة عندما تقوم بقيادة السيارة بسرعة تسعين ميلاً في الساعة وأنت تركز على الطريق. لهذا فإنّنا اتفقنا على عدم قيادة السيارة البتة أيّاً كانت الظروف، وعدم السماح لأنفسنا بأن نستقل سيارة يقودها غيرنا، إذ من شأن سائق السيارة أن يكون فريسة أسهل منا. أما السفر بواسطة الطائرة العمودية فتلك قضية أخرى، إذ كانت مفاتيح الرادار الأوتوماتيكية

تعني أنّ حادثة تحطم الطائرة أمراً مستحيلاً تقريباً. وفي أحد الأيام، عندما سمعنا أنّ جندياً قتله أحد سكان المدينة أدركنا أنّ هذا احتمال آخر علينا أن نأخذه في الاعتبار، ولهذا السبب، تسلحنا بالمسدسات وقررنا تجنب الدخول إلى الأماكن المزدحمة.

بالرغم من هذا، وخلال الأشهر الأولى، سار كل شيء على ما يرام بحيث كان من الصعب عدم الإحساس بالتفاؤل الزائد. عندما كنت في بداية العشرينيات أثناء دراستي علم الآثار على يديّ سير جارلز مايرز انتابني شعور بالمتعة والتعمق جعلني أتصور أنّ حياتي بدأت تواً، غير أنّ ذلك الشعور لا يوازي الشعور الذي أحس به الآن وعلى نحو مستمر. إذ أصبح واضحاً أنّ هناك غلطة أساسية ذات علاقة وثيقة بالوجود البشري الاعتيادي، وهي غلطة سخيفة تشبه محاولة ملء حوض سباحة دون إحكام إغلاق فتحة مجراه أو قيادة سيارة مع الاحتفاظ بالكابح اليدوي مرفوعاً. أمرٌ ما يتعيّن بناؤه ليصبح عظيماً يتمّ فقدانه دقيقة فدقيقة. وما أن يتم إدراك هذا الأمر حتى تأخذ المشكلة بالاختفاء، إذ يطفح العقل بشعور فياض من الحيوية والإحكام. وبدلاً من أن تكون الحالات والمشاعر تحت رحمته نسيطر نحن عليها بالسهولة ذاتها التي تسيطر فيها على حركات أيدينا. ويكاد يستحيل وصف هذه النتيجة لشخص لم يسبق له خوض غمار هذه التجربة. إنّ الجنس البشري أصبح معتاداً على الأشياء التي تحدث له فالبشر يصابون بالبرد ويشعرون بالقنوط ويلتقطون شيئاً ثم يرمون به جانباً. كما ينتابهم الإحساس بالسأم... ولكن ما إن أركّز اهتمامي في عقلي حتى تتوقف هذه الأشياء عن الحدوث، لأنّني الآن أسيطر عليها.

ما زلت قادراً على تذكر أعظم تجربة مررت بها خلال الأيام الأولى. لقد كنت جالساً في المكتبة في شركة اليورانيوم في الساعة الثالثة

من بعد ظهر أحد الأيام وكنت أقرأ بحثاً جديداً في علم اللغة النفساني، وأخذت أتساءل فيما إذا كُنّا نستطيع أن نبوح بسرّنا إلى مؤلفه. وقد أثارتني بعض الإشارات إلى هيدجر وهو مؤسس هذه المدرسة، إذ إنّني فجأة، رأيت بوضوح الخطأ الذي زحف نحو أساس فلسفته وكيف أنّ من شأن تصحيح هذا الخطأ أن يفتح آفاقاً جديدة. وبدأت بكتابة ملاحظات مختصرة. في هذه اللحظة بالذات أخذت بعوضة تطنّ قرب أذني، وبعد دقيقة واحدة عادت مرة ثانية. كان عقلي منشغلاً تماماً بهيدجر عندما رفعت رأسي ونظرت إليها والأمل يراودني في أن تستطيع أن تجد طريقها إلى الخارج عن طريق النافذة. عندما فعلت ذلك كان لديّ إحساس واضح بمواجهة البعوضة، إلا أنّها انحرفت جانباً واتجهت نحو نافذة مغلقة. بيد أنّ عقلي كان منصباً تماماً عليها إذ قمت بتوجيهها نحو مروحة التهوئة في النافذة المفتوحة حتى خرجت.

اعترتني الدهشة! وجلست أفكّر فيما حصل. وكانت دهشتي تفوق فكرة امتلاكي جناحين للطيران. هل خدعت نفسي عندما افترضت أنّ عقلي هو الذي قاد البعوضة إلى الخارج؟ وتذكرت أنّ غرفة الغسيل موبوءة بالنحل والدبابير إذ كان ثمة قطعة أرض مزروعة أزهاراً تحت شبّاكها. وذَهَبَتْ إلى هناك إلا أنّها كانت خالية. ولم يكن هناك سوى دبّور واحد يطنّ قرب زجاج النافذة المتجلد. انحنيْتُ نحو الباب وركزتُ أنظاري عليه إلا أنّ شيئاً لم يحدث، مما بعث في نفسي الشعور بالإحباط. إذ كان الأمر يشبه القيام بارتكاب مخالفة مثل محاولة فتح باب موصد بالقفل. عدت بأفكاري إلى هيدجر، وشعرت بإحساس الرؤية ينتابني ووجدت عقلي يعود إلى عمله. كان الآن قد أصبح على صلة مع الدبّور وكأنّه قد أصبح في يدي تماماً. وتمنيت لو أنّه يطير عبر الغرفة. إلاّ أنّ التمني كلمة غير مناسبة. إذ لا يتمنى المرء أن يفتح يداً ويغلقها بل

عليه أن يقوم بذلك. وبالطريقة ذاتها قمت بإرشاد الدبور في غرفة الغسيل باتجاهي. وبعد ذلك، وما إن اقترب مني حتى انحرف واتجه نحو النافذة وخرج. حدث ذلك على نحو لا يصدقه العقل حتى أنّني كدت أنفجر باكياً أو ضاحكاً. والأمر الذي جعل ذلك كله يبدو مضحكاً هو أنّني كنت أستطيع أن أشعر بدهشة الدبور الغاضبة لأنّه فعل شيئاً رغم إرادته.

ثم أخذ دبّور آخر بالطنين – وربما كان الدبّور الأول نفسه – قبضت عليه ثانية. هذه المرة، كنت أدرك تمام الإدراك مبلغ الإيحاء الذي حلَّ بي. إنّ عقلي لم يعتد مثل هذه الأشياء. لذلك اتجهت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج. كانت هناك نحلة كبيرة الحجم فوق إحدى الأزهار. وسمحت لعقلي أن يستوعب ذلك، وتمنيت لو خرجَتْ من مكانها إلا أنّها قاومَتْ ذلك وشعرْتُ بمقاومتها على نحو مباشر تماماً كما يشعر المرء أنّ الكلب أخذ يسحب نفسه إذا ما أراد صاحبه الخروج به في نزهة. استجمَعْتُ قوتي كلها لتطير بعيداً عن الزهرة. وشعَرْتُ فجأة أنّني منهك عقلياً فسمحْتُ لها بالذهاب. وعلى أي حال، لم أفعل ما فعلت – بالطريقة الغبية التي كنت أقوم بها في السابق – أي السماح للإعياء الذي حلّ بي أن يحيلني إلى إنسان محبط. كل ما فعلته هو السماح لعقلي بالاسترخاء وبعد ذلك أخذت أفكّر بأمور أخرى، وبعد عشر دقائق من وجودي في المكتبة اختفى ذلك الشعور بالإعياء.

تساءلت الآن عمّا إذا كان باستطاعتي أن أمارس القوة العقلية ذاتها على الأجسام الميتة. حوّلت اهتمامي نحو عقب لفافة تبغ ملطخ بأحمر الشفاه لا بد أنّ سيدة تركته في المنفضة الموجودة فوق المنضدة المجاورة. وحاولت أن أحرّكه. فانتقل عبر المنفضة ولكنه كلّفني من الجهد أكثر مما كلّفني لدى محاولتي إبعاد النحلة. وفي الوقت ذاته اعترتني

الدهشة إذ انتابتني رغبة جنسية في أعماقي عندما توجه عقلي نحو السيجارة. انسحبت من عقلي ولمست عقب السيجارة ثانية ومرة أخرى أحسست بالصدمة. اكتشفت فيما بعد أن عقب السيجارة هذا يعود لسكرتيرة أحد المديرين، وهي امرأة مكتنزة الشفتين ذات شعر أسود وتضع النظارة. كانت في الخامسة والثلاثين، عزباء وعصابية نوعاً ما. كما أنّها كانت متوسطة الجاذبية. في البداية، اعتقدت أنّ صدمة الرغبة قد صدرت عني، وهي استجابة الذكر الطبيعية للدافع الجنسي الذي ولّدته اللفافة الملطخة بأحمر الشفاه. ولكن عندما جاءت المرأة وجلست بجانبي في المكتبة سمحت لعقلي بالتفكير فيها وسرعان ما اعترتني صدمة حيوانية بالدافع الجنسي الصادر عنها. لم يكن سبب ذلك أنّها كانت تفكر في الجنس في الواقع، بل إنّها كانت غارقة في مجلد الإحصائيات. ويبدو أنّها كانت تعيش مع هذا التيار الجنسي العالي التوتر وأنّها تعتبره أمراً طبيعياً تماماً.

تعلمت شيئاً آخر منها، إذ ما إن انسحب عقلي منها حتى وجدتها ترفع نظرها وتتأملني. بيد أنّني استغرقت في القراءة وتظاهرت بعدم ملاحظتها. وبعد برهة فقدَتْ اهتمامها وعادت إلى الإحصائيات. إلا أنّ ذلك أثبت أنّها كانت قد أدركت مسباري العقلي. إنّ الرجال الذين حاولت معهم تجربة هذه الطريقة لم ينتبهوا لذلك، وذلك يثبت بأنّ المرأة لا سيما المحبطة جنسياً تتمتع بإحساس غريب إزاء مثل هذه الأمور.

وعلى أي حال، فقد حصل بعد ذلك ما يلي: ففي تلك اللحظة حاولت أن أحرّك عقب لفافة التبغ ووجدت صعوبة في ذلك بالرغم من إمكانية القيام بهذا الأمر. والسبب يعود إلى أنّه ميت. إذ من الأسهل جعل الكائن الحي يقوم بما تريده منه ذلك أنّه بالإمكان استخدام حيويته بواسطة الفرد.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم مزّقت بعض ورق اللفائف إلى قطع صغيرة جداً وأنا لا أزال غارقاً باكتشافي الجديد، وأخذت أسلّي نفسي بأن جعلت كل هذه الأجزاء تندفع حول المنضدة وكأنّها عاصفة ثلجية. وكان أمراً مرهقاً أيضاً مما اضطرني إلى التخلي عنه بعد خمس عشرة ثانية.

في ذلك المساء عاد رايش من قرة تبه وأخبرته باكتشافي، وبدا مندهشاً أكثر مني. ومما يدعو إلى الغرابة أنّه لم يحاول القيام بالتجربة بنفسه، بل قام بتحليلها وبحث في إمكانية حدوثها. إنّ الجنس البشري قد عرف بأمر إمكانية تحريك الأجسام بتأثير العقل منذ أكثر من نصف قرن. وقام رايش بالبحث في هذا الفرع من علم النفس الحركي في جامعة ديوك. وعرّف ذلك على أنّه ظاهرة يقوم بها الفرد بإحداث تأثير ما على مادة موجودة في بيئته دون أن يستخدم جهازه الحركي، ولهذا فقد قال مضيفاً إنّ هذا الضرب من الممارسة النفسية يمثّل الفاعلية المباشرة للعقل على المادة. ولقد لفتت انتباه رايش إلى المشكلة يد مقامر، إذ لاحظ أنّ عدداً كبيراً من المقامرين يؤمن أنّ في ميسوره التحكم في سقوط الزهر. وقد أجرى آلاف التجارب بهذا الشأن وكشفت النتائج عما حدث لي تماماً في تجربتي، أنّ العقل وبعد فترة من الزمن يصيبه الإعياء جراء التمرين على تحريك الأجسام بتأثير العقل. وكانت هناك ضربات في بداية التجربة أكثر من نهايتها. حيث كان العدد يتضاءل تدريجياً مع استمرار التجربة. ولهذا فإنّ البشر كانوا دائماً يملكون طاقة تحريك الأجسام بفعل العقل بدرجة ثانوية. والزيادة في قوة عقلي منذ أن بدأتُ ممارسة هذه القواعد الظواهرية يعني أنّني كنت قادراً على توجيه تيار من الطاقة العقلية أشد قوة في تحريك الأجسام.

وحلق عقل رايش وكأنّه صقر أفلت من عقاله وتنبأ باليوم الذي من شأننا أن نستطيع فيه إخراج آثار قادش إلى السطح دون استخدام أي آلة على الإطلاق، كما تنبأ باليوم الذي يستطيع فيه الإنسان أن يقوم برحلة إلى المريخ مستخدماً في ذلك إرادته الصرف، دون استخدام السفن الفضائية. وأصابتني دهشته بالعدوى إذ وجدت أنّه على حق في قوله إنّ ما توصلنا إليه يعدّ أعظم إنجاز نحققه حتى الآن من الناحيتين الفلسفية والعملية. بمعنى آخر، نجد أنّ تقدُّم الإنسان العلمي كان تقدّماً في الاتجاه الخاطئ. فمثالاً على ذلك أعمال الحفريات في قره تبه التي كُنّا نعالجها باعتبارها مشكلة آلية تتلخص في كيفية الكشف عن مدينة تقع تحت بليون طن من الرمال. وكان هذا الاعتماد على الآلات يعني أنّنا لم نعد نعامل العقل البشري على أنّه عنصر أساس في العملية. إذ كلما زاد العقل البشري في إنتاج وسائل توفير الجهد كلما تضاءلت إمكانياته وأصبح ميالاً إلى النظر إلى كينونته باعتبارها آلة تفكير سلبية. إنّ الإنجازات العلمية للإنسان خلال القرون الماضية لم تدفع الإنسان إلا لمزيد من التفكير في نفسه كونه مخلوقاً سلبياً.

حذّرتُ رايش من أنّ القلق في الإثارة العقابة قد يجذب انتباه الطفيليات. وهنا اضطر إلى الاحتفاظ بهدوئه. مزّقت ورق اللفائف وحركتها عبر منضدة الكتب باتجاهه مشيراً وأنا أقوم بذلك إلى أنّ ذلك هو كل ما أستطيع أن أفعله لتحريك هذين الغرامين من الورق، بحيث يغدو من الأفضل لي في الواقع، أن أكون مجهزاً بمعول بدلاً من عقلي عند حفر آثار قادش! حاول رايش الآن أن يحرك الورق إلا أنّه فشل. وحاولت أن أشرح له الحيلة الكامنة في جعل العقل يقوم بعمله، غير أنّه فشل بعد محاولات دامت نصف ساعة دون أن يستطع تحريك أصغر قطعة من الورق. ومضى المساء وهو في حالة من القنوط أشد من أي

وقت سبق أن رأيته فيه. حاولت أن أُدْخِلَ السرور إلى نفسه عبر الإيضاح أنّ المسألة تحتاج إلى مجرد وقت. ففي الوقت الذي استطاع فيه أخي تعلم السباحة وهو في الثالثة من العمر، فإنّ الأمر تطلب بلوغي الحادية عشرة كي أتعلمها.

وقد تعلم رايش في الحقيقة بعد أسبوع واحد. إذ اتصل بي هاتفياً في منتصف الليل ليخبرني بالنبأ. وكان يجلس في فراشه وهو يقرأ في كتاب عن علم نفس الأطفال عندما حدث له الأمر. إذ بينما كان يفكر في الطريقة التي يكون فيها بعض الأطفال عرضة للحوادث أكثر من غيرهم، أدرك كيف أنّ الأمر يرتبط ارتباطاً شديداً بعقلية الطفل نفسه. وبينما هو يفكر في هذه القوى العقلية الخفية التي عرفنا كيف نسيطر عليها من خلال بذل مجهود كبير، أدرك فجأة شأنه شأن الطفل الذي يقع فريسة سهلة للحوادث، أنّه كان يعمل على إعاقة قواه في تحريك الأجسام بتأثير العقل. فقد ركّز ذهنه على صفحة كتابه – وكان مصنوعاً من ورق هندي – وجعلها تنقلب من تلقاء نفسها.

في اليوم التالي استنتجت منه أنّه لم يهتم كثيراً بمسألة النوم. إذ أمضى ليلته يتمرّن على استخدام قواه المذكورة. واكتشف أنّ المادة التالية لهذه التمارين تمثلت في رماد أوراق اللفائف المشتعلة. فهي من الخفة بحيث تتحرك لأقل جهد يبذله العقل. إضافة إلى ذلك، فإنّ أقل نغمة تجعلها تدور، عندئذ يصبح بإمكان العقل التقاطها واستخدام طاقتها.

بعد ذلك طوّر رايش قواه الخاصة بتحريك الأجسام على نحو أسرع مني بكثير. ففي غضون أسبوع واحد، رأيته يقوم بعمل لا يصدّق إذ جعل طيراً ينحرف في طيرانه ويدور فوق رأسه مرتين. وأحدث ذلك الأمر نتائج مثيرة إذ رأته بعض السكرتيرات من خلال النافذة وقامت إحداهن بإخبار الصحافة بما حدث. وعندما سأل صحفي رايش عن

نذير النسر الأسود الذي كان يحلّق فوق رأسه – وقد تشعبت القصة كثيراً من خلال تداولها – أجاب أنّ أسرته كانت دوماً تحب الطير وأنّه استخدم صفيراً خاصاً لجذبها. في الشهر التالي، أصبح لسكرتيرته وظيفة تفرغت لها وهي الإجابة عن الرسائل الموجهة من جمعيات مراقبي الطيور، الذين وجهوا له دعوات لزيارتهم وإلقاء المحاضرات عليهم. وبعد هذا الحادث أخذ رايش يمارس تمارينه في غرفته.

والحقيقة أنّني لم أكن مهتماً جداً بموضوع قواي الخاصة بتحريك الأجسام بتأثير العقل في هذه المرحلة لأنّني فشلت في فهم مضامينها. وقد تطلّب الأمر مني مجهوداً كبيراً لأنقل صحيفة من الورق عبر الغرفة بهذه الطريقة، بحيث تبيّن أنّه من الأسهل عليَّ النهوض لجلبها. لهذا فإنّني عندما قرأت الفصل الأخير من كتاب شو **العودة إلى ميتوشالح**، الذي يشير فيه إلى أنّه كان في ميسور أجداده إضافة أذرع وسيقان لهم بمجرد الإرادة، شعرت أنّ شو تجاوز حدود الإمكان.

لقد كانت عملية مسح هذه العوالم العقلية مثيرة وذات مردود جيد إلى أبعد الحدود، لأنّه أحدث تحكماً من نوع مثير جداً. إنّ اعتياد الجنس البشري على حدوده العقلية أصبح أمراً مفروغاً منه، كالمريض الذي نسي معنى الصحة. فقد بات في قدرة عقلي أن يحقّق آمالاً تفوق ما كنت أحلم به في السابق تماماً. فعلى سبيل المثال، كنت دوماً ضعيفاً في الرياضيات. أما الآن، ودون بذل أي مجهود، فهمت نظرية الدالة والهندسة ذات الأبعاد المختلفة، وميكانيكية الكم ونظرية اللعب والجماعة.

ووجدْتُ أنّ الدراسات الرياضية ذات فائدة من عدة نواحي. فإذا وجّهْتُ عقلي نحو حبي القديم للتاريخ، فإنه من السهل إدراك فترة من الفترات وفهم تفاصيلها كافة بعمق تام بحيث تبدو وكأنّها حقيقة واقعة.

وكـان مـن شـأن عقلـي أن يحلّـق نحـو نقطـة مـن الـتأمل القـوي بحيـث بـدا محتملاً أن يجذب اهتمام الطفيليات. ولهذا تشبَّثْتُ بالرياضيات لأنّـها أكثر أمناً.

كـان رايـش مهـتماً بتجـربتي مـع الـسكرتيرة الجالـسة إلى المنـضدة المجـاورة وذلـك مـن أجل القيام ببعض التجارب في هذا الاتجاه. واكتشف أنّ حـوالى خمـسين بالمئة مـن النساء وخمسٍ وثلاثين بالمئة من الرجال في شـركة اليورانـيوم كانوا شهوانيين. ويعود السبب بلا شك إلى حرارة الجو والتسهيلات المنزلية شبه المعدومة. لهـذا ففـي وسع أي فرد أن يتوقع أنّ عمـق المشاعر الجنسية هذه من شأنها أن تعني أنّ نسبة الانتحار الصناعي في شـركة اليورانـيوم ضـئيلة. لكنّ الأمر في الواقع كان عكس ذلك تماماً، إذ كانـت النـسبة عالـية جـداً، وعـندما ناقشْتُ مـع رايـش المشكلة أدركنا السبب. إنّ عمق المشاعر الجنسية ومعدل الانتحار العالي يرتبطان ارتباطاً مباشـراً بنـشاط الطفيلـيات. كمـا أنّ الدافـع الجنـسي والدافـع للارتقـاء مـرتبطان ارتـباطاً وثـيقاً. وإذا قـام المـرء بإحـباط هـذا الدافـع العميق، فإنّه يـتدفق تـدفقاً هـائلاً، بـل إنّـه يحـاول إيجـاد الإشباع في كـل أنـواع الطـرق الأخـرى الـتي لا تـولّد الإشـباع، ومـنها تعـدد الـزوجات. ولـهـذا، فـإنّ القـضية تـتعلق بتركيـز العاطفـة. فالـرجل يعـتقد أنّ امـرأةً مـا سـتوفر لـه الإشـباع الجنـسي فيقـنعها أن تـصبح خليلـته. إلا أنّ الطفيلـيات تـتدخل وتجعلـه غـير قـادر علـى تركيـز قـواه في العملـية الجنـسية. ولـهـذا يـصاب بالذهـول. فالمـرأة منحـته نفـسها بالمعنـى الـشائع للكلمة ولكنه بالرغم من ذلـك يظـل يفتقـر إلى الإشباع. ويثير هذا الأمر الحيرة تماماً مثل تناول المرء وجبة طعـام هائلـة ولكـنه يظل رغم ذلك يشعر أنّ رغبته لم تشبع. هناك نتيجتان محتملتان. فالرجل يقرر بهذا الصدد أنّ المشكلة تكمن في اختياره المرأة ولـهـذا، فإنّـه سـرعان ما يبدأ البحث عن امرأة أخرى، أو أنّـه يقرر

أنّ العملية الجنسية لا تشبعه، ولهذا يلجأ إلى ابتكار وسائل لجعلها مثيرة المتعة. أي أنّه يبدأ بالبحث عن الانحرافات الجنسية. وقد اكتشف رايش من خلال بعض الأسئلة المتحفظة أنّ عدداً كبيراً من الموظفين العازبين في شركة اليورانيوم معروفون بغرابة أطوارهم الجنسية.

❖ ❖ ❖

بعد أسبوع واحد من مناقشتنا الأمور المتعلقة بالجنس، دخل رايش إلى غرفتي وهو يحمل كتاباً ورمى به فوق منضدتي قائلاً:

– لقد عثرت على رجل نستطيع أن نوليه ثقتنا.

– من هو؟

ثم خطفْتُ الكتاب وألقيت نظرة على عنوانه **نظريات الدافع الجنسي** لمؤلفه سيغموند فليشمان الأستاذ في جامعة برلين. وأخذ رايش يقرأ بصوت عالٍ أمامي بعض فقراته وفهمت قصده. إذ لا يوجد أدنى شك في أنّ فليشمان الرجل الذي كان يتمتع بذكاء خارق قد أثارت مسألة شذوذ الدافع الجنسي حيرته. إلا أنّه لجأ إلى استخدام عبارات أظهرت شكّه في وجود طفيليات العقل. فقد أدرك أنّ الانحراف الجنسي ما هو إلا نتيجة لنوعٍ من تلوث المنابع الجنسية للإنسان وأنّ هناك عنصراً عبثياً فيه يشبه تناول الشراب الاسكتلندي لإطفاء العطش! وقد تساءل فليشمان عن السبب الذي يجعل الإنسان في العالم الحديث يجد الإشباع الجنسي أمراً مضللاً؟ صحيح أنّه يميل إلى تحقيق أعلى درجات الاستثارة من خلال الكتب والمجلات والأفلام بيد أنّ الدافع لتوليد الذرية من القوة بحيث لا يتعين أن يُحْدِثَ ذلك فارقاً كبيراً. وحتى النساء اللاتي تتمثل غريزتهن الأساسية في الزواج وإنجاب الأطفال، غَدَوْنَ كأنّهن فريسة لهذا المد المتعاظم من الشذوذ الجنسي، بحيث أخذ عدد حالات

الطلاق التي يتّهم فيها الزوج زوجته بالخيانة الزوجية يرتفع ارتفاعاً شديداً. كيف لنا أن نفسر هذا الضعف في دافع الارتقاء لدى كلا الجنسين؟ هل هناك عامل مجهول، جسدي أو نفساني، فشلنا في أخذه في الاعتبار؟

لقد تبيّن بوضوح أنّ فليشمان هو رجلنا المنشود وأنّنا في هذا الميدان ذاته نستطيع أن نعثر على آخرين أثار شذوذ الدافع الجنسي اهتمامهم. ومن الطبيعي أنّ إحدى مشاكلنا تتمثل في كيفية الاتصال بمختلف الحلفاء — إذ ليس لدى أي منا الوقت ليجوب حول العالم بحثاً عن مثل هؤلاء الأشخاص — ولكن في مثل هذه الحالة، أصبح الأمر سهلاً على نحو على غير متوقع. فقد كتبْتُ رسالة إلى فليشمان وناقشت بعض النقاط الواردة في كتابه وأبديت اهتمامي الكبير بالموضوع برمته. وأشرت على نحو غامض إلى احتمال قيامي فوراً برحلة إلى برلين وأنّني أتمنى زيارته. وفي خلال أسبوع واحد تلقيت منه ردّاً مطوّلاً جاء فيه:

"إنّني أتابع أسوة بكل فرد في العالم التنقيبات التي تقوم بها، ولا أدري إن كان تطفلاً مني أن أقترح القيام بزيارتك".

فكتبْتُ إليه قائلاً إنّني أرحب بزيارته في أي وقت واقترحت أن يكون ذلك في عطلة نهاية ذلك الأسبوع. وعندئذٍ أبرق إليَّ مبدياً موافقته. وبعد ثلاثة أيام، خرجت مع رايش لاستقباله عند سلّم الطائرة في أنقرة وعدنا معاً إلى ديار بكر. وارتحنا له فقد كان شخصاً حيوياً وذكياً في أواسط الخمسينيات، يتمتع بروح النكتة وله اهتمامات ثقافية واسعة، إذ كان في ميسوره التحدث بصورة ممتازة عن الموسيقى والفنون البدائية والفلسفة والآثار. وقد أثارني باعتباره واحداً من الرجال القلائل الذين يمتلكون قدرة طبيعية على مقاومة طفيليات العقل.

قدّمنا له غداءً جيداً في ديار بكر وتحدثنا خلال ذلك عن الحفريات والمشكلة التي تولّدها الآثار. عند العصر، توجهنا عائدين إلى قره تبه. وقد رأت شركة اليورانيوم في وجودنا هناك، مناسبة جيدة لتسمح لنا بالتمتع بالامتيازات التي ما كان لنا أن نحظى بها حتى عندما كان رايش مستشارهم الوحيد في علم طبقات الأرض. كان النفق الأول قد أوشك على الانتهاء. فأطلعنا فليشمان عليه. كما شاهد بقية المعروضات كالزاوية المكسورة من حجر آبوذ والصور الإلكترونية للكتابة المحفورة على الصخور وما شابه. وقد أثارت المشكلة كلها اهتمامه وبخاصة وجود حضارة أقدم بكثير من بقايا إنسان بكينز. وكانت نظريته مثيرة للاهتمام وهي أنّ الأرض كانت ذات مرة موقعاً اختاره كوكب آخر لعله المشتري أو زُحَل كي يكون مستعمرة له. وقد أيّد نظرية شريدر القائلة إنّ الكواكب كانت فيها حياة لفترة ما. حياة متطورة جداً كما نعرف الآن عن المريخ. إلا أنّه استبعد المريخ بسبب حجم الكوكب الذي يبلغ عشرة أضعاف حجم الأرض، كما أنّ قلة جاذبيته استبعدت وجود العمالقة. أما المشتري وزُحَل فإنّ حجمهما وجاذبيتهما يكفيان لنشوء العمالقة.

وأخذ رايش يحاجج في نظريته: لقد لحق الدمار الشامل بسكان العالم كله مرات عدة بفعل كوارث شارك فيها القمر نفسه، وتعيّن على الإنسان أن ينهض من جديد ويبدأ من الصفر بعد كل دمار. وإذا كانت كوارث القمر قد تضمنت حدوث فيضانات عظيمة، فإنّ من شأنها أن تفسر السبب في أنّ هذه الحضارات القديمة قد طُمِرَتْ في أعماق سحيقة من الأرض.

هكذا مرَّ النهار في مناقشات مستفيضة. وفي المساء، ذهبنا لمشاهدة عرض لقراصنة البنزانس تقدمه جمعية أوبرالية تابعة لشركة اليورانيوم. وبعد ذلك تناولنا وجبة طعام عند المدير. كان رايش قد وضع سريراً

إضافياً في غرفة الجلوس فتوجهنا إليها. لكننا بالرغم من ذلك، تجاهلنا موضوع الطفيليات إذ تذكرنا خطورة مناقشة ذلك في وقت متأخر من الليل. بيد أنّنا أقنعنا فليشمان فعلاً في الحديث بالتفصيل عن نظريته الخاصة بالواقع الجنسي. وعند منتصف الليل كان قد قطع شوطاً طويلاً في الموضوع وقدّم لنا عرضاً رائعاً للمشكلة كلها. تظاهرنا في بعض الأحيان أنّنا لم نفهمه مما اضطره إلى إيضاح الأمور بصورة أفضل. وكانت النتائج تفوق تصوراتنا. فهو ببراعته العلمية الفائقة أظهر فهماً كبيراً للمشكلة، حيث يرى أنّ الدافع الجنسي عند الإنسان له أساس رومانسي شأنه شأن الدافع الشعري. فعندما يتلقى الشاعر عمق الخلود من منظر الجبال، يعرف جيداً أنّ الجبال ليست آلهة مغطاة بالسحاب. بل إنّ عقله يضفي عليها بهاءً شديداً، أو أنّه يراها رمزاً لبهاء عقله الخفي، هذا وتُذَكِّرُهُ عظمتها وشموخها بعظمته وشموخه. وعندما يقع الإنسان في هوى امرأة، فإن الشاعر فيه هو الذي يرى فيها أداة للارتقاء. وطاقة الدافع الجنسي هذه إنّما هي الطاقة الإلهية الموجودة لدى الإنسان، كما أنّ الدافع الجنسي يستطيع أن يستثير هذه الطاقة مثلما يستثير الجبل إحساسه بالجمال. وذكر فليشمان أنّه يتعين علينا أن ننظر إلى الإنسان ليس باعتباره وحدة وإنّما صراعاً دائماً بين الذات العليا والذات الدنيا. ويمثّل الانحراف الجنسي كما هو موجود عند دي ساد هاتين الذاتين وهما في صراع ملتحم لا يمكن معه فصلهما أبداً. وتُوَظِّفُ الذات الدنيا عمداً قوى الذات العليا لأغراضها الخاصة.

هنا تدخَّل رايش في الحديث وتساءل عن كيفية تفسير الارتفاع الهائل في معدل الانحراف الجنسي في هذا القرن.

وهنا أوضح فليشمان أنّ الذات الدنيا للإنسان تبدو كأنّها تتلقى عوناً سطحياً من مصدر ما. لعل مدنيتنا أصابها الانحلال وأنّها منهكة

واستنفدت دوافعها العليا. لكنه بالرغم من ذلك لا يستطيع أن يصدق الأمر. كما أنّه لا يصدق أنّ مرض العصاب الحديث يعود إلى عجز الإنسان عن اعتبار نفسه حيواناً متمدناً، بل حيواناً صناعياً راقياً في الواقع. إنّ الإنسان يملك وقتاً كبيراً يستطيع فيه أن يُكَيِّفَ نفسه مع المدن الكبيرة. إنّ تفسير ذلك يكمن في مكان آخر حتماً.

عند هذه النقطة بدأْتُ بالتثاؤب وأَفْصَحْتُ عن رغبتي في مواصلة الحديث على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي إن لم يكن لديهما أي مانع، إذ كُنّا قد أعددنا لفليشمان برنامجاً حافلاً في اليوم التالي. فوافقني رايش إذ كان الموضوع ممتعاً أكثر من اللازم عند مناقشته ونحن في حالة إرهاق. لهذا السبب تمنى كل واحد منا لرفيقه ليلة سعيدة وأوينا إلى الفراش.

في اليوم التالي، وعلى مائدة الإفطار كُنّا سعيدَيْنِ عندما رأينا فليشمان بحيويته المتألقة. إذ بدا واضحاً أنّه وجد عطلة نهاية الأسبوع ذات حافز كبير له. ولما سألنا عما أعددناه لبرنامج اليوم، أجبناه أنّنا نفضل مناقشة الموضوع بعد تناول الإفطار. ثم عدنا إلى غرفة رايش الذي واصل الحديث في النقطة التي انتهينا عندها تماماً. واقتبس رايش جملة فليشمان الأخيرة القائلة إنّ الذات الدنيا للإنسان تبدو كأنّها تتلقى عوناً سطحياً من مصدر ما. ثم ترك الأمور لي كي أحكي قصة وايزمان واكتشافنا أمر الطفيليات.

استغرق ذلك مني ساعتين وكُنّا نعلم منذ البداية أنّ موضوع فليشمان كان اختياراً موفقاً تماماً. بالرغم من أنّه ارتاب بوجود خدعة معقدة خلال الدقائق العشرين الأولى، إلا أنّه اقتنع بواسطة يوميات كارل. بعد ذلك أخذنا نلاحظ اهتمامه. وعندما اشتدت إثارته حذّره رايش وبسرعة من أنّ تلك هي الطريقة الأكيدة تماماً في تحذير الطفيليات.

وشرح له السبب الذي دفعنا إلى الانتظار حتى الصباح وإخباره. وأدرك فليشمان وجهة نظرنا وأخذ بعد ذلك يصغي إلينا بهدوء وجد. وأصبح واضحاً من خلال الخطوط التي ارتسمت على فمه أنّ الطفيليات وجدت لها عدواً جباراً آخر.

بطريقة ما، كان فليشمان سهل الاقتناع أكثر من رايش منذ البداية. فقد درس الفلسفة في إحدى الكليات وبحث في فلسفة ولسن وهوسرل. كما أنّ استخدامنا لقوانا في تحريك الأجسام بتأثير العقل أقنعه تماماً. وكان قد اشترى كرة مصنوعة من جلد ملوّن كي يأخذها معه إلى حفيدته. وقام رايش بجعل هذه الكرة تقفز حول الغرفة. أما أنا فقد استجمعت قواي وجعلت كتاباً يحلّق في أطراف الغرفة إضافة إلى جعل دبّور يلتصق بالمنضدة وهو يطن بغضب، غير قادر على القيام بأي حركة. وبينما كُنّا مسترسلين في الشرح ظلّ فليشمان يقول: "يا إلهي! ذلك ينطبق عليَّ تماماً".

ويعود سبب قوله هذا إلى أنّ أحد المفاهيم الأساسية التي اكتشفها في أبحاثه في علم النفس والتي يدعوها الغريبة على الوعي. لقد كُنّا قادرين على جعله يرى أنّ هذه الغرابة تفرضها طفيليات العقل في أغلب الأحوال.

كان فليشمان أول تلامذتنا. وأمضينا النهار كله في محاولة تعليمه كل ما لدينا من معرفة السبيل إلى الإحساس بوجود الطفيليات، وكيفية إغلاق العقل إزاءها عند ظهور أي بادرة تدل على وجودها. أما الأمور الأخرى، فلم تكن ضرورية. وسرعان ما أدرك المضمون الأساس: فبوسيلة ما، مُنِعَ الإنسان من امتلاك أرض تعود إليه شرعاً. وهي أرض العقل. إنّ الفرد سرعان ما يدرك هذا الأمر بصورة أكيدة وعندئذٍ لن يقف شيء في طريقه يحول دون الادعاء بذلك الحق. إنّ ستار الضباب

يرتفع ويصبح الإنسان مسافراً في العقل تماماً، كما أصبح مسافراً في البحر والجو والفضاء. أما ما يقوم به بعد ذلك، فيعود له. إذ يستطيع القيام ببعض الرحلات القصيرة والممتعة في بقاع جديدة أو أنّ في ميسوره الانطلاق لإجراء مسح عليها. وأوضحنا له السبب في عدم امتلاكنا الجرأة حالياً على تناول الشراب وأخبرناه أيضاً عما كان في استطاعتنا إضافته إلى ملكوت الظواهرية.

تناولنا وجبة غداء دسمة، فقد جعلنا الجهد الذي بذلناه في الصباح شديدي التوق إلى الطعام. بعد ذلك جاء دور فليشمان للحديث. ومن خلال موقعه كعالم نفساني كان يعرف عدداً كبيراً ممن أثاروا الأسئلة ذاتها التي أثارها هو. هناك اثنان آخران في برلين هما ألفن كيرتس من معهد هيرشفيلد وفانسن جيوبرتي أحد تلاميذه القدامى الذي أصبح الآن أستاذاً في الجامعة. وأخبرنا عن إيمس وطومسن في نيويورك وسبنسفيلد وألكسي ريمزوف في بيل وشالف وهيرزوك وكليبنكوف وديدرنك من معهد ماساشوسيتس. كما ذكر أيضاً اسم جورج ريبوت ذلك الرجل الذي من شأنه أن يدمرنا.

في فترة العصر، سمعنا باسم فيليكس هازارد لأوّل مرّة. بالرغم من أنّني ورايش نعرف القليل عن الأدب الحديث، إلا أنّ اهتمامات هازارد في الجنس أثارت اهتمام فليشمان. وعرفنا أنّ هازارد مشهور بين الطليعيين بمزيج غريب من السادية والخيال العلمي والتشاؤم الشديد. ويبدو أنّه كان يتلقى مبلغاً منتظماً من المال من أحد النوادي الليلية في برلين الذي يرتاده الشاذون. وقدّم لنا فليشمان وصفاً لبعض أعمال هازارد وأضاف معلومات مهمة تفيد أنّه بدأ حياته مدمناً على المخدرات، إلا أنّه ادّعى الآن أنّه توقف عن ذلك. ويبدو من خلال ما ذكره لنا فليشمان عنه أنّ هذا الرجل ليس سوى مُسْتَلَبَ إرادة آخر

لطفيليات العقل. لم يلتقِ به فليشمان إلا مرة واحدة وكانت تجربة غير مرضية. وقد ذكر أنّه أورد في يومياته ما يلي: "إن عقل هازارد أشبه بقبر حفر حديثاً"، وأنّ القنوط انتابه عدة أيام إثر اللقاء.

برز الآن السؤال التالي: هل ينبغي علينا العمل معاً أم ترك الحرية لفليشمان في اختيار الحلفاء؟ واتفقنا على أنّ الرأي الثاني يحمل في طياته مساراً خطيراً: فمِنَ الأفضل أن نعمل معاً نحن الثلاثة على اتخاذ القرارات. من ناحية أخرى، فإنّ الوقت ضيّق أمامنا ولا مجال للتفكير. المهم أن نجمع جيشاً صغيراً من الرجال الذين يتمتعون بذكاء حاد. إذ إنّ إضافة شخص جديد إلى صفوفنا، من شأنه أن يجعل المهمة أسهل. وكان من السهل إقناع فليشمان فقد كُنّا اثنين أمامه. وعندما يكون هناك عدد كاف منا، يسهل إقناع العالم كله وحينها ستنشب المعركة الحقيقية.

في ضوء ما حدث، بدا من غير المعقول أن نكون على هذه الدرجة من الثقة. إلا أنّه ينبغي أن نتذكر أن الحظ كان معنا حتى الآن. وقد توصّلنا إلى الاعتقاد أنّ الطفيليات تصاب باليأس إزاء الأشخاص الذين يعرفون بوجودها.

بينما كُنّا نوصِل فليشمان إلى الطائرة في ذلك المساء، تذكّرْتُ كيف كان ينظر إلى حشود الناس في شوارع أنقرة المضيئة عندما قال: "أشعر كأنّني قضيت نحبي خلال عطلة نهاية الأسبوع وأنّني ولدت إنساناً مختلفاً من جديد". وقال أيضاً: "ذلك غريب! إن هؤلاء الناس يبدون لي وكأنّهم نائمون. إنهم كمن يسير في نومه". وعندئذٍ أدركنا أنّه ليس ثمّة ما يدعونا إلى القلق بشأن فليشمان. فقد استعاد أرضه في العقل.

بدأت الأحداث تتسارع حتى أنّ أسابيع برمّتها بدت وكأنّها مجرد ضباب من الأحداث. بعد ثلاثة أيام عاد فليشمان إلى زيارتنا وبرفقته الفن كيرتس وفانسن جيوبرتي. وصل صباح يوم الخميس وغادرنا في

الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه. كان كيرتس وجيوبرتي كل ما نحلم به سيما أنّ الأول أخذ يقترب من المشكلة بواسطة دراسة الفلسفة الوجودية كما بدأ يرتاب بوجود الطفيليات من خلال أبحاثه الخاصة التي قام بها بنفسه. إلا أنّ أمراً واحداً أثار قلقنا. فقد ذكر كيرتس أيضاً اسم فيليكس هازارد، وما عزز شكوكنا أنّ هازارد قد يكون عميلاً مباشراً للطفيليات وأنّه مُستَلَبُ إرادة سيطرت عليه الطفيليات حين كان مدمناً على تعاطي المخدرات. ويبدو أنّ هازارد قد مارس تأثيراً شريراً على عدد كبير من الناس، مما جعل الفتيات العصابيات الصغيرات يجدن في ذلك حافزاً لهن. أما كيرتس فقد مارس عليه التأثير المشوش ذاته الذي مارسه على فليشمان. والأدهى من هذا كله، أنّ هازارد سخر من عمل كيرتس في مجلة طليعية تصدر في برلين. لهذا، فإنّه ينبغي على كيرتس أن يكون أكثر حذراً من أي واحد منا. فهو شخص مشبوه في نظر الطفيليات.

لو لم نكن أغبياء لقمنا بوضع خطة لقتل هازارد، إذ ليس من شأن الأمر أن يكون صعباً. فقد قام فليشمان بتطوير قواه الخاصة بتحريك الأجسام بتأثير العقل، التي من شأنها أن تتعزّز في أداءه بعض التمارين بحيث يتمكن عندئذٍ من قيادة هازارد ودفعه تحت سيارة يقودها كيرتس أو جيوبرتي. شعرنا كالعادة بوخز الضمير، إذ من الصعب أن ندرك أنّ هازارد مات فوراً، وأنّ المسألة ليست سوى جعل جسده عديم الفائدة بالنسبة إلى الطفيليات.

خلال الأسابيع الثلاثة التالية، واظب فليشمان على زيارتنا خلال عطلات نهاية الأسبوع ومعه حلفاء جدد: سبنسفيلد وإيمس وكاسل وريمزوف ولاسكاراتوس من جامعة أثينا. والأخَوان كراو وجونز وديدرنك، وأول امرأة تدخل حلقتنا هي سيكريد ألكستروم من معهد

ستوكهولم. وقد مرَّ هؤلاء بنا في غضون عشرين يوماً. كانت مشاعري آنئذٍ مشوشة. إذ كان من دواعي ارتياحي أن يذاع السر وأنّني ورايش لم نعد أوصياء عليه. إلا أنّني من ناحية أخرى كنت أخشى أن يرتكب أحد هفوة ما ينبه بها الطفيليات. بالرغم من أنّني أقنعت نفسي بعدم خطورة ذلك إلا أنّ غريزتي أشعرتني بضرورة إبقاء الأمر سرّاً.

وحدثت بعض التطورات المثيرة. فالأخَوان كراو ولويس وهاينريش كانوا قريبين من بعضهم ولديهم قدرة خاصة على التخاطب عن طريق توارد الخواطر. ولهذا فإنهم يتفوّقون علينا من ناحية قواهم في تحريك الأجسام بتأثير العقل. وقد كشفوا عن أنّنا ربما نقلل من أهمية هذه القوة، في غرفة الأثريات في المتحف البريطاني حيث كنْتُ حاضراً، عندما قاموا بتحريك صخرة رخامية تزن ثلاثين طناً بواسطة تركيز انتباههم عليها معاً. ولم يكن حاضراً آنئذٍ معي سوى أيانيس لاسكراتوس وإيملين جونز وجورجيوس ريبوت وكينيث فيرنو مدير قسم الآثار. وأوضح الأخَوان كراو أنّهم فعلوا ذلك عن طريق تعزيز قواهم بواسطة إيقاع النبض. غير أنّنا عجزنا عن فهمهم.

وقبل أن أسترسل في وصف المصيبة الأولى التي حلّت بنا، يتعين عليَّ أن أتحدث بمزيد من التفاصيل عن قوة تحريك الأجسام بتأثير العقل، طالما أنّها تلعب دوراً في قصتي. إنها نتيجة بسيطة وطبيعية للهدف الجديد الذي حدّدناه في المعركة ضد الطفيليات. الأمر الأول الذي أدركته عندما بدأت بالتدريب على دروس هوسرل، هو أنّ الجنس البشري تغاضى عن سِرٍ بسيط للغاية يخص الوجود بالرغم من وضوحه لكل فرد. والسِرّ هو أنّ بؤس الحياة الإنسانية والوعي يعودان إلى ضعف شعاع الانتباه الذي نسلّطه على العالم. ولنفرض أنك تملك مصباحاً قوياً، إلا أنّه يفتقر إلى عاكس في داخله. فعندما تقوم بإضاءته،

فإنّ الشعاع ينبعث منه ويتوزع في جميع الاتجاهات. كما أنّ جزءاً كبيراً منه يمتصّه باطِنُ المصباح نفسه. أما إذا وضعنا عدسة مقعّرة فإنّ الشعاع يتركز وينطلق إلى الأمام كالرصاصة أو الرمح. ويصبح الشعاع أقوى من السابق بعشر مرات. إلا أنّ هذا ليس سوى نصف مقياس، لأنّه بالرغم من أنّ كل شعاع من إشعاعات الضوء يسلك السبيل نفسه، فإنّ موجات الضوء الحقيقية تكون مرتبكة، شأنها في ذلك شأن الجيش غير المنظم عندما يسير في أحد الشوارع. وإذا سَمَحْتَ للضوء بالمرور خلال الليزر، تسير الموجات سيراً منظماً وتزداد قوتها ألف مرة، مثلما يصبح بمقدور وقع أقدام جيش منظم أن يهدم أسوار أريحا.

إنّ العقل البشري نوع من النور الكشاف الذي يلقي ضوءاً من الانتباه على العالم. بيد أنّه كان دائماً أشبه بالنور الكشاف الذي لا يحتوي على عاكس. ينتقل انتباهنا من ثانية إلى ثانية، وليس لدينا الحيلة لتركيز الضوء. بالرغم من ذلك فهو يحدث دائماً. لقد لاحظ فليشمان على سبيل المثال أنّ الرعشة الجنسية إنما هي في الواقع تركيز أشعة الوعي أو الانتباه. إنّ أشعة الانتباه تحمل قوة أكبر، أمّا النتيجة فإحساس بالمتعة الفائقة، ويشبه ذلك إلهام الشعراء. وليست هناك ضرورة كي نضيف إلى أنّ ما يدعى بالرؤى الصوفية يشبه هذا أيضاً. ولكن من خلال أشعة ليزر عرضية يجري دفعها في الداخل. فعندما رأى جاكوب بويهم أشعة الشمس وقد انعكست في صحن من القصدير وأعلن أنّه رأى السماء كلها، إنما كان يعلن خلاصة الحقيقة.

إنّ الجنس البشري لا يدرك أنّ الحياة كئيبة إلى حدٍّ بعيد بسبب الإبهام والتبعثر في إشعاع الانتباه عنده، بالرغم من أنّ السر كما أعتقد، يكمن ومنذ قرون طويلة، على مقربة من أرنبة أنفه. فمنذ العام 1800 لم تدخر الطفيليات جهداً في تشتيت انتباه الجنس البشري عن هذا

الاكتشاف، وهو اكتشاف من شأنه أن يتم بعد عصر بتهوفن وغوتيه ووردزورث. وقد أنجزت الطفيليات هذا الأمر بصورة رئيسة عن طريق تشجيع العادة البشرية المتمثلة بالغموض والنزعة لإضاعة الوقت في الأمور التافهة. فالإنسان تأتيه فكرة عظيمة فجأة يركّز عقله عليها لحظة من الزمن، عند هذه النقطة تتدخل العادة. كأن تشكو معدته الجوع، أو يجفّ ريقه ويهمس في أذنه صوت صفير مزيف: إذهب واشبع حاجاتك الجسدية فتغدو قادراً على التركيز أكثر من ذي قبل. فتراه ينقاد للصوت وسرعان ما ينسى الفكرة العظيمة.

في اللحظة التي يتعثّر فيها الإنسان بالحقيقة القائلة أنّ انتباهه إشعاع – أو كما قال هوسرل إنّ الوعي مقصود – فإنه يكون قد عَلِمَ بالسر الأساس. ولم يبق له الآن سوى أن يتعلم كيفية استقطاب ذلك الإشعاع، لأن الإشعاع المُسْتَقْطَب هو الذي يؤثر في تحريك الأجسام بتأثير العقل. وما اكتشفه الأخَوان كراو عن طريق الصدفة ما هو إلاّ كيفية استخدام عقل كل واحد منهما كليزر ياقوتي لتشكيل الإشعاع. وهما ليسا خبيرين في هذا المجال، إذ أهدرا 99٪ من طاقة الإشعاع. بَيْدَ أنّ نسبة 1٪ الباقية تكفي لتحريك ثلاثين طناً بطريقة بسيطة جداً، وتكفي أيضاً لتحريك صخرة تزن خمسمائة طن.

نعود الآن إلى ليلة الرابع عشر من تشرين الأول عندما حلّت بنا الكارثة. إنّني لا أملك فكرة عن هوية المسؤول عن تنبيه الطفيليات. ولعله كان جورج ريبوت ذلك الرجل الغريب الذي ضمّه إلينا جيوبرتي. لقد كتب ريبوت كتباً مختلفة حول توارد الخواطر والسحر والأرواح وما إلى ذلك، واختار لها عناوين شأن **المعبد الخفي** و**من أطلانطيس إلى هيروشيما**. كما أنّه أسس مجلة **آفاق**. ولعله من غير الإنصاف القول إنّ جيوبرتي أظهر قصوراً في الحكم عند اختياره هذا

الشخص. إذ إنّ ريبوت كان رجلاً ذا فكر ثاقب ورياضياً جيداً. وقد أظهرت كتاباته أنّه اقترب كثيراً من الارتياب بوجود طفيليات العقل. من ناحية أخرى، كانت هذه الكتابات تأملية أكثر منها علمية. فهو ينتقل من أطلانطيس إلى الفيزياء الذرية ومن الاحتفالات القبلية البدائية إلى السيبرنية. كما أنّ من شأنه أن يفسد متعة مناقشة جادة وصحيحة حول الارتقاء، من خلال التطرق إلى بعض الحقائق غير المؤكدة عن الأدب الروحي. كما أنّه يدرج العلماء والمهووسين في دائرة واحدة. وقد جاء إلى ديار بكر خصيصاً لرؤيتي. كان رجلاً صغيراً عصابياً له وجه نحيف وعينان سوداوان نفاذتان. وقد شعرت منذ البداية أنّه شخص لا يُعْتَمَدُ عليه على عكس الآخرين الذين التقيت بهم، بالرغم من ذكائه ومعرفته. كانت حركاته سريعة وعصابية، وانتابني الشعور في أنّه أقل ثباتاً من الآخرين، وأنّ عقله يفتقر إلى الحماية. عبّر رايش عن هذا قائلاً: "إنه ليس عديم الاكتراث بما فيه الكفاية".

في الساعة العاشرة مساءً بدأْتُ أدوّن بعض الملاحظات في غرفتي، وفجأة اعتراني ذلك الشعور بالارتعاش الذي نبّهني أنّ الطفيليات حاضرة، وهو الشعور ذاته الذي انتابني وأنا في غرفتي في شارع بيرسي. واستنتجت أنّها كانت تختبرني بين الحين والآخر. لهذا، فقد دمجت شخصيتي الجديدة بالقديمة وشرعت أفكّر في مسألة شطرنجية، تعمّدتُ التفكير ببطء وأنا أفحص المسألة من جميع جوانبها فحصاً دقيقاً بالرغم من أنّه كان في وسع عقلي القفز إلى النتيجة فوراً. وبينما أنا مستغرق في التفكير سمحت لأفكاري بالتشتت ونهضت لأشرب قدحاً من العصير، إذ توقفت عن تناول الشراب وأصبح بإمكاني الآن تحقيق الحافز بسهولة من خلال عملية التركيز الآني، ثم تظاهرْتُ أنّني فقدْتُ تركيزي على المشكلة فبدأت من الصفر. وبعد مرور نصف ساعة تقريباً، تثاءبْتُ

وسمحْتُ لعقلي أن يغدو مرهقاً. أثناء هذا كله بقيْتُ منتبهاً إلى أنّها كانت تراقبني بوعي أشد مما كان عليه الحال في شارع بيرسي. ولم يكن من شأني قبل عام من الزمن الشعور حتى بالقنوط تحت مثل هذه المراقبة. فهي خارج نطاق الوعي الواعي أو الوعي اللاواعي.

وبعد مرور عشر دقائق على وجودي في السرير، أدركْتُ أنّ الطفيليات غادرت المكان فبدأْتُ أفكّر فيما يمكن أن تُقْدِمَ عليه إذا ما قرَّرْتُ البدء بالهجوم وكانت الإجابة صعبةً. غير أنّني شعرت أنّ عقلي كان من القوة بحيث يستطيع أن يصد هجوماً كبيراً.

في منتصف الليل رنّ الهاتف التلفزيوني وظهر رايش على الشاشة وكان يبدو قلقاً. قال:

— هل زارتك؟

— نعم. وقد مضت قبل ساعة.

— لقد غادرتني تواً. إنها تجربتي الحقيقية الأولى معها ولا أحبها. إنها أقوى مما كُنّا نظن.

— لا أدري. أعتقد أنّ ذلك مجرد فحص روتيني تقوم به. هل أفلحْتَ في إخفاء أفكارك؟

— أوه. نعم. لحسن الحظ أنّني كنْتُ منشغلاً بالكتابة المنقوشة على آبوذ. لذا فإنّني ركّزْتُ أفكاري عليها وبدأْتُ أفكّر تفكيراً بطيئاً فيها. فقلت له:

— اتصل بي إذا كنْتَ بحاجة إلى أي مساعدة. أعتقد أنّنا نستطيع أن نحاول وضع عقلينا في طور الإشعاع شأن الأخوين كراو وقد ننجح في ذلك.

بعد ذلك عدت للنوم واحتطْتُ للأمر وسمحْتُ لوعيي بالاستسلام للنوم بالطريقة القديمة بدلاً من إقفاله فجأةً كالتيار

الكهربائي. استيقظْتُ من النوم وشعور بالإرهاق أو بدايةً لمرض ينتابني. أما عقلي فكان في حالة إعياء تشابه إعياء الجسد الذي يحس به صاحبه عندما ينام في غرفة رطبة أو باردة. وأدركْتُ فوراً أنّ زمن التضليل قد مضى. إذ تسلَّلَتِ الطفيليات أثناء نومي وأسرَتْني. كنت مثل إنسان أُحْكِمَ القبض على ذراعيه وساقيه.

لقد حدث الأمر الآن ولم يكن بغيضاً كما تصورت. إنّ وجود الطفيليات الحقيقي لا يبعث على المقت كما اعتقَدْتُ دوماً، بل يبدو غريباً تماماً.

لم تكن لديَّ أي فكرة عن المقاومة. وفي لحظة من الزمان كنت أشبه بإنسان أسير تعتمد فرصته الوحيدة في النجاة على مناشدة أُسَرِيَّة بأنّهم على خطأ. ولهذا جاء رد فعلي مشابهاً لذلك الرد الذي كان عليَّ أن أظهره قبل عام من الزمن: شيءٌ من الخوف وشيء من الحيرة لكن بلا رعب. سمحْتُ لعقلي أن يفتش عن أفعالي أثناء اليوم السابق في محاولة للكشف عن سبب هذا الشعور بالمرض.

لم يحصل أي شيء خلال نصف الساعة التالية. فقد بقيتُ مستلقياً وعلى نحو سلبي تماماً. ولم أكن قلقاً للغاية، بل تساءلت فيما إذا كانت الطفيليات ستقوم بالاسترخاء. وشعرت أنّ في ميسوري استجماع قوتي إذا ما دعت الضرورة لطردها.

لكنني بدأت أدرك عدم جدوى الأمر. فهي تعرف أنّني على معرفة بالأمر. وتعرف أنّني أمارس لعبة التمارض. وبدَأتْ بعد ذلك مرحلة جديدة وكأنّ الطفيليات أدركَتْ كل شيء. فَبَدَأَتْ تمارس ضغطاً على عقلي، وهو نوع من الضغط كان من شأنه أن يصيبني بالجنون. إذ إنّ مجرد الشعور بالغثيان الجسدي يولّد الشعور بالقهر الجسدي. ولهذا، فإنّ ضغط الطفيليات ولَدَّ شعوراً بالقهر العقلي وهو نوع من الغثيان.

من الواضح أنّه كان يتعيّن عليَّ المقاومة بيد أنّني قرّرَتُ عدم إظهار ذلك. إذ قاومْتُ مقاومة سلبية وكأنّني لست واعياً بضغطها، وربما كان يخامرها الإحساس بأنّها كانت تحاول تحريك صخرة تزن مائة طن عن طريق الدفع. وازداد الضغط وشعرْتُ بالثقة، إذ كنْتُ أعلم أن لديَّ القوة لمقاومة ضغط أشد من هذا الضغط بخمسين مرة.

لكن بعد مرور ساعة، شعَرْتُ كأنّ عقلي يسند ثقلاً بحجم جبل إفرست. ما زِلْتُ أمتلِكُ الكثير من القوة الاحتياطية ولكن في حال استمرار ذلك، فإنّه من الجائز أن أستنفدها. وهكذا، لم يكن بد من الكشف عن نواياي. فاستخدمت كل ما أملكه من قوة للتخلص منها. وركزْتُ إشعاع انتباهي على عمق النشوة الجنسية وقذفت بها نحو الطفيليات. وكان في ميسوري زيادة تلك القوة عشر مرات إلا أنّني كنْتُ مستمتعاً بهذه المنافسة فإذا رَبِحْت، فذلك يعني أنّه لا يتعين عليَّ أن أحدّد مدى طاقتي بعناية في المستقبل لأنّ الطفيليات تعرف ذلك الآن على أيّ حال.

وجاءت نتيجة جهودي الأولى مخيبة للآمال. فقد انزاح العبء وتبعثرت الطفيليات. إلا أنّ إحساساً بعدم إصابتها بأيّ أذىً انتابني. كان كل شيء يشبه ضرباً من الخيال. وكان من شأني أن أغدو سعيداً لدى الشعور أنّني كنْتُ أسدّد لها الضربات كما يفعل الملاكم، إلا أنّ الأمر لم يكن كذلك على ما يبدو.

وسرعان ما عاد هجوم الطفيليات ثانية. وكان في هذه المرة مفاجئاً وعنيفاً حيث إنّني اضطررت إلى الدفاع من موقع غير مُهيّأ تماماً. كنْتُ أَشْبَهَ بسيّد البيت وهو يواجه هجوماً تقوم به جماعة من المتسكعين. وكنْتُ أشعر أنّ هذا يعود إلى نظام أدنى درجة. إنّ هذه الطفيليات نوع من الهوام الذي لا يحق له الدخول إلى عقلي. لكنها قرّرَتْ مهاجمتي

مثلما تفعل الجرذان الخارجة من المجاري. لهذا كانت مهمتي تقضي بأن أبيّن لها أنّني لم أكن خائفاً. لقد شعرْتُ أنّها موجودة في أراضيّ ولدى عودتها سدَّدْتُ لها الضربات ثانية وأحسَسْتُ بها تتفرق ثانية.

لقد سُئِلْتُ غالباً فيما إذا كنْتُ قد رأيْتُ حقاً الطفيليات أو شعرْتُ أنّ لها شكلاً محدداً. وقد أجبْتُ بالنفي. وبإمكانِكَ تصور مشاعري فيما لو تخيلْتَ أنكَ تشعر بالحر والتعب في حين يسير كل شيء أمامك في الاتجاه المعاكس. ففي كل مرة تحاول فيها عبور الطريق تجد حافلةً على وشك أن تدهسك. وتشعر كأنّ الكون بأجمعه أصبح معادياً لك. إنّ إحساسكَ بالطمأنينة يتبدد ويغدو كلّ ما له علاقة بحياتكَ قابلاً للتدمير والزوال، ما يعطيك فكرةً عن المنحى الذي يتّخذه هذا الهجوم. في الماضي، كنْتُ أزعم أنّ هذه الهجمات ما هي إلاّ هجمات التشاؤم والإشفاق على الذات، وكنْتُ أجِدُ لي سريعاً أمراً أقلق بشأنه بحيث يبدو الأمر مقبولاً. فجميعنا يقاتل جميعاً في مثل هذه المعارك مئات المرات يومياً، والذين يتحقق لهم النصر التام إنما يحقّقون ذلك في التخلي عن نزعاتهم السلبية والقلق بشأن الحياة من خلال التفكير وفق مفاهيم الانتصار والأهداف الهامة.

حصلَتْ اشتباكات بيني وبين الطفيليات استغرَقَتْ ساعة من الزمن. ولم أسمح لنفسي بالقلق بشأن ما يمكن أن يحدث فيما لو كان عددها يبلغ الملايين، بحيث يكفي أن تهاجمني على مدى أسابيع طويلة حتى يُسْتَنْفَدَ عقلي تماماً. وعندما ظهرَتْ هذه الفكرة، قاومْتُها. بالرغم من ذلك، كانت تمثّل خطراً أساسياً.

في الساعة الخامسة انتابني الإرهاق غير أنّ القنوط لم يعرف إليَّ سبيلاً. فكّرْتُ بأنّ تعزيزات كبيرة وصلت الطفيليات وأنّها تقوم بحشدها من أجل الهجوم. هذه المرة قرّرْتُ أن أغامر وأجعلها تقترب مني أكثر.

وأردْتُ أن أكتشف فيما إذا كنْتُ قادراً على إلحاق الأذى بها. لهذا السبب جعلتُها تضغط عليَّ وكأنّها حشد هائل من الناس. وسمحْتُ لها بالضغط أكثر فأكثر حتى شعرْتُ أنّني بدأت بالاختناق. لكنني لم أبدِ أيّ مقاومة. غير أنّني استجمعْتُ قواي عندما أحسسْتُ أنّ ثقلها بلغ من القوة ما لا يمكن تحمّله وهاجمْتُها وكأنّني أُطلِقُ قذيفة مدفع في وسطها. لم أخطئ هذه المرة. فقد كانت خفيفة كأنّها سرب من الذباب، إلا أنّها كانت محتشدة بكثافة بحيث لا تستطيع الانسحاب بسرعة كافية وقد انتابني إحساس بالمتعة بسبب تدمير قسم كبير منها.

خلال نصف الساعة التالية حلّ السلام، بالرغم من أنّها كانت ما تزال موجودة، فإنّها كانت مهزوزة. وقد اكتشفْتُ سبب ذلك فيما بعد. لقد علّمَتْني أَشْهُرُ التدريب كيف أستجمع قواي الداخلية التي تعادل القنبلة الهيدروجينية، وكانت تلك أول مرة أستخدمها رغم أنّني لم أكن أملك أدنى فكرة عن قوتها. لقد هجمَتِ الطفيليات عليَّ كأنّها أسراب من الجرذان تهاجم هرة صغيرة، إلا أنّها سرعان ما اكتشفَتْ أنّها تهاجم في الواقع نمراً شرساً. ولهذا فإنّ رعبها لا يثير الدهشة.

شعرْتُ بالسرور التام. فبالرغم من استخدامي قواي كلّها لصدها، لم أستنفد نفسي. وشعرْتُ أنّني قوي ونشيط كأي وقت مضى. كما أنّ نشوتي باندحارها جعلتني أشعر كأنّني أقدِرُ على الاستمرار في ذلك أسابيع.

لكن مع انبلاج نور الصباح الذي أخذ يتسلل من خلال النافذة، عرفْتُ أنّني كنْتُ أواجه شيئاً لم أكن مستعداً له. وهذا الشعور الغريب يشبه الإحساس المفاجئ بوجود ماء بارد حول قدميك يأخذ بالارتفاع إلى الساقين تدريجياً. وقد استغرقت بعض الوقت كي أدرك أنّها كانت تهاجم منطقة معينة من عقلي أجهل وجودها. لقد كنْتُ قوياً لأنّني

كنْتُ أقاتلها عن سابق معرفة بها إلا أنّه كان يتعيّن عليَّ أن أدرك أنّ معرفتي بعقلي من الضآلة بحيث تدعو إلى الشفقة. وكنْتُ مثل عالِم الفلك الذي يعرف النظام الشمسي ويعتقد أنّه يعرف الكون كله.

إنّ ما كانت الطفيليات تقوم به هو الهجوم عليَّ من موقع يكمن وراء معرفتي بنفسي. صحيح أنّني فكّرْتُ في الموضوع لبعض الوقت. إلا أنّني أجَّلْتُ النظر فيه – وأنا على حق – كي يكون موضوع دراسة في فترةٍ لاحقة. لقد فكَّرْتُ بما فيه الكفاية بأنّ حياتنا البشرية ترتكز أساساً على بعض المعطيات التي نسلّمُ بها جدلاً. فالطفل يسلّمُ بوالديه وبيته ثم بلده ومجتمعه. فنحن في حاجة إلى هذه المستندات كي تكون بداية لنا. فالطفل اليتيم أو المشرّد يترعرع والشعور بانعدام الأمن يزداد عنده. أما الطفل الذي يتربّى في منزل جيّد، فإنّه قد يتعلم في مراحل متقدمة انتقاد والديه أو حتى رفضهما بالرغم من ضآلة هذا الاحتمال، إلا أنّه لا يقدِمُ على ذلك إلا عندما يكون من القوة بحيث يستطيع الوقوف على قدميه وحده.

إنّ معظم المفكرين الأصليين يتطورون عن طريق نبذ الدعائم الواحدة تلو الأخرى. وربما يستمرون في إغداق مشاعر الحب على والديهم وبلدهم، إلا أنّ حبهم ينبع من مركز قوة، وهي قوة تبدأ بالرفض.

والواقع أنّ البشر لا يتعلمون أبداً الوقوف وحدهم. فهم كسولون، يفضلون الاستناد إلى ما يدعمهم. وقد يكون الإنسان رياضياً أصيلاً لا ينتابه الخوف، إلا أنّه بالرغم من ذلك، يعتمد على زوجته اعتماداً كلياً. أو ربما كان مفكّراً حرّاً قويّاً بيد أنّه يستمِدّ طمأنينته، من إعجاب بعض الأصدقاء والتلاميذ. خلاصة القول، إنّ البشر لا يختبرون أبداً دعائمهم، بل يختبرون قِسماً منها ثم يسلّمون جدلاً بالبقية.

أصبحْتُ الآن منشغلاً تماماً بمغامرة دخول قارات عقلية جديدة رافضاً شخصيتي القديمة وافتراضاتها، حيث كنْتُ غير مدرك أنّني ما زلْتُ أعتمد اعتماداً كبيراً على عشرات الافتراضات الاعتيادية. فعلى سبيل المثال، ما زلْتُ أملك إحساساً قوياً بالهوية رغم أنّني شعرْتُ أنّ هويتي قد تبدّلت. ويأتي أعظم إحساس لنا بالهوية من خلال المرساة الكامنة في قاع بحر عميق جداً. فأنا ما زلْتُ أنظر إلى نفسي باعتباري واحداً من سكان المجموعة الشمسية والكون في إطار الزمان والمكان. وقد سلّمْتُ جدلاً بأمر الزمان والمكان. إذ لم أسأل أين كنْتُ قبل مولدي أو أين سأكون بعد وفاتي. كما أنّني لم أدرك حتى مشكلة قوّتي فقد تركْتُ مسألة اكتشافها لوقت لاحق.

وما تقوم به الطفيليات الآن هو الغوص حتى المراسي العميقة لهويتي ومحاولة زعزعتها. فهي لم تقم بسحب المرساة لأنّ ذلك يفوق طاقتها. غير أنّها هزّت المراسي فأصبحْتُ فجأة واعياً لافتقاري الإحساس بالأمان على مستوى سبق أن اعتبرته أمراً مفروغاً منه. ووجدْتُ نفسي أتساءل من أعماقي عن هويتي وكما يرفض المفكر الجريء كثيراً من المُسَلَّمات، رفضت كل الأمور التي منحتني هوية: المصادفة التي حدّدت زمن ولادتي ومكانه والمصادفة التي حدّدت كوني إنساناً لا كلباً أو سمكةً، والمصادفة التي جعلتني أمتلك غريزة قوية في التشبث بالحياة. وبعد أن أحَطتُ جانباً بكل هذه المصائد العرضية، وقفْتُ عارياً كالوعي الخالص في مواجهة الكون. إلا أنّني أصبحت هنا واعياً أنّ ما يسمى بالوعي الخالص ما هو إلاّ أمر اعتباطي شأن اسمي. فهو لا يستطيع مواجهة الكون دون إلصاق علامة عليه. إذ كيف يمكن للوعي أن يكون وعياً خالصاً عندما أرى شيئاً ما بوصفه كتاباً وآخر بوصفه منضدة؟ إنّ هويتي الإنسانية الصغيرة هي التي ما زالت تنظر من

خلال عيني. وإذا ما حاولْتُ الوصول إلى ما وراء ذلك، فإنّ كل شيء يغدو بلا معنى.

إنّني لم أَقُمْ بكل هذا التفكير لمجرد المزاج. بل كنْتُ أحاولُ شقَّ طريقي نحو صخور القاع الصلدة والتي أستطيع الاتكال عليها في معركتي ضد الطفيليات. وكانت هذه من الذكاء بحيث كشفت لي عن أنّني أقف على حافة هاوية. إذ قفز عقلي كي يدرك أنّنا أيضاً ننظر إلى الزمان والمكان كأمرين مسلّمٍ بهما بالرغم من أنّ الموت يأخذنا إلى ما وراءهما. وفهمتُ أنّ ما أدعوه بالوجود يعني الوجود في الزمان والمكان وأنّ هذا الكون من زمان ومكان ليس مطلقاً. فجأة أصبح كل شيء عبثياً. إذ للمرة الأولى يعتريني شعور فظيع بالضعف والافتقار إلى الإحساس بالأمان، وأدركتُ أنّ كل شيء موجود في هذا الكون ومسلّم به قابل للنقاش، وأنّ كل شيء يمكن أن يكون مجرد حيلة. وباعتباري مفكراً، فقد انتابتني العادة الرومانسية بالشعور أنّ العقل يقع خارج حدود مصادفات الجسد وأنّه أبدي وحرّ، وأنّ الجسد ربما يكون تافهاً أو خاصاً. إلا أنّ العقل شامل وعام. إنّ هذا الشعور يجعل العقل مراقِباً أبدياً بعيداً عن الخوف. فجأة فكرت فيما لو كان الكون كله اعتباطياً، فإنّ عقلي اتفاقي يصبح قابلاً للتدمير تماماً مثل جسدي. تلك هي النقطة التي يتذكر عندها المرء ساعات المرض والهذيان، عندما يبدو العقل أقل ديمومة من الجسد وعندما يشك المرء في أنّ خشونة الجسد هي التي تمنع العقل من التفسّخ.

برزَتْ أمامي هوة من الفراغ تنفتح تحت قدميّ، ولم يبعث ذلك فيَّ الخوف البتة إذ من شأنه أن يكون استجابة بشرية. كان الأمر أشبه بالتواصل مع حقيقة عارية تجعل كل ما هو إنساني يبدو مقنعاً، بل تجعل الحياة نفسها تبدو مثل حفل تنكري. ولاح لي أنّ ذلك يضرب على وتر

حساس في حياتي، أمرٌ اعتقدْتُ أنّه لا يُمَسْ. شعرْتُ أنّني مثل ملك يصدر الأوامر ويطاع أمره دوماً يجد نفسه فجأة وقد وقع في أيدي برابرة يهددون بقتله بالسيف. وكان ذلك من الواقعية بحيث رفضْتُ كل شيء. لقد كنْتُ دائماً أجعل من كل شيء وهماً من الأوهام. وفي تلك اللحظة، أصبَحَتْ قضية انتصار الطفيليات أو هزيمتها عديمة الأهمية. لقد استُنْزِفَت قواي كافة وشجاعتي كلها. وشعرْتُ كأنّني سفينة اصطدمتْ بصخرة وأدركت فجأة أنّها غير آمنة.

لم تهاجمني الطفيليات، بل قامت بمراقبتي تماماً مثلما تراقب حيواناً أصيب بالتسمم ويبدأ يحتضر. وحاولْتُ استجماع قواي والاستعداد للهجوم، بيد أنّني شعرْتُ كأنّني مشلول وخائر القوى. بدا الأمر عديم الفائدة. إذ كانت طاقتي العقلية ضدي. وبدلاً من أن تومض بلا اهتمام، شأن الأيام الخالية، فإنّها راحت تتأمل هذا الفراغ دون أن يطرف لها جفن.

لقد ارتكبت الطفيليات غلطة بعدم شن الهجوم. إذ كان من شأنها أن تتغلب عليَّ لأنّني فقدْتُ معظم طاقتي ولم يكن لديَّ الوقت الكافي لاستعادتها. وقد كان اغتيال كارل وايزمان على هذا النحو، وأنا أعلم ذلك علم اليقين. إذ إنّ هذه الرؤية للعبث والخواء تولّدُ الفكرة القائلة إنّ الموت لا يمكن أن يغدو أسوأ من هذا كله، وتُشعر المرء أنّ الحياة تعني التشبث بالجسم وأوهامه. فالمرء ينظر إلى الجسم تماماً كما ينظر نحو الأرض من سفينة فضائية، ويشعر في هذه الحالة بأن لا فائدة من العودة.

كان يتعيّن على الطفيليات أن تبدأ بالهجوم. ولعل موت كارل أقنعها أنّني سأموت بالطريقة ذاتها، أي الانتحار. غير أنّه لا يوجد مثل هذا الدافع لديَّ، لأنّ عقلي متحرر من جميع الضغوط العصابية التي كان من شأنها أن تجعلني أحلم بالتحرر. وحدها المرأة العصابية يغمى

عليها عندما يهاجمها شخص ما، إذ إنّ المرأة ذات العقلية السديدة تدرك أنّ الإغماء لا يعتبر حلاً من الحلول أبداً.

خطرت لي الآن فكرة ساعدتني على هذا التحرّر وكانت على الوجه التالي: طالما أنّ هذه المخلوقات قد ولّدَتْ لديَّ متعمدة، الشعور بالخواء الكامل، فإنّها لا بد وأن تقف وراء ذلك الشعور. وما إن طافت هذه الفكرة في ذهني حتى بدأْتُ أستعيدُ قواي. وأدركْتُ أنّها كانت قد عقدَتِ العزم على إيصالي إلى هذه الحالة تماماً كما يحاول صيادو السلاحف قلبها على ظهورها. والطفيليات تعلم أنّ ذلك من مكامن الضعف عند البشر. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنّها تعلم أنّ الإحساس بالخواء ليس إلا وهماً من الأوهام. كان عقلي يقوم بما في وسعه إلا أنّه كان يرتكب غلطة. فالرجل البالغ يستطيع أن يرهب طفلاً صغيراً بسهولة مستغلاً جهله. وهو يستطيع على سبيل المثال أن يصيب طفلاً من الأطفال بالجنون حين يقصّ عليه قصص الرعب كقصص دراكولا وفرانكشتاين ويشير بعد ذلك إلى أنّ العالَم الحقيقي أكثر رعباً من هذه القصص بما فيه من أحداث. وهو على صواب من الناحية الأولى، ولكنّ الأمر يتطلب وجود شخص بالغ ليدرك خطأ هذا القول. ربما كانت الطفيليات تستغل جهلي بالطريقة ذاتها. وبدا استنتاجي صحيحاً إلى حدٍّ بعيد في أنّ قدرتنا على الاستمرار في الحياة تعتمد على سلسلة من الدعائم التي تمتلك طبيعة الوهم. ولكن عند ذلك، يستطيع الطفل أن يتوقف عن الإيمان. لقد كان آباؤنا معصومين من الخطأ دون أن يتوقفوا عن الإحساس بتلك الأوهام. بمعنى آخر، ما زال هناك حقيقة يشعر الفرد إزاءها بالحب عندما تكون الأوهام قد اختفت. فهل إنّ هذا العذاب المريع والإحساس بالبرودة الشاملة والحقيقة الشاملة ليس أخطر من الألم الذي يشعر به الطفل عندما يسقط أرضاً؟

تمسكْتُ بهذا الاحتمال ثم خطرَتْ لي فكرة أخرى بعثَتْ فيَّ الشجاعة. لقد أدركْتُ أنّني عندما تأملْتُ هذا الكون الغريب وشعرْتُ أنّه اعتباطي وعبثي، إنما كنْتُ أرتكِبُ خطأً من أقدم الأخطاء التي ارتكبها البشر: خطأ الإيمان بأنّ عبارة كون تعني الكون الخارجي. فالعقل وهو أمر أُدرِكُه تماماً يُعَدُّ كوناً قائماً بذاته.

لقد ارتكبَتِ الطفيليات أول الأخطاء بعدم مهاجمتي عندما كانت قواي مُسْتَنْفَذة. وارتكبَتْ الآن خطأً أكبر من ذلك. إذ بعد أن رأَتْ أنّني أخذْتُ أستعيدُ قوايَ، شنَّتْ هجومها التالي.

أصابني الهلع. فأنا أعلم أنّني لا أملك القوة الكافية لصدّ الطفيليات فهذه النظرة نحو الهوة أفقدتني كل شجاعتي ويتعيّن عليَّ أن أعيدها رويداً رويداً.

في تلك اللحظة سيطرَتْ عليَّ تماماً ما أوحت به محاججتي حول الطفل. إذ يمكن إثارة هلع الطفل من خلال جهله، لأنّ جهله يقلل من شجاعته. وهو لا يدرك أنّه أساساً بالغ أو لعله عالِم من العلماء أو شاعر من الشعراء أو قائد من القادة.

في طرفة عين، أدركْتُ أنّني ربما كنْتُ أقوم بالأمر ذاته. وفجأة تذكّرْتُ كلمات كارل حول معركته الأولى مع الطفيليات، وكيف أنّ قواه الحية العميقة تكاتفت من أجل دحرها. فهل هناك في الواقع مستويات أعمق من القوة لم أستدْعِها بعد؟ في تلك اللحظة، تذكّرْتُ الشعور الذي راودني خلال الأشهر الماضية بأنّ هناك قوة غريبة من الحظ تقف إلى جانبنا، وهي ما دعوته سيّد الآثار، وهي قوة محسنة هدفها حفظ الحياة. هذا ما جعلني أدرك فجأة أنّ هناك حليفاً غير متوقع انضمَّ إليَّ في هذه المعركة. ولما انتابتني هذه الفكرة شعرْتُ كأنّني أسمع أبواق جيش من الجيوش قادم لنجدتي، الأمر الذي جعلني أشعر بفيض

من السعادة يغمرني. ولا أعتقدُ أنّ هناك أي تعبير عاطفي يمكن أن يناسب ذلك الإحساس بالراحة والنصر. إذ إنّ الصراخ أو الضحك أو الهتاف من شأنه أن يكون أمراً عبثياً تماماً يشبه محاولة إفراغ البحر من مياهه بواسطة كشتبان. وسرعان ما انتشر ذلك الشعور وكأنّه انفجار ذري. لقد أخافني أكثر من خوفي من الطفيليات. ومع هذا، فقد أدركْتُ أنّ هذه القوة قد حُرِّرَتْ بواسطتي أنا شخصياً. فهي ليست في الواقع قوة ثالثة موجودة خارج نطاقي وخارج نطاق الطفيليات. بل كانت أشبه بإحساس سلبي عظيم، أو بأمرٍ لا قوّة ذاتية له يتعيّن الاقتراب منها واستخدامها.

تغلبْتُ على خوفي وسيطرْتُ عليه. أطبقْتُ أسناني وتشبثْتُ بهذه القوة بواسطة إرادتي. ولدهشتي، وجدْتُ أنّ في وسعي السيطرة والتحكم فيها. وهنا حوّلْتُ إشعاع انتباهي نحو العدو، ثم جعلْتُ القوة تنحدر نحو الأسفل مما أشعرني بالنشوة بفعلها، كأنّني أرى المعاني خارج نطاق توقعاتي فَبِتُّ عاجزاً عن فهمها. بدَتْ أفكاري وكلماتي ومفاهيمي وكأنّها أوراق في مهب الإعصار. ورأت الطفيليات أنّ هذا قد جاء بعد فوات الأوان. فمن الواضح، أنّها لم تمر بهذه التجربة بتاتاً كما هو حالها معي. لقد كُنّا أشبه بأعمى ضد أعمى. أما الانفجار الهائل المدوي فقد أصاب الطفيليات هذه وكأنّه شعلة هائلة متدفقة تدمرها. إنّني لم أكن أنوي استخدام تلك القوة لأكثر من ثوانٍ معدودات. إذ من شأن الأمر أن يصبح بعيداً عن الإنصاف أو يغدو كأنّه استخدام للمدفع الرشاش ضد الأطفال. لهذا تعمّدْتُ وقف تلك القوة وشعرْتُ بالموجات الواحدة تلو الأخرى تزمجر في أعماقي، وتثير الصخب حول رأسي وكأنّها إشعاعات من الكهرباء. كنْتُ أستطيع رؤية نوع من الوهج شذري اللون ينبع من أعماق صدري. وقد استمر ذلك على نحو

موجات متّصلة وكأنّها الرعد. إلا أنّني بالرغم من ذلك لم أسعَ إلى إيقافها. فقد أدركْتُ أنّه لا يوجد سبب لاستخدامها لفترة أطول من ذلك. ولهذا أغلقْتُ عيني وسمحْتُ لجسدي أن يستوعبها بينما بقيْتُ متنبّهاً كي لا يكون في وسعها تدميري. وأخيراً بدأتِ القوة بالوهن شيئاً فشيئاً، وفرحْتُ لذلك بالرغم من الشعور بالنشوة والعرفان لها.

وأخيراً وجدت نفسي في الغرفة ثانية، إذ كنْتُ في مكان آخر لبضع ساعات. وتناهى إلى سمعي صوت حركة المرور خارج الغرفة، بينما دقّت الساعة الكهربائية معلنة التاسعة والنصف. كان سريري مشبعاً بالعرق وكأنّني قد سكبت كمية كبيرة من الماء فوقه. كما أنّ حاسة بصري أصابها الوهن إذ بدا كل شيء مزدوجاً أمام عينيّ. وبدت الأشياء برّاقة صافية. وفهمْتُ لأول مرة التأثيرات البصرية التي أحدثها المسكل في أودس هكسلي.

كما شعرْتُ أنّني في خطر آخر. إذ يتعيّن عليَّ عدم التفكير بما حدث لأنّ ذلك من شأنه أن يجعلني مرتبكاً وقانطاً إلى حدٍّ كبير. في الواقع كان الخطر أكبر مما كان عليه قبل حوالى نصف ساعة عندما حدّقْتُ إلى أسفل الهاوية. لهذا تعمدْتُ توجيه أفكاري إلى ناحية أخرى، إلى الأمور اليومية. لم أرغب في أن أوجّه إلى نفسي السؤال حول السبب الذي كان يدعوني إلى خوض المعركة مع الطفيليات في الوقت الذي كنْتُ فيه أملك مثل هذه القوة، وكذلك السؤال حول السبب الذي يجعل الكائنات البشرية تخوض المعركة مع الحياة في حين تستطيع التغلب على أي مشكلة بأسرع وقت. لم أرغب في التكهن فيما إذا كان الأمر كله أشبه بمسرحية. أسرعْتُ إلى الحمام حيث غسلْتُ وجهي واعترتني الدهشة عندما وجدْتُ صورتي في المرآة وقد بدَتْ اعتيادية ومفعمة بالنشاط. لم يكن هناك أي أثر للصراع، باستثناء أنّني بدوْتُ أقلّ بدانةً

من ذي قبل. وعندما صعدْتُ فوق الميزان الموجود في الحمام، انتابتني دهشة أخرى فقد كان وزني أخَفّ من السابق.

رنّ الهاتف التلفزيوني وكان رئيس شركة اليورانيوم على الخط. نظرْتُ إليه وكأنّه أحد القادمين من كوكب آخر. ولاحظْتُ أنّ الارتياح بادٍ في قسمات وجهه لرؤيتي. وأخبرني أنّ الصحافيون كانوا يسعون للاتصال بي منذ الساعة الثامنة. فقد توفي عشرون من زملائي خلال تلك الليلة ومنهم: جيوبرتي وكيرتس وراميزوف وشلاف وهرزوك وكلينكوف وإيمس وتومسن وديدرنك ولاسكراتوس وسبنسفيلد وسيكريد ألكستروم. لقد مات الجميع في الواقع باستثناء الأخوين كراو وفليشمان ورايش وأنا وجورج ريبوت. وبدا أنّ الأربعة الأوائل ماتوا بسبب أزمة قلبية. أما سيكريد ألكستروم فقد أقدمت على الانتحار بأن غرزت السكين في رسغها ثم في حنجرتها. كما قفز كلينكوف ولاسكراتوس من النوافذ العليا بينما دقّ تومسن عنقه وهو في نوبة صرع. أما هرزوك فقد أطلق النار على نفسه بعد أن أطلقها على أفراد أسرته كافة. أما الآخرون فتناولوا السم أو جرعات زائدة من الأدوية. هذا وتوفي شخصان آخران بفعل تلف في الدماغ.

كان روبكه في حالة متوترة إذ كان يفكر بالسمعة السيئة التي ستلحق بالشركة حيث إنّ جميع الضحايا خلال الأسابيع الماضية كانوا ضيوفه وضيوف الشركة. كما أنّ روبكه التقى معظم الضحايا. بذلْتُ ما في وسعي من أجل تهدئته، فقد أُصِبْتُ أنا الآخر بصدمة. وطلبْتُ إليه عدم السماح لأي صحفي الاتصال بي. ولما أخبرني أنّه حاول الاتصال برايش ولكنه لم يتلقَ أي رد، شعرْتُ وكأنّ الدم قد تجمد في عروقي. فقد بدأ رد الفعل يظهر الآن بقوة. وكنْتُ أُفضِّل أن أحظى بقسط من النوم ولكنني استخدمْتُ مفاتيحي الخاصة للاتصال برايش. وعندما ظهر

وجهه على الشاشة، كانت فرحتي لا توصف وكانت أول عبارة نطقها هي:

– حمداً لله. إنك بخير.

– أنا بخير ولكن كيف حالك أنت؟ تبدو ممتقعاً للغاية؟

– هل جاءت إليك ثانية أثناء الليل؟

– نعم طوال الليل. لقد أتت إلينا جميعاً.

وخلال خمس دقائق، التحقت به ولم أتوقف إلا لأخبر روبكه أنّ رايش بخير ولكن عندما رأيته، أدركْتُ أنّ كلمة بخير كانت مبالغاً فيها. فقد بدا وكأنّه رجل تماثل للشفاء تواً من مرض أقعده ستة أشهر. فقد بدا لون بَشرته أشبه بلون لحم العجل المطبوخ. كما بدا أكبر سناً.

كانت تجربة رايش تماثل تجربتي تماماً باستثناء أمر واحد. فالطفيليات لم تستخدم معه أسلوب السيطرة الشامل، بل إنّ جلّ ما قامت به هو الضغط عليه طوال الليل على نحو موجات بعثتها الواحدة تلو الأخرى. ومع انبلاج الصبح، كانت قد أفلحت في إحداث صدع في درعه الحديدي. الأمر الذي جعله يشعر بالإعياء الشديد. وعندما بدأ يدرك أنّ الهزيمة لا مفر منها، توقف الهجوم.

لم أجد صعوبة في معرفة الوقت الذي حدث فيه ذلك كله. فقد حدث ذلك في الوقت الذي سلّطْتُ أنا فيه طاقتي التفجيرية عليها. وأكد رايش هذا. إذ حدث الأمر قبل نصف ساعة من اتصالي به. أما قبل ذلك، فقد سمع الهاتف يرن ولكنه كان من الإعياء بحيث تعذّر عليه القيام بأي عمل.

أثارت الأخبار التي ذكرتها له حول الآخرين الشعور بالقنوط. إلا أنّ الأمل والشجاعة عادا إليه بعد أن أخبرته بقصتي. وبذلْتُ وأنا أوضحُ له كيف نجحَتِ الطفيليات في السيطرة عليَّ وكيف أنّني استجمعْتُ

قوتـي وتغلبْتُ عليها. وكـان ذلـك مـا هـو بحاجة إليه ، أن يدرك أنّه كان مخطئاً في التفكير أننا عاجزون تماماً إزاء الطفيليات. ومن المثير للدهشة قدرة هذه الطفيليات على الشفاء من أية كوارث عقلية أو بدنية تلحق بها وبأقصى سرعة ، وهذا أمر طبيعي طالما أنّها على اتصال مباشر بمنابع الطاقة التي تحفّز الكائنات البشرية كافة. بعد نصف ساعة ، لم يعد يبدو على رايش أنّه مريض إذ أخذ يتحدث بحماس يوازي حماسي.

أخذ الأمر مني معظم فترة الصباح كي أوضح لرايش كيف استطاعت الطفيليات أن تسيطر عليَّ ، وكيف السبيل إلى خوض القتال ضدها ، وكيفية سيطرته هو على نفسه طوعاً ودراسة مرتكزات هويته. وقد اكتشفْتُ أنّ مزاجه يختلف عن مزاجي اختلافاً أساسياً. ففي بعض النواحي كان أقوى مني بكثير ، وفي نواح أخرى كنْتُ أنا الأقوى.

عند انتصاف النهار ، قاطعنا روبكه الذي جاء لزيارتنا. في هذه الأثناء كانت كل صحف العالم تحمل عنواناً رئيساً : ليلة الانتحار ، وكانت تتكهن حول الدور الذي قمت به أنا ورايش. وأخبرني باستحالة الاقتراب من مصنع شركة اليورانيوم الذي يمتدّ على مساحة ثمانمائة دونم حيث آلاف الصحفيين ينتظرون على متن الطائرات العمودية.

وبهاجس عقلي سريع علمْتُ أنّ روبكه لم يكن من القوة بحيث أستطيع أن أخبره بالحقيقة كلها. وقد شعرْتُ بالرغبة في الاستحواذ على عقله تماماً ، إذ أدركْتُ أنّ في ميسوري القيام بذلك منذ وقت مبكر من صباح اليوم. إلا أنّ شعوراً باحترام الفرد حال دون ذلك. عِوَضَ ذلك أخبرته بقصة قريبة من الحقيقة سهلة الفهم بالنسبة إليه.

يتلخص ذلك في إخباره أنّ الجمعية المناهضة لقادش كانت على حق. فقد أقلقت حفرياتنا في قره تبه قوى عظيمة وخطيرة : وهُم العظماء القدامى أنفسهم. أما بقية القصة فكانت حقيقية بشكل أو بآخر ومفادها

أنّ هـذه المخلـوقات تتمتع بقـوة نفـسية تـستطيع معهـا أن تـصيب الـناس بالجنون. كما أخبرناه أنّ هـدفها يتمثل في تحطيم الجنس البشري أو على الأقل استعباده بحيث يستطيع الجنس الأكبر أن يحكم النظام الشمسي ثانـية. إلاّ أنّ هـذه المخلـوقات لا تملـك قـوّة كافـية حتـى الآن. وإذا مـا استطعنا إلحـاق الهـزيمة بهـا في الـوقت المناسـب، فإننا نستطيع عندئذٍ أن نطردها من كوكبنا أو نلحق الدمار الشامل بها على الأقل.

وما فعلناه هـو تحـويل الحقـيقة الخاصة بالطفيليات إلى قصة خرافية من قـصص الأطفـال يمكـن فهمها بسهولة ولا تثير الهلع. كما أنّنا أطلقنا علـى هـذه المخلـوقات اسـم سـاثوغوان وقـد اقتبـسناه مـن أسـاطير لافكرافت.

انتهى حديثنا معه عندما طرحنا عليه السؤال التالي:

– هـل يتعيّن علينا إخبار الجنس البشري بالخطر المحدق به أم أنّ مـن شـأن هـذا الأمـر أن يـولّد جـواً مـن الرعب أكبر من الخطر نفسه؟ وهـنا امـتقع لـون روبكـه وأخـذ يـسير جيـئةً وذهابـاً في الغـرفة محـاولاً السيطرة على نفسه، إذ انتابته نوبة الربو وبذلْتُ جهدي في مساعدته. أخـيراً عبّـر عـن رغبته بتقديم هـذه القصة للعالم. لذا فمن المهم جداً عـدم ظهـور أي شـك حول صدق الحكاية، فقد كان عقلانا يسيطران سيطرة تامة عليه.

❖ ❖ ❖

بيد أنّ الـساثوغوان كانـوا بعيدين عـنا قليلاً وقد اكتشفنا ذلك بعد مـرور سـاعة مـن الـوقت. فقـد أعلـن جـورج ريبوت في حـديث صـحفي لـوكالة أنـباء يونايتدبـرس عـن اتهامـه لـي ولـرايش بأنّـنا قاتلان ونصّابان وكان جزء من الحديث بهذه الصيغة:

"قبل شهر من الزمان، اتصل بي فانست جيوبرتي مساعد الأستاذ سيغموند فليشمان في جامعة برلين وأخبرني أنّ مجموعة صغيرة من العلماء ألّفت عصبة سلامة العالم. واقترح عليَّ أن أصبح عضواً فيها. وفي الوقت المناسب قدّمني إلى بقية الأعضاء وذكر أسماءهم وكذلك إلى مؤسّسَيْ العصبة ولفكانك رايش وجلبرت أوستن وهما الرجلان اللذان اكتشفا كاداث. وقد منح الاكتشاف هذين الرجلين فكرة حول إنقاذ العالم. وقرّرا أنّ العالم ينبغي عليه أن يتّحد إزاء عدو مشترك. وهذا العدو المشترك يُطْلَقُ عليه تسمية العظماء القدامى في كاداث. وقد تعيّن علينا أن نؤيد هذا الضلال مهما حدث. واعتقد رايش وأوستن أنّه لا يمكن لأحد إقناع العالم بصحة قصتهما المذهلة إلاّ مجموعة من العلماء المشهورين... وقد طلبا مني أن أخضع للتنويم المغناطيسي، أسوة بالآخرين، بيد أنّني رفَضْتُ. وأخيراً، وتحت التهديد بالقتل وافقْتُ على الخضوع لجلسة واحدة فقط. وقد ساعدَتْني قوايَ المغناطيسية على تضليلهما وإقناعهما بأنّني أصبحْتُ عبداً لهما...".

خلاصة القول أنّ ريبوت ادّعى أنّ ما حدث في تلك الليلة كان نتيجة حلف انتحاري من جانب واحد أوحَينا به أنا ورايش، وهدف الحلف يتمثل في إقناع العالم بأنّه واجَه عدواً خطيراً. وأنّني ورايش زعَمْنا أنّنا سنموت مع الآخرين وأنّ اكتشافنا للعظماء القدامى سيتمّ نشره بعد موتنا.

كان التقرير مذهلاً ولكنه بارعٌ. فقد بدا مستحيلاً من أوجهه كافة. إلاّ أنّ قضية انتحار عشرين عالماً بارزاً مستحيلة هي الأخرى. وإنّ تفسيرنا البديل لذلك مذهل ومستحيل على حدٍّ سواء.

لو لم أحقق ذلك الانتصار الشخصي الهائل على الطفيليات، لكانت هذه الفترة قد سبَّبَتِ القنوط في نفسي. فقبل أربع وعشرين ساعة

كان كل شيء يبدو تاماً. وفكرنا أنّنا سنحتاج إلى فترة شهر آخر قبل أن نصبح على استعداد للإعلان عن اكتشافنا للعالم، وسنغدو فريق عمل مدهش. أما الآن فقد انهار كل شيء تقريباً. وأصبح ريبوت حليفاً أو ضحية للطفيليات، وبذلك يكون قد قلب أفضل خططنا جنوناً. وبقدر ما يتعلق الأمر بإقناع العالم، فقد كانت الطفيليات تسبقنا في ذلك. فنحن لا نملك دليلاً على وجودها كما أنّها تولي اهتماماً كبيراً حول عدم تقديم أي دليل. وإذا قمنا بالإعلان عن قصتنا حول الساثوغوان الآن، فإنّه من شأن ريبوت أن يتحدانا في تقديم أي برهان يثبت أنّها ليست من اختراعنا. ولن يصدّقنا أحد من الناس سوى الجمعية المناهضة لقادش!

فجأة قال رايش:

– لا فائدة من الجلوس والتفكير هنا. إنّنا نعمل ببطء شديد بينما تُحقّقُ هذه المخلوقات سبَقاً هائلاً أمامنا. فالسرعة أمرٌ جوهري.

– وما الذي تقترحه؟

– علينا أن نتوصل إلى عقد لقاء بين كل من فليشمان والأخوين كراو لنرى إلى أي حد أصيبوا بالضرر. وإذا كان الإعياء قد بلغ بهم ما بلغه بي قبل أربع ساعات فإنّ ذلك يعني أنّ باستطاعة الطفيليات أن تدمّرهم الآن.

حاولنا الاتصال ببرلين هاتفياً. لكن محاولتنا كانت مستحيلة. إذ إنّ عدد المكالمات الهاتفية القادمة من ديار بكر وإليها أضر كثيراً باستقبال الإرسال الخارجي. فاتّصلنا بروبكه وأخبرناه أنّنا بحاجة إلى طائرة صاروخية حالاً بغية التوجه إلى برلين وأنّ الأمر يجب أن يتم بسرية تامة. وكان واضحاً أنّ روبكه فد أقلقه اعتراف ريبوت ولهذا أهدرنا من الوقت عشر دقائق أخرى في محاولة بعث الطاقة في عقله. بيد أنّ الأمر

أثـار خيـبة أمَلِـنا. فقـد بلـغ عقلـه مـن الإعـياء بحيث بدا الأمر كمن يحاول مـلء دلـو ماء مثقوب. بالرغم من ذلك ، فقد واصلنا سعينا معه مستغلّين شـهوته للشهرة. فأوضحنا له أنّ اسمه باعتباره رئيساً لنا سيخلّدُهُ التاريخ وأنّ مؤسسته سيُكْتَبُ لها الازدهار. بالتنسيق مع روبكه عمدنا إلى صنع خدعـة نـضلّل بواسـطتها الـصحفيين. فقمْـتُ ورايش بتسجيل مرئي يقوم فيه رايـش بالإجابة من خلال الهاتف التلفزيوني ، أما أنا فكُنْتُ أظهر في خلفية الـصورة ، ثـم يأخـذ رايـش بالـصراخ على عامل البدالة طالباً منه عـدم تمرير الاتصالات الخارجية إلينا. أعدَدْنا العدة لعرض هذا التسجيل بعـد مـرور نـصف سـاعة عـلى مغادرتـنا المكـان ، إذ لا بد وأن يجري أحدِ الصحفيين اتصالاً بالصدفة في هذه الأثناء.

نجحـت الحـيلة ، واستطعنا أن نشاهد أنفسنا على الشاشة في الطائرة لـدى وصـولنا بـرلين. وقـد قـام الـصحفي الـذي حـصل عـلى هـذا السبق بتـسجيل الاتـصال. وفي غـضون عـشرين دقـيقة بُـثَّ من على شاشة محطة تلفـزيون ديـار بكـر. ودارت تكهـنات كـثيرة حـول مـا إذا كُنّا ما نزال على قـيد الحـياة بالـرغم مـن تـصريح روبكـه للـصحافة. وقـد حظـي هـذا الخبر باهـتمام كـبير وانتـشر بـسرعة. وكـان مـن نتيجـته أنّ شخـصاً أو شخـصين اعـتقدا أنّـهمـا كانـا عـلى خطـأ عـندما تـوهمـا أنّـهمـا قـد شاهدانا في مطار برلين.

في منـزل فليـشمان ، كـان لا بد من الكشف عن هويتينا. كان المكان محاطـاً بالـصحفيين ، ولم يكـن في وسـعنا الدخـول أبـداً. غـير أنّـنا اكتشفنا هـناك جانباً مفيداً لقوانا في تحريك الأجسام بتأثير العقل. فبطريقة ما ، كُنّا نـستطيع أن نجعـل مـن أنفسنا غير مـرئيين. أي أنّـنا نستطيع أن نخترق أي انتـباه مـوجه إلـينا ونحـوّله إلى جهـة أخـرى ، وهكـذا لا يـستطيع الـناس ملاحظـة وجـودنا. وقـد نجحـنا في هـذا حتى لحظة قيامنا بقرع جرس باب

فليشمان. عندها انتبه إلينا الناس وراحوا يتدافعون نحونا. لحسن الحظ تحدث إلينا فليشمان وفي اللحظة التي عرّفناه عن أنفسنا فتح الباب. بعد لحظة واحدة أصبحنا داخل البيت بينما كان الصحفيون يدقون الباب بعنف ويصرخون من خلال فتحة الرسائل في الباب.

بدا فليشمان أفضل مما كُنّا نتوقع بالرغم من أنّه كان واضح الإعياء. في غضون بضع دقائق عرفنا أنّ قصته تماثل قصة رايش. بعد ليلة طويلة حافلة بالصراع، شعر بالارتياح أخيراً في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين من ذلك الصباح. الأمر الذي وفّر ساعتين من الزمن وهي الفارق بين برلين وديار بكر. وأنعشني هذا على نحو كبير، فقد أنقذْتُ على الأقل حياة اثنين من زملائي وعملْتُ على منع وقوع الكارثة في تلك الليلة.

كان في ميسور فليشمان أيضاً أن يخبرنا عن الأخوين كراو الموجودين حالياً في بوتسدام وتمكّن من الاتصال بهما هاتفياً خلال ذلك الصباح قبل أن يشغل المراسلون الصحفيون خطوط النداءات الخارجية. لقد كان الأخوان يدينان بسلامتهما لارتباط أحدهما بالآخر عن طريق توارد الخواطر. وكان في استطاعتهما استخدام عقليهما باعتبارهما يجسّدان قواهما في تحريك الأجسام بتأثير العقل. وكان في وسعهما أيضاً الاستعانة بشجاعتهما في معاركهما الليلية. واستنتج فليشمان أنّ الطفيليات حاولت أيضاً أن تسيطر عليهما تماماً كما فعلت معي. إلا أنّ قوتهما كانت تتجسّد في توارد الخواطر. وعرفْتُ فيما بعد أنّهما لم يواجها مشكلة انعدام الهوية كما هو شأني. فقد قاما بمجرد تشجيع أحدهما للآخر في رفض التفكير في ذلك الأمر بواسطة صرف الذهن عن الموضوع. وتعتمد تقنية السيطرة هذه اعتماداً كبيراً على وجود الفرد بمفرده.

بدت المشكلة التالية غير قابلة للحلّ تقريباً وهي: كيف يمكن الوصول إلى بوتسدام وجمع الأخوين كراو؟ أو على الأقل كيف يمكن جلبهما إلى ديار بكر حالاً؟ لقد كان المنزل مطوّقاً بالصحفيين. وكان عدد كبير من الطائرات العمودية تحلّق فوق الرؤوس. وعندما انتشرَتْ أثناء وجودنا ازداد عدد الطائرات إلى ما يقارب المائة طائرة. وكان من شأن أي محاولة للاتصال بهما في بوتسدام أن تجعل المراسلين ينطلقون إلى هناك. إذ إنّ النداءات المحلية يسهل التنصّت عليها أكثر من النداءات الخارجية، على حدّ علمنا، فإنّ اسم الأخوين كراو لم يدخل القصة. ولهذا فإنّهما ربما كانت لديهما بعض الحرية في الحركة.

كان فليشمان هو الذي عثر على الحل. وبعد ساعة من لقائه معنا، أخذ يشعر بالتحسن. فقد كانت عملية إعادة شحن عقله أبسط كثيراً مما كان عليه الأمر مع روبكه. وكانت قصة انتصاري ذات أثر في نفسه يساوي الأثر الذي أحدثته عند رايش إذ أعادت إليه الإحساس القديم بالتفاؤل والأمل. وفي هذه الأثناء قال فليشمان:

– لقد عرفنا شيئاً مهماً واحداً عن هذه الطفيليات. إنّه من الخطأ التفكير أنّها موجودة في فراغ ما. إنّ الحشد الذي يهاجمني هنا لا بد وأنّه كان الحشد ذاته الذي قام بمهاجمتكما معاً في ديار بكر، وإلا فإنّ جميع الهجمات ما كان لها أن تتوقف في الوقت ذاته.

وقد أثار هذا الأمر اهتمامي واهتمام رايش في وقت مبكر. غير أنّ فليشمان لاحظ أنّ نتائج أخرى تترتب على هذا الأمر.

– لقد كُنّا على خطأ إذا اعتقدنا أنّ العقل موجود في الفضاء المادي. فمن الناحية العقلية، فإنّ الفضاء الموجود في الكون كله محصور في نقطة واحدة. فلا يتعيّن عليهما السفر للذهاب إلى ديار بكر. فهما موجودان في كلا المكانين في آن.

قال رايش:

— وفي بوتسدام أيضاً.

وسرعان ما أدركنا النتائج كلها. فإذا كانت الطفيليات موجودة في بوتسدام في تلك اللحظة، فكذلك هي الحال معنا.

كان لا بد للأمر أن يكون واضحاً تماماً. فالكائنات البشرية تعيش في العالم المادي فقط عندما لا تكون لديها القدرة على الدخول إلى عقولها. والإنسان الذي يستطيع أن يخلد إلى نفسه وهو في رحلة طويلة في القطار، إنّما يكون قد هرب من الزمان والمكان. في حين يتعيّن على الإنسان الذي يحدّق من خلال النافذة ويتثاءب بضجر أن يعيش كل لحظة وكل ميل. وتكمن قوتنا في القتال ضد طفيليات العقل في تلك القدرة المتمثلة في الغوص داخل أنفسنا ومحاربتها داخل أوطانها. فالإنسان الذي يسبح على السطح إنما يصبح فريسة سهلة للقرش، أما الغواص الذي يسبح تحت السطح وهو مُقَنَّع يحمل الرمح بيده، إنما يغدو على قدم المساواة مع القرش. ذلك أنّه بقدر ما نستطيع الغوص داخل عقولنا، يصبح في ميسورنا الدخول إلى ملكوت اللازمان واللامكان ذاتهما شأننا شأن الطفيليات. إنّ الأخوين كراو يستطيعان الاتصال أحدهما بالآخر بواسطة توارد الخواطر، فلماذا لا نستطيع أن نجري نحن معهما الاتصال أيضاً؟

ثمة إجابة بسيطة: إنّنا لا نملك أي فكرة حول القيام بذلك. وإذ كُنّا نعلم أنّ ذلك يتضمن وجود ملكة خاصة شأن تحريك الأجسام بتأثير العقل، فإنّ ذلك لا يكفي، لذا أطفأنا النور وبدأنا التجربة بعد أن جلسنا حول المنضدة. وكان منظرنا يوحي لكل من يدخل الغرفة أنّنا في جلسة لتحضير الأرواح حيث كانت رؤوسنا محنية وأيدينا متلامسة.

قمت بالمحاولة أولاً. فبعد أن جلسنا أسرعْتُ بإرسال إشارة عقلية لهما. هل أنتما جاهزان؟ لكنّني لم أتلَقَّ أي إجابة. وبعد برهة انتابتني فجأة صدمة الإحساس بالبهجة حيث شعرت بصوت رايش داخل أعماقي وهو يسأل:

– هل أنت مستعد؟

فأجبته:

– نعم. هل يمكنك سماعي؟

فجاءني صوته ثانية:

– ليس بوضوح تام.

واستغرق الأمر عشر دقائق تقريباً من فليشمان قبل أن يتمكّن من الدخول في اللعبة التي بدأناها.

في هذه الأثناء، كنْتُ أتّصل برايش بوضوح. وكان السبب في ذلك يعود إلى أنّنا أسوة بالأخوين كراو استطعنا أن نلتقط موجات التفكير عند فليشمان وكانت ذات صدى يشبه الصراخ في مكان بعيد.

عرفنا الآن أنّه أصبح في ميسورنا الاتصال بعضنا ببعض ولكن هل في وسعنا الاتصال بالأخوين كراو؟

مضت ساعة طويلة مرهقة وشعرْتُ أنّني أشبه بالتائه فوق أحد الجبال يطلب النجدة. فواصلْتُ إرسال الإشارات الذهنية إلى لويس وهنريش كراو، إلا أنّ هذه الإشارات كانت تريد كلماتٍ وكأنّني أنادي اسميهما بصوت عال. لقد كان المطلوب أن أوجّه الحافز المحض للاتصال بهما دون الحاجة للكلمات.

وفجأة قال رايش:

– أعتقدُ أنّني استلمْتُ شيئاً ما. فبذلنا جميعاً جهداً في التركيز وحاولنا إرسال إجابة إليه فحواها: استلمنا رسالتك. بعد قليل

وبوضوح شديد، بدا أنّ هناك صوتاً يصرخ في آذاننا، ما جعلنا نقفز دهشين.

– تلقيْتُ إشارتكم. ماذا تريدون؟

فنظر كل مِنّا إلى صاحبه بدهشة وانتصار ثم أغمضنا عيوننا ثانية وضاعفنا من شدة تركيزنا. فقال الصوت الواضح الجهور:

– كل واحد على حدة. هل لك أن تبدأ يا رايش؟ يظهر أنك أوضح الجميع.

وبدا كأنّ الاتصال الواضح المنفرد من بوتسدام إلى برلين قد جعل الخط واضحاً هناك. إذ شعرنا أنّ ذهن رايش كان يضخ الرسائل كأنّها دفقات الطاقة. وكان يتعيّن عليه أن يكرر الرسالة عدة مرات:

– هل تستطيعان المجيء إلى ديار بكر؟

ثم وجدنا أنفسنا ونحن نصغي إليه نقوم بجهد معيّن تعاطفاً معه. في البداية تضايق الأخوان كراو وقالا:

– كل واحد على حدة.

وبدا وكأنّنا انضممنا إلى رايش وأخذنا نستخدم مكبّراتنا الذهنية لتجسيم إشاراته ومن ثم إرسالها ثانية. وهنا سمعنا صوت الأخوين كراو:

– ذلك أفضل. إننا نسمعكم بوضوح الآن.

منذ تلك اللحظة لم نعد نجد صعوبة. بل أصبح في ميسورنا تقديم خلاصة لحالتنا وكأنّنا نتحدث عبر الهاتف. خلال ذلك الوقت، لم نكن موجودين في الغرفة. فقد كُنّا موغلين في أعماقنا وكأنّنا أشبه بالمُصَلّين. وأدركْتُ فجأة أنّ السبب في سوء تجسيم الصوت هو أنّني لم أكن عميقاً في ذهني، بل كُنْتُ قريباً جداً من السطح. وكانت المشكلة بسيطة. فإذا غُصْتُ عميقاً داخل ذهني، أصبحْتُ ميالاً للنوم، ولما كانت اللغة

والمعنى ينتميان إلى ملكوت الجسد، فإنّ صعوبة نقلهما إلى أعماق الذهن تتساوى وصعوبة التفكير المنطقي في الحلم. إنّني أشير إلى هذا لأنّني في هذه اللحظة بالذات بدأْتُ أعي بوضوح مدى جهلنا. إنّ هذه المناطق المظلمة من العقل تسكنها بخاصة الذكريات والأحلام وتنسلُّ بسرعة كأنّها الأسماك الضخمة. ومن الصعوبة جداً الاحتفاظ بأي إحساس بالهدف في ذلك العمق والتمييز بين الواقع والحلم. ولكن بالرغم من ذلك، ومن أجل الحصول على توارد خواطر فعّال، يتعيّن على المرء القيام بالإرسال من أعمق أعماقه.

على أي حال، فالأمر ليس ذا أهمية في هذه المناسبة. إذ قمت مع رايش وفليشمان بتعزيز قدراتنا. ولا يستطيع المرء في مثل هذه التجربة إلا أن يدرك المعنى التام لعبارة *إنّ كل واحد منا جزء من الآخرين*.

عندما فرغنا من الحديث مع الأخوين كراو غمرنا إحساس غريب بالسعادة والانتعاش وكأنّنا استيقظنا من نوم هانئ عميق. وعاد فليشمان ثانية إلى هيئته الطبيعية، أما زوجته التي دخلَتْ علينا وهي تجاهد في الوقت ذاته إلى كبت عدائها لي ولرايش، فقد نظرَتْ إليه بدهشة وراجعَتْ أفكارها بشأننا. ومن المهم أن نلاحظ عَرَضاً رقة فليشمان الواضحة تجاهها – إذ كانت تصغره بثلاثين عاماً ولم تتزوجه إلا منذ عام واحد – أوضحَتْ ذلك لرايش ولي بحيث إنّنا نظرنا إليها نظرة إعزاز، لقد دخلَتْ إلى دائرة تخاطرنا وأصبحَتْ بمعنى ما زوجة.

في الساعة الثالثة صباحاً كان التعب قد أخذ من المراسلين كل مأخذ وكانوا ينتظروننا في الطائرات العمودية. كانت أعدادهم أكبر من أن تسمح به الترتيبات الأمنية الجوية في المدينة. فالجموع المحتشدة خارج المدخل الرئيس كانت في ازدياد، وقد غصّ الشارع بالسيارات المكتظة بالمراسلين النائمين. توجهنا إلى الغرفة العليا ووضعنا سُلّماً قرب النافذة.

في الساعة الثالثة والدقيقة العشرين سمعنا صوت طائرة عمودية فوق المنزل، فأسرعنا بفتح النافذة، وبقليل من الجهد أنزلنا السلم المصنوع من الحبال داخل الغرفة. تسلّقناهُ بسرعة قبل أن يتمكّن المراسلون من اكتشاف حقيقة ما يجري. قام الأخوان كراو بسحبنا إلى الأعلى ثم سحب السلم وانطلقت الطائرة بعد ذلك بأقصى سرعتها باتّجاه المطار. كانت العملية ناجحة جداً، فالصحفيون الموجودون في الشارع كانوا واثقين من أنّنا لا نستطيع إجراء أي اتصال بطائرة عمودية طالما يحملون معهم أجهزة تنصّت داخل سياراتهم، وهذه طريقة قانونية بلا شك. وبهذا، فإنّ رؤية أي واحد منهم الطائرة ستجعله يظن أنّها لأحد الصحفيين أو أنّها دورية من مجلس الأمن الجوي. وفي كل الأحوال، وصلنا المطار دون أن تكون هناك أية دلائل تشير إلى وجود من يطاردنا. وكان طيارنا قد اتصل مسبقاً بقائد الصاروخ. في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين كُنّا ننطلق نحو باريس. إذ قرّرنا أنّ مهمتنا التالية ستكون مع جورج ريبوت.

❖ ❖ ❖

وصلنا مطار لي بورجيه بعد الفجر بقليل. وكان في ميسورنا الهبوط في مطار آخر فوق الشانزليزيه، بيد أنّ الأمر كان يتطلّب الحصول على ترخيص بذلك وهو أمر من شأنه أن ينبِّه الصحفيين. ولهذا، فإنّنا بدلاً من ذلك، استأجرنا طائرة عمودية واتّجهنا نحو مركز باريس حيث وصلنا في غضون عشرين دقيقة.

أصبح عددنا الآن خمسة. وكان من الصعب على أي فرد التعرّف إلينا. ولما كانت أذهاننا تعمل متّصلة بعضها مع بعض، فقد كُنّا نستطيع بناء نوع من الجدار لصرف انتباه أي فرد قد ينظر إلينا. كان في وسع الناس رؤيتنا حتماً إلا أنّهم لم يكونوا قادرين على النظر إلينا حيث إنّ

ملكة الإدراك أو الفهم تلي ملكة الإحساس، تماماً مثلما تستطيع الرؤية إذا ما قرأتَ شيئاً وذهنُك في مكان آخر. إنّ معظم الأشياء التي ننظر إليها لا يتم تسجيلها تسجيلاً دقيقاً، لأنّها لا تستحق الملاحظة. وكل ما يتعيّن علينا هو منع انتباه أي شخص من التقرب إلينا، وهذا أسلوب يشبه تماماً وضع العصا في فم الكلب لمنعه من العض. بهذا المعنى، كُنّا لامرئيين تقريباً أثناء سيرنا في شوارع باريس.

وكان أملنا يكمن في المفاجأة. فإذا كانت الطفيليات تراقبنا، فإنّها ستعمل عندئذٍ على الحؤول دون اتصالنا بجورج ريبوت على تحذيره قبل وصولنا بساعات. من جهة أخرى، فقد لحقت الهزيمة المُرَّةُ بها في الليلة الفائتة ومن شأنها أن تكون في غفلة من أمرها. ذلك هو أملنا.

كل ما علينا القيام به هو الحصول على إحدى الصحف لمعرفة مكانه، كونه أصبح من الشهرة بما لم يكن يحلم به من قبل. عَلِمْنا من صحيفة باري سوار أنّه في عيادة تقع في شارع هاوسمان فقد كان يعاني من انهيار عصبي. وقد عَرَفْنا أسباب ذلك.

أصبح من الضروري الآن استخدام القوة بالرغم من أنّنا كُنّا نعارض الفكرة معارضة شديدة. فالعيادة كانت أصغر من أن تستوعب دخولنا جميعاً دون أن يلاحظنا أحد. غير أنّ التوقيت – الخامسة صباحاً – منحنا الضمانة بأنّ عدداً قليلاً من الأشخاص سيكون في المكان. وعندما نظر إلينا الحارس النعسان نظرة امتعاض من مكتبه، أطبقَتْ أذهاننا الخمسة عليه بقوة أكبر مما لو أطبقَتْ أيدينا عليه. ففغر فاه وهو يحدِّق إلينا دون أن يفهم ما حدث. سأله فليشمان بهدوء:

– هل تعرف في أي غرفة يوجد ريبوت؟

فأومأ برأسه وهو تحت تأثير الدوار مما جعلنا نرخي من قبضتنا عليه.

فأضاف فليشمان:

– خذنا إليه.

ضغط الرجل على زر باب آلي وقادنا إلى الداخل. هرعت نحونا ممرضة من إحدى الردهات وهي تقول:

– إلى أين تعتقدون أنكم ذاهبون؟

غير أنّها بعد برهة كانت تقودنا بدورها داخل الممر. وسألناها فيما إذا كان هناك أي من الصحفيين فقالت:

– إنّ السيد ريبوت سيعقد مؤتمراً صحفياً في التاسعة. وأعتقدُ أنّه من الأفضل لو انتظرتم حتى ذلك الحين. في طريقنا مررنا بممرضتين أخريين وبدا أنّهما أدركتا أنّ زيارتنا لا غبار عليها. كانت غرفة ريبوت في أعلى المبنى وهي عبارة عن غرفة خاصة. وكانت الأبواب المؤدية إلى الجناح الذي فيه الغرفة لا تفتح إلا بواسطة شيفرة خاصة. لحسن الحظ كان الحارس يعرف الشيفرة.

قال فليشمان بهدوء:

– سنطلب منكِ أيتها السيدة انتظارنا في الغرفة الخارجية وعدم محاولة الهرب. إنّنا لن نُلْحِقَ أي ضرر بالمريض.

ولم يكن هذا القول أكيداً بل قصد منه تهدئتها.

أسدل رايش، الستائر فاستيقظ ريبوت بفعل الصوت الصادر عنها. كان غير حليق وبدا عليه المرض الشديد. وعندما رآنا حدّق إلينا لحظة ثم قال:

– أوه أيها السادة فكّرْتُ أنّ في وسعكم زيارتي.

حدّقْتُ إلى ذهنه وراعني ما رأيْت. كان أشبه بمدينة احتلّها جنود بعد أن قضوا على جميع سكانها. لم تكن هناك أية طفيليات موجودة، حيث كان وجودها غير ضروري. لقد استسلم ريبوت للطفيليات برعب. إذ توغلت في دماغه وسيطرت على جميع دوائر عاداته. وعندما

جرى القضاء عليها جميعاً أصبح يائساً تقريباً، وأصبح القيام بأي فعل يتطلب منه مجهوداً هائلاً من خلال الإرادة الحرّة. إنّنا نمارس حياتنا من خلال دوائر العادات: التنفس والأكل والهضم والقراءة والاستجابة للآخرين، وفي بعض الحالات – كحال الممثل مثلاً – فإنّ دوائر العادات هي في الواقع ناتجة عن جهد يبذله طيلة حياته، وكلما كان الممثل عظيماً، ازداد اعتماده على دوائر العادة، بحيث لم يبقَ طوع إرادته سوى أفضل ما لديه من فنون. إنّ تدمير دوائر العادة عند الإنسان أمام أنظاره أقسى عليه من قتل زوجته وأطفاله، ويعني ذلك تجريده من كل شيء وجعل حياته مستحيلة. هذا ما فعلته الطفيليات ثم قامت بسرعة بإحلال دوائر جديدة للعادة محل القديمة. وقد استُعِيْدَت بعض الدوائر كالتنفس والتكلم والسلوك فهي ضرورية لإقناع الناس بأنّ الشخص هو نفسه وأنّه في كامل قواه العقلية. غير أنّ بعض العادات أُزيلَتْ تماماً، شأن عادة التفكير بعمق واسْتُبْدِلَت بسلسلة جديدة من الاستجابات. لقد كُنّا نحن الأعداء، وأثرْنا فيه كراهية وامتعاضاً بلا حدود. بمعنى آخر، لقد شعر بهذا بكامل حريته، إلا أنّه ما لم يقرر اختيار الشعور بهذا، فإنّ من شأن نصف دوائر العادة أن تؤثّر فيه ثانية. وبكلمات أخرى، فإنّه في استسلامه للطفيليات، ظلَّ رجلاً حراً من حيث إنّه على قيد الحياة وفي وسعه اختيار أفعاله. إلا أنّ هذا الوعي كان مرسوماً وفق شروط الطفيليات ذاتها. ولم يكن هناك سوى هذا الوعي، أو اللاوعي إطلاقاً. وهكذا فقد أصبح عبداً تماماً كرجل سُدِّدَتْ فوهة مسدس إلى رأسه.

ولهذا، فإنّنا عندما وقفنا حول سريره لم ننظر إليه نظرة انتقام. بل شعرنا إزاءه بالشفقة والرعب، كأنّنا ننظر إلى جثة ممزقة الأوصال.

لم نتحدث معه. بل قام أربعة منا بإبقائه في مكانه مستخدمين قوانا الذهنية، في حين تفحّص فليشمان بسرعة محتويات دماغه. وكان من

الصعب جداً تقرير ما إذا كان بالإمكان إصلاحه، إذ بدا أنّ كل شيء يعتمد على قوته الشخصية وشجاعته. وقد بدا لنا أكيداً أنّه سيكشف عن قوة إرادة مذهلة، أقوى مما كشفه عند مقاومته الطفيليات قبل أن تتم تصفيته.

لم يكن الوقت مناسباً للمداولات الطويلة. إذ أَقْنَعَتْهُ قوتنا تماماً أنّ هناك الكثير مما يخشاه منا كما أنّ هناك الكثير مما يخشاه من الطفيليات. لقد دخل كل واحد منّا تلافيف دماغه التي تتحكم في عمله وقام باتّصالاته. ويصعب وصف هذا الأمر بالنسبة إلى من لا قدرة لهم على التخاطر.

غير أنّ الاتصالات بأدمغة أخرى تعتمد على معرفة طول موجاتها. وبعد هذا يصبح ممكناً إيجاد درجة من التحكم بعيدة المدى. وتحدّث إليه فليشمان بلطف وأخبره أنّنا لا نزال أصدقاء قبل كل شيء وأنّنا أدركنا أنّ غسل الدماغ الذي تعرّض له لم يكن خطأه. وإذا ما وثق فينا فإنّ من شأننا أن نحرره من الطفيليات.

غادرناه جميعاً ورافقنا الحارس والممرضة إلى الأسفل وبعد أن شكرنا الحارس أعطيناه مكافأة، وبعد أقل من نصف ساعة كُنّا قد قطعنا نصف المسافة نحو ديار بكر.

مَكّنَنَا اتصالنا الذهني مع ريبوت من اكتشاف ما حدث أثناء مغادرتنا. إذ لم يفهم الحارس والممرضة كيف اضطررناهما إلى مرافقتنا إلى ريبوت، ولم يستطيعا أن يصدقا أنّ ما حدث لم يكن خارجاً عن إرادتهما، لهذا لم يصدر عنهما أي احتجاج. إذ عادت الممرضة إلى ريبوت ووجدته مستيقظاً ولم يبدُ عليه أي أذى فقررت عدم الإفصاح بشيء.

وعندما هبطنا في ديار بكر قال رايش:

– الساعة الآن السابعة، أي قبل ساعتين من موعد عقده المؤتمر الصحفي. أرجو ألا...

وهنا قاطعتْ حديثه صرخة أطلقها فليشمان الذي وافق على الاحتفاظ بالاتصال تخاطرياً مع ريبوت وقال:

– لقد اكتشفوا ما حدث... إنّهم يهاجمونه بكل قوة.

فسألت بدوري:

– ما الذي نستطيع أن نفعله؟

حاولْتُ أن أركّز جهدي وأستخدم معرفتي بدماغ ريبوت لكي أعيد الاتصال به، لكن دون جدوى. فسألت فليشمان:

– أما زلت على اتصال به؟

فهزّ رأسه. وحاول كل واحد منا بدوره. ولكن بلا فائدة.

بعد ساعة من الوقت اكتشفنا السبب. فقد جاء في نشرة أخبار تلفزيونية أنّ ريبوت أقدم على الانتحار بأن قَفَزَ من شباك نافذته.

هل كانت تلك هزيمة أم لا؟ إنّنا لا نستطيع أن نقرر ذلك. فقد حال انتحار ريبوت دون ذكر الحقيقة في المؤتمر الصحفي. كما أنّه حال دون إلحاق المزيد من الضرر بنا، ومن ناحية أخرى، فلو اكْتُشِفَت زيارتنا له في المستشفى، فإنّ الاتهام سيُوَجَّهُ إلينا بأنّنا قمنا بقتله، غير أنّ أحداً لم يكتشف الأمر. ولعل الممرضة استمرت في اعتقادها أنّنا مجرد صحفيين فضوليين. فقد رأت ريبوت بعد مغادرتنا إيّاه وكان على ما يرام. لهذا فهي لم تقل شيئاً.

❖ ❖ ❖

في الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح دَعَوْنا الصحفيين إلى غرفة الاجتماعات التي أُعِدَّت لنا لهذا الغرض. ووقف فليشمان ورايش والأخوان كراو على جانبي الباب لتفحّص كل من يدخل. وكان حذرنا هذا في محله. فقد كان كيلبرايد آخر رجل يدخل إلى الغرفة وهو صحفي

أصلع من جريدة واشنطن إكزامنر. وأومأ رايش برأسه إلى أحد الحراس حيث اقترب هذا منه وسأله إن كان يمانع في تفتيشه. سرعان ما احتجّ كيلبرايد وأخذ يصيح بأنّ تلك إهانة. فجأة هرع إليَّ وهو يبحث عن شيء في داخل جيبه. فركّزت طاقتي الذهنية فيه ومنعته من الوصول إليَّ. هنا قذف ثلاثة من الحرس أنفسهم عليه وسحبوه إلى الخارج. وهناك وجدوا مسدساً من نوع والتر في جيبه مع ست رصاصات، ورصاصة أخرى في المخزن. واحتجّ كيلبرايد قائلاً إنّه يحمل المسدس دوماً لحماية نفسه، غير أنّ الجميع شاهد محاولة إطلاق النار عليَّ. وبعد أن أخضعنا ذهنه للتفتيش وجدنا أنّ الطفيليات غزته أثناء تناوله الشراب في اليوم السابق وقد عُرِفَ عنه إدمانه على الشراب.

وَلَّدَ هذا الحادث الطارئ جواً من التوتر. فقد كان هناك حوالى خمسة آلاف صحفي وهو العدد الذي تستوعبه قاعة الاجتماعات. أما الباقون فقد أخذوا يراقبون من الخارج بواسطة شاشات التلفزيون. انضمَّ إليَّ رايش وفليشمان والأخوين كراو على المنصة، بهدف مراقبة القاعة والتأكد من عدم وجود قَتَلَة محترفين. ثم أخذْتُ أقرأ البيان التالي:

"إنّ هدفنا اليوم هو تحذير سكان الأرض من خطر عظيم لم يسبق لهم مواجهته. إنّ هذا الكوكب تراقبه حالياً أعداد لا تحصى من المخابرات الأجنبية التي تهدف إلى تدمير الجنس البشري أو استعباده.

فقبل بضعة أشهر، وأثناء قيامنا بأول التنقيبات الآثارية في الجبل الأسود في قره تبه، أدركنا مع الأستاذ رايش أنّنا محاصرون بقوى تثير العقل وأنّ هذه القوى تقاوم محاولاتنا المبذولة في الكشف عن سِرِّ الهضبة. واعتقدنا في ذلك الوقت أنّ تلك القوة أوجدها السكان الذين ماتوا منذ زمن بعيد لحماية قبورهم. وفكّرنا مع رايش أنّ مثل هذه الأشياء ممكنة، وفَسَّرْنا على سبيل المثال الصعوبات التي رافقت المنقبين

الأوائل لقبر توت عنخ آمون وكُنّا على استعداد للمجازفة حتى مع عودة تلك اللعنة وواصلنا تنقيباتنا.

بيد أنّنا أصبحنا في الأسابيع الأخيرة على يقين من أنّنا نواجه خطراً أكبر بكثير من مجرد اللعنة. ونحن على ثقة من أنّنا أقلقنا نوم القوى التي هيمنت على الأرض والمصممة على الهيمنة عليها ثانية. إنّ هذه القوى أشد خطراً من أي قوة أخرى عرفها الجنس البشري، لأنّها قوى غير مرئية تمتلك قدرة على الهجوم على عقل الإنسان مباشرة. كما أنّها قادرة على تحطيم السلامة العقلية لكل من تهاجمه، بل وتسبّب الانتحار. وهي قادرة أيضاً على استعباد بعض الأفراد واستخدامهم لأغراضها الخاصة.

في الوقت ذاته، فإنّنا نعتقد بعدم وجود أي سبب يدعو الجنس البشري إلى الفزع. فأعداد هذه القوى قليل جداً مقارنة بعدد سكانها. فضلاً عن ذلك فقد بتنا متنبّهين للأمر. وربما سيكون الصراع شاقاً، غير أنّني أعتقد أنّ جميع الفرص متوافرة لدينا لتحقيق النصر عليها. وسأقوم الآن بتلخيص ما نجحنا في معرفته عن طفيليات العقل هذه".

تحدثْتُ لمدة نصف ساعة شرحْتُ فيها باختصار معظم الأحداث التي سجَّلْتُها. فذكرْتُ كيف لقي زملاؤنا مصرعهم وكيف جرَتْ خيانة ريبوت لنا. وأوضحْتُ لهم كيف يمكن للمرء تدمير هذه الطفيليات حالاً عند اكتشاف وجودها... وبذلْتُ جهداً في التأكيد على أنّ هذه القوى غير فعالة بعد، بل هي غريزية وعمياء. إذ من المهم عدم إثارة الهلع. إنّ معظم أبناء الجنس البشري لا يستطيعون القيام بشيء حيال الطفيليات لذا يُفَضَّلُ جعلها تعتقِدُ أنّها على وشك تحقيق النصر الشامل. وقضيْتُ ربع الساعة الأخير من حديثي في التأكيد على الجانب المشرق للأمور: كيف أنّ تدمير هذه الطفيليات أصبح مرهوناً بالوقت بعد أن أصبح الإنسان واعياً بوجودها.

اختتمنا الاجتماع بأن طلبنا من الحضور توجيه ما لديهم من استفسارات غير أنّ معظم الصحفيين كانوا من اللهفة للوصول إلى أقرب جهاز إبراق موجود هناك بحيث إنّ الوقت المخصص للاستفسارات كان قصيراً. وبعد مرور ساعتين اثنتين، كانت أنباء الاجتماع تتصدّر صفحات الصحف في أنحاء العالم.

❖ ❖ ❖

الحقيقة أنّني شعرت بالضجر بسبب هذا كله. فقد أصبحنا نحن الخمسة أشبه بالمستكشفين الذين يستعدّون لاكتشاف عالَم جديد مثير ولهذا، كانت عمليّة قتل الوقت مع الصحفيين مُمِلّةً. غير أنّنا قرّرنا أنّ ذلك كان أفضل سبيل لتأمين سلامتنا. فإذا مُتْنا الآن فالعالم كله سينتبه لنا. وكالمعتاد، فإنّ أفضل خطة للطفيليات هي نزع الثقة عنا عبر السماح لكل شيء بالسير سيراً طبيعياً لمدة شهر تقريباً – أو ربما سنة – حتى يقرر كل فرد مِنّا أنّ الأمر كله لا يعدو كونه أكذوبة، إذ سيتطلّب مِنّا وقتاً طويلاً جداً كي ندرك أنّ الطفيليات تستطيع المراوغة ضدنا في أي مجال.

وينبغي أن يكون السبب واضحاً. فنحن لم نرغب في قضاء الوقت مع الطفيليات. تخيَّلْ أنّ مُحِبّاً للكتب تسلّم تواً طرداً يحوي كتاباً لطالما رغب في الحصول عليه وتخيَّلْ أيضاً أنّه قبل أن يشرع بفتح الطرد قاطعه شخص مثير للضجر يصر على الحديث معه عدة ساعات. لعل الطفيليات كانت أعظم مصدر للخطر يواجهه الجنس البشري، إلا أنّها بالنسبة إلينا ثقيلة الظل جداً.

لقد اعتاد البشر على حدودهم الذهنية الضيقة تماماً كما اعتاد الناس على متاعب السفر الهائلة قبل ثلاثة قرون. ترى كيف كان شعور موزارت ليكون لو أنّ أحداً أخبره أنّ الرحلة التي قام بها واستغرقته أسبوعاً كاملاً مرهقاً ستكلّف إنسان القرن الحادي والعشرين ربع ساعة

فقط. إنّنا جميعاً أشبه بموزارت قُذِف بنا إلى القرن الحادي والعشرين. إنّ هذه الرحلات الذهنية التي وجدناها يوماً ما مرهقة ومؤلمة يمكن قطعها بعدة دقائق. وأخيراً أدركنا بوضوح ملاحظة تيليارد دي شاردان من أنّ الرجل يقف على أعتاب مرحلة جديدة من تطوره لأنّنا الآن نعيش هذه المرحلة الجديدة. فالدماغ أشبه بالأرض الخالية ما علينا سوى احتلالها وطرد سكانها الحاليين. بالرغم من هذه الإشكالات ، فقد أحسسنا بالبهجة تغمرنا خلال هذه الأيام.

أمامنا الآن مهمتان رئيستان. الأولى تتمثّل بإيجاد تلاميذ جدد آخرين لمساعدتنا في المعركة. أما الثانية فاستكشاف مدى قدرتنا على تحويل المعركة إلى هجوم شامل. وفي الوقت الحاضر ، لا نستطيع الوصول إلى هذه المناطق الدنيا من الذهن التي تسكنها الطفيليات. وقد علّمتني معركتي الليلية ضدها أنّني أستطيع أن أستجمع قوة هائلة أحصل عليها من مصدر عميق جداً. هل نستطيع يا ترى الاقتراب بما فيه الكفاية من ذلك المصدر كي ننقل المعركة إلى أرض العدو؟

ولم أعطِ ردود أفعال الصحافة العالمية إلا اهتماماً قليلاً. وليس في هذا ما يثير الدهشة إذ إنّ معظم هذه الردود كانت معادية أو مشكّكة. فقد ذكرت صحيفة ذا وورلد فري بريس الصادرة في فيينا صراحة أنّه ينبغي إلقاء القبض علينا حتى ينجلي أمر التحقيق في حوادث الانتحار. أما صحيفة الديلي إكسبريس اللندنية ، فقد اقترحَتْ أن توكَلَ إلينا مسؤولية قسم الحرب في الأمم المتحدة ، وأن تُعْطَى لنا صلاحيات واسعة في القتال ضد الطفيليات بأيّ وسيلة نراها فعالة.

بيد أنّ أمراً واحداً أثار قلقنا وهو مقال منشور في صحيفة برلينر تاكبلات للكاتب فيليكس هازارد وكما توقعنا ، فإنّه لم يسخر من القضية برمّتها ويؤيد اعتراف ريبوت ، بل بدا وكأنّه قد سلّم بالأمر وأنّ

العالم يواجه خطر هذا العدو الجديد. ولكن إذا كان في ميسور هذا العدو الجديد أن يسيطر على أذهان الأفراد، كما قال هازارد، فما هي ضمانة استعباد الطفيليات لنا؟ لقد أعلنّا البيان الخاص بوجودها ولكنّه لم يُثْبتْ أي شيء. لقد تعيّن علينا الإعلان عن ذلك بدافع الحفاظ على أنفسنا. فبعد بيان ريبوت، أصبح من المحتمل أن نجد أنفسنا في مواجهة إجراءات قانونية. فلهجة المقال لم تكن جادة تماماً. إذ بدا هازارد يسخر من القضية كلّها بأسلوب هجائي مخفّف. بالرغم من ذلك ظلّ أثرها مثيراً للقلق. ولم يكن لدينا أدنى شك في أنّ هازارد كان عميلاً للعدو.

كانت هناك قضية أخرى تحتاج إلى التفكير بسرعة. إذ لم يُسْمَح للصحفيين حتى الآن بالدخول إلى موقع العمل قرب الجبل الأسود. إلا أنّه لم تكن لديهم أي صعوبة في التحدث مع مختلف العمال والجنود الموجودين في الموقع. وإذا حدث مثل هذا الأمر، فلا بد من وضع حد له. لهذا اقترحْتُ ورايش مرافقة مجموعة من الصحفيين إلى الموقع في ذلك المساء، كما وافقنا على حضور مصوِّري التلفزيون، وأصدرنا تعليماتنا بوجوب توفير أقصى درجات الأمن قبل وصولنا وعدم السماح للصحفيين بالاقتراب من موقع العمل.

في الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم، كان في انتظارنا خمسون صحفياً في طائرتي نقل عموديتين. واستغرقت الرحلة إلى قره تبه حوالى الساعة. لدى وصولنا، كان موقع العمل يشعّ بالأنوار، فقد كانت الكاميرات التلفزيونية المحمولة قد نُصِبَتْ قبل عشر دقائق من وصولنا.

بدت خطتنا مضمونة. فسوف نرافق وفداً من الصحفيين إلى أعمق جزء من كتلة آبوذ التي أصبحت الآن بارزة للعيان. كما سنستخدم قوانا الذهنية الخارقة للإيحاء بِجَوٍّ من الرهبة والتوتر. بعد ذلك سنختار أكثر أعضاء المجموعة الصحفية توتراً وحساسية لإثارة أقصى درجات الرعب

لديهم. وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى عدم الإفصاح عن قوانا الذهنية الخارقة في المقابلة السابقة. فقد أدركنا إمكانية استخدامها في الواقع لتأخير الطفيليات.

اعتقدنا أنّنا كُنّا بلا طفيليات. ولكن قبل هبوطنا تماماً لاحظْتُ أنّ الصحفيين الموجودين في الطائرة الأخرى بدوا كأنّهم يغنون وهو أمر غريب. وفكّرنا أنّهم ربما كانوا قد أفرطوا في تناول الشراب. كنْتُ في الطائرة الأخرى مع فليشمان ورايش والأخوان كراو. وحالما هبطنا، أحسَسْنا بوجود الطفيليات وأدركنا ما حدث. لقد قامت الطفيليات بتغيير أسلوبها المعتاد. فبدلاً من امتصاص طاقة ضحاياها، منحتهم هذه الطاقة. لقد أفرط عدد كبير من هؤلاء الصحفيين في تناول الشراب. وشأن معظم الصحفيين لم يكُن هؤلاء أذكياء. وبفضل عامل العادة، فإنّ موهبة الطاقة الذهنية كان لها من الأثر ما يوازي أثر تناول الشراب. وما إن انضم الصحفيون الموجودون في طائرتنا إلى زملائهم حتى أصابتهم العدوى. فقد سَمِعْتُ صوت مُعلّق التلفزيون يقول:

— حسناً. إنّ هؤلاء الفتية لا يبدون قلقين من وجود الطفيليات بل ينظرون إلى المسألة برُمَّتها وكأنّها نكتة.

أخبرْتُ منتج البرنامج أنّ هناك بعض التأخير، وأشرْتُ إلى البقية للتوجه نحو كوخ رئيس العمال الكائن في أقصى جهة من منطقة التنقيبات. وبعد أن أقفلنا الباب ركّزنا جهدنا لمعرفة ما يمكن القيام به، إذ سرعان ما تمّ الاتصال بيننا وأصبح في وسعنا الولوج في أدمغة بعض الصحفيين. في البداية، تبيّن أنّه من الصعب معرفة حقيقة ما يجري. إذ لم يسبق لنا مواجهة مثل هذا الأمر من قبل. لحسن الحظ عثرنا على أحد الصحفيين وكان طول موجته يماثل طول موجة ريبوت، الأمر الذي ساعدنا على القيام بإجراء استكشاف لعملياته الدماغية. وكان الدماغ

يحتوي على حوالى اثنتي عشرة دورة رئيسة للمتعة، وأشهرها الجنسية والعاطفية والاجتماعية. وهناك أيضاً دورة للمتعة العقلية ودورة أخرى ذات درجة عالية من الذكاء، ترتبط بقدرات المرء على السيطرة على النفس. وأخيراً توجد خمس دوائر غير متطورة في معظمها لدى الكائنات البشرية مرتبطة بالقدرات التي تدعوها شعرية أو دينية أو صوفية.

لقد كان عمل الطفيليات يرتكز على دعم القدرات في الدوائر الاجتماعية والعاطفية لدى معظم هؤلاء الرجال. وكان وجود هذا العدد الكبير من الصحفيين – خمسون صحفياً –يكفي لتولي بقية الأمر.

ركّزنا نحن الخمسة جهدنا في الصحفي المذكور الذي بدأنا بفحصه. ولم نجد صعوبة في كسر الدائرة ونقله إلى حالة من الكآبة الشديدة المفاجئة. ولكن عندما أزلنا الضغط استعادَ وضعه الأول.

ثم جرّبنا مهاجمة الطفيليات مباشرة لكن دون جدوى. فقد كانت بعيدة المنال وظلّت عازمة على البقاء هكذا، وانتابنا الشعور في أنّ الطاقة الموجهة ضدها أُهْدِرت تماماً وأنّها تسخر منا.

كان الموقف خطيراً لهذا قرّرنا الاعتماد كلياً على قوانا في تحريك الأجسام بتأثير العقل، إذ أردنا السيطرة على الموقف. وهذا يعني ضرورة العمل مع الصحفيين عن كثب.

فجأة سمعنا صوت شخص يدق الباب وهو يصيح:

– كم سيطول انتظارنا هنا؟

توجهنا إلى الخارج وأخبرناه أنّنا مستعدون.

تقدمت مع رايش فلحق الصحفيون بنا وهم يضحكون، بينما استمرّ صوت معلّق التلفزيون من وراء الكواليس. وبينما كان فليشمان والأخوان كراو يسيرون وراء الحشود، أنْصَتوا إلى التعليق التلفزيوني، فسمعنا الرجل وهو يتحدث بصوت يشوبه القلق:

– يبدو أنّ كل شخص يشعر بالبهجة ، غير أنّني لا أستطيع منع نفسي من التساؤل فيما إذا كانت هذه البهجة حقيقية. ثمة توتر غريب يسود المكان الليلة.

في هذه اللحظة راح الصحفيون يضحكون. فما كان منا إلا أن ربطنا نحن الخمسة إرادتنا بسلسلة ومارسنا الضغط للإيحاء بجوٍّ من الخوف الغامض وعدم الأمان. وفجأة توقف الضحك فقُلْتُ بصوت عالٍ :

– لا داعي للقلق. إنّ الهواء ليس نقياً هنا كما ينبغي ، غير أنّه ليس ساماً على أي حال.

كان ارتفاع النفق يبلغ سبعة أقدام وينحدر بزاوية تُقَدَّر بعشرين درجة. على مسافة مائة ياردة أخرى إلى الأسفل ، كان في استطاعتنا جميعاً أن نستقلّ عدداً من عربات سِكّة الحديد الصغيرة. خلال الرحلة التي امتدت عشرة أميال ، لم نسمع شيئاً باستثناء صوت قرقعة العجلات. ولم يكن هناك من ضرورة لممارسة الضغط والتخفيف من معنويات الصحفيين أثناء هبوطنا. لقد كان شكل النفق لولبياً ، ولو لم يكن كذلك ، فإنّه كان يتعيّن بناء مدخله إلى مسافة عدة أميال من الجبل الأسود وإقامة موقع آخر ، الأمر الذي كان سيضاعف من مشكلة الأمن عندنا. وفي كل مرة كانت فيها العربات تتمايل عند أحد المنعطفات ، كُنّا نشعر بموجة الهلع تسري في نفوسهم. فقد كانوا يخشون أن تؤدي الذبذبات إلى انهيار جزء من النفق.

استغرق الوصول إلى كتلة آبوذ في قاع النفق نصف ساعة. وكان المشهد مثيراً. فقد ارتفعت الجوانب الهائلة لكتلته ذات اللون الرمادي الغامق كأنّها جرف عظيم.

في هذه اللحظة تعمّدنا الإيحاء بجَوٍّ من القهر. لقد كان من الأفضل في الواقع السماح لخيالهم أن ينطلق على سجيته والاكتفاء بمجرد إثارة

قشعريرة الرعب في نفوسهم. إلا أنّ الطفيليات كانت تغذّيهم بطاقة هائلة. لهذا كان من الضروري أن نعمد إلى شَلّ تلك الأجزاء من أدمغتهم التي من شأنها أن تستجيب للطفيليات. وهكذا مارسنا ضغطاً هائلاً للإيحاء بجَوٍّ من الرعب والاشمئزاز. وبدا واضحاً أنّ معلق التلفزيون أصيب بالإحراج من الاستمرار في الحديث في ذلك الجو الصامت المفزع. وقد ظهر وهو يتحدث من خلال الميكروفون وكأنّه يهمس:

– ثمة شعور بالاختناق لا يبعث على الارتياح هنا في هذا المكان. ولعل ذلك يرجع إلى الهواء.

بدأت الطفيليات بالهجوم. غير أنّ هجومها لم يكن كاسحاً، بل تدريجياً وكان هدفها من ذلك مضايقتنا حتى نفقد زمام السيطرة على الموقف. وما أن حَوَّلْنا اهتمامنا ناحيتها لكي نخوض المعركة ضدها حتى هدأ الموقف وانتاب كل فرد شعور بالارتياح. كانت تجربة مثيرة للإحباط، إذ لم يكن هناك سوى القليل لكي نقوم به. وبدا كأنّنا نحارب الأشباح بعد أن ظلّت الطفيليات تهاجم بأعداد صغيرة تصعب مقاومتها. تبيّن أنّ أفضل وسيلة أمامنا هي تجاهلها تماماً بالرغم من كل الصعوبات التي تكتنف ذلك.

فجأة واتتنا جميعاً فكرة واحدة لم نعرف مصدرها. إذ كُنّا من الاندماج بحيث تصعب معرفة من منا واتته الفكرة أولاً. نظرنا نحو كتلة آبوذ والسقف الذي يرتفع مسافة ثلاثين قدماً فوقها. كان وزن الكتلة ثلاثة آلاف طن. وبما أنّ الأخوين كراو رفعا كتلة تَزِنُ ثلاثين طناً في المتحف البريطاني، فإنّنا فكرنا أنّ الأمر يستحق المحاولة. فبعد أن أرسلنا موجة من الرعب تسري في نفوس الصحفيين بدأنا نركز جهودنا في رفع الكتلة.

غير أنّ الأمر كان ميؤوس منه. إذ بدَوْنا وكأنّنا نسعى إلى رفع الكتلة بأيدينا. وبعد ذلك قدم الأخوان كراو الدليل. فبدلاً من ممارسة قوتهما متّحِدَيْن، قاما بممارستها الواحد تلو الآخر وبصورة بطيئة في البداية. فأدركنا قصدهما وانضممنا إليهما. وفي اللحظة التي أدركنا ذلك أصبح الأمر سهلاً جداً. فالقوة التي ولّدناها نحن الخمسة كانت هائلة، بل إنّها تكفي لرفع ميلين من الأرض فوقنا. فجأة ارتفعت الكتلة بوضوح عن الأرض واتّجهَتْ نحو السقف. ولَمَعَ بريق عند مُلامَسَة الكتلة حزمة من الأسلاك الكهربائية. امتلأ المكان بالرعب حتى أنّ بعض الأغبياء اندفعوا تحت الكتلة. عَمَدْنا إلى تحريك الكتلة إلى الجانب وسرعان ما حلّ ظلام دامس بعد أن انقطع السلك الكهربائي وسقطت نهايته فوق الأرض. وسمعنا أحدهم وهو يطلق صرخة مفزعة بعد أن تعثر بالسلك. ملأت رائحة اللحم المشوي المكان مما جعلنا نصاب بالغثيان.

تعيّن على أحدنا الانفصال عن الباقين لدفع الصحفيين نحو حافة المكان بغية إنزال الكتلة دون أي تأخير. غير أنّ الأمر بدا صعباً طالما أنّ إرادتنا جميعاً كانت متّحدة في سلسلة واحدة تعمل على رفع الكتلة.

اختارت الطفيليات هذه اللحظة كي تشنّ هجومها علينا بقوة. ومن الطبيعي أنّه لم يكن بمقدورنا فعل أي شيء. وكان من شأن الموقف أن يكون مثيراً للضحك لولا خطورته الشديدة ولولا أنّه أودى تواً بحياة أحد الأشخاص. وهنا قال رايش:

— هل نستطيع تفتيت الكتلة إلى ذرات؟

لأول وهلة لم نتمكّن من فهمه بفِعْلِ الضوضاء، كما أنّ الطفيليات كانت تحيط بنا كأنّها جيش من الأشباح. لكن عندما رأينا ما كان يقصده بعد لحظات عرفنا أنّ ذلك هو أملنا الوحيد. فالقوة التي كُنّا نضغط بها كانت تكفي لرفع ألف كتلة أخرى مماثلة: أفلا تكفي هذه

القوة إذن لتحطيم هذه الكتلة؟ وقمنا ببذل محاولة ونحن نسلّط قوانا الذهنية كاملة عليها. وبلغ الضغط من القوة بحيث لم نَعُدْ نشعر بضغط الطفيليات حولنا. بعد ذلك شعرنا أنّ الكتلة الهائلة تفتتت وانهارت كأنّها قطعة من الطبشور. في الدقائق القليلة التالية، كانت هناك كتلة هائلة من المسحوق الناعم معلقة في الهواء. رأينا أنّ في وسعنا توجيهها نحو النفق وهو ما أقدمنا عليه، وشعرنا أنّ التيار أخذ يبتلعنا ليعيدنا باتجاه النفق حيث امتلأ الهواء بالغبار لفترة قصيرة. وفي اللحظة التي أصبحت فيها الكتلة بعيدة عن الطريق استخدمنا قوة إرادتنا المتراكمة لكي نهجم على الطفيليات. وكانت النتيجة مُرْضِيَة. مرة أخرى، لم يكن أمامها الوقت الكافي للتراجع. وبعد ذلك انفصل رايش عن الباقين والتقط نهاية السلك الكهربائي وربطه ثانية. فعاد التيار الكهربائي من جديد وبان الاضطراب في المكان كله. فقد شعر كل رجل أنّه بمفرده وأنّه في حالة من الرعب الشديد. وكان الهواء مليئاً بالغبار الأسود مما جعلنا نشعر بضيق في التنفس. وشاهدنا بقايا جثة الرجل الميت الذي صعقه التيار الكهربائي ملتصقة بالسلك وما تزال الرائحة تنبعث منها. لقد كان المشهد مثيراً للهلع فقد اعتقد كل واحد من الموجودين أنّه لن يرى سطح الأرض ثانية.

استطعنا أن نخفف من شحنة الرعب من خلال اندماجنا ثانية. وطلبنا منهم بعدئذٍ الوقوف في صَفَّيْنِ اثنين ثم العودة إلى العربات الصغيرة. صرف رايش ذهنه إلى رجال التلفزيون الثلاثة لكي يتأكد من أنّهم أعادوا تشغيل كاميراتهم من جديد، فقد أثّر انقطاع التيار الكهربائي في عملهم بلا شك. في الوقت ذاته، عَمِلْنا جميعاً على تنظيف النفق من بقايا الغبار ودفعنا به نحو السطح حيث ارتفع في الجو. لحسن الحظ كانت الليلة حالكة مما جعله يستقر فوق بقعة عريضة.

عندما خرجنا إلى الهواء الطلق، شعرنا أنّنا حقّقنا انتصاراً كبيراً على الطفيليات عن طريق الصدفة. والواقع أنّ هذه الأخيرة لم تستسلم فقد كانت ما تزال تسلّط قواها على الصحفيين أثناء خروجنا من النفق. غير أنّنا تمكّنا من الحؤول دون ذلك تماماً. من الواضح أنّنا سنكون عاجزين عن ذلك عندما يتفرقون ويذهب كل في سبيله. ولكن بالرغم من ذلك كلّه، فإنّ العالَم أجمع استطاع أن يرى ما حدث من خلال الكاميرات التلفزيونية وقد شاهد اختفاء الكتلة. أما ما كتبه الصحفيون فلم يكن له شأن يذكر. إضافة إلى ذلك، فقد كان هناك عامل آخر. فإنّ رفع المعنويات بطريقة اصطناعية من شأنه إثارة رد فعل يشوبه الإرهاق والتعب الشديدان، لهذا فإنّه لم يكن ممكناً إبقاؤهم في مثل هذه الحالة إلى الأبد. ويتعيّن عندئذٍ استفادتنا من رد فعلهم هذا.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما تناولنا طعامنا معاً في غرفة أُعِدَّتْ لنا خصيصاً. وقرّرنا البقاء معاً في الليل والنهار من الآن وصاعداً. كان لكل واحد مِنّا قوّته، غير أنّ هذه القوة تتضاعف تماماً عندما نكون معاً كما حدث في ذلك المساء.

لم نوهم أنفسنا باستحالة قهرنا. إذ ربما كُنّا في مأمن من هجوم مباشر تشنّه الطفيليات علينا. إلا أنّ هذه الطفيليات كانت تعرف كيفية استخدام أشخاص آخرين ضدنا، وهذا هو الخطر الحقيقي.

حين رأينا الصحف في صباح اليوم التالي هنّأنا أنفسنا بما حقّقناه من نصر عظيم. وبما أنّ كل شخص في العالم كان يراقبنا من خلال شاشات التلفزيون فإنّ ذلك يعني أنّ الكل كانوا حاضرين عندما توارت كتلة آبوذ عن الأنظار. فكّرنا أنّ عدداً قليلاً جداً من الصحف من شأنها أن تُشكك في صحة ما حدث. إذ إنّ ما قمنا به لم يكن في الأساس سوى حيلة بارعة، غير أنّ ذلك لم يحدث. لقد ازداد الهجوم الهستيري علينا،

هذا الهجوم كان ينصبّ على حماقتنا في إطلاق تلك القوى المرعبة. اعْتَقَدَ الجميع أنّ قوة ساثوغوان – وهو اسم ابتدعه خبير في قصص لافكرافت في الولايات المتحدة – كانت قد حطّمت الكتلة للحؤول دون معرفتنا المزيد من أسرارها. إنّ الأمر الذي أثار الفزع حقاً هو أنّ القوى التي حطّمت كتلة تزن ثلاثة آلاف طن، قادرة على تدمير مدينة حديثة بالسهولة نفسها. وقد ازدادت هذه المخاوف في آخر النهار، عندما اكتشف العُلَماء وجود طبقة من غبار البازالت تغطي مساحة تُقَدَّرُ بعدة أميال تحيط بالموقع، الأمر الذي جعلهم يتوصلون إلى استنتاج صحيح مفاده أنّ الكتلة قد تحللت بطريقةٍ ما، غير أنّهم خُدِعوا في ذلك الاستنتاج. فقد كان من الممكن تحلل الكتلة بواسطة استخدام تفجير ذري، إلا أنّ الطاقة الناتجة عن الانفجار كان من شأنها أن تقضي على كل شخص موجود داخل الغرفة. إنّها لم تتمكن من إدراك الوسيلة التي بواسطتها حدث ذلك حتى دون رفع درجة حرارة الغرفة.

أرسل إلينا رئيس الأمم المتحدة رسالة يتساءل فيها عن الخطوات التي نعتقد أنّ عليه اتّخاذها ضد الطفيليات، وفيما إذا كُنّا نعتقد أنّه من المفيد تدمير قادش بواسطة الألغام النووية. وهل لدينا أدنى فكرة عن الأسلحة التي من شأنها أن تكون فعّالة ضدها؟ فأرسلنا إليه رسالة طالبين منه القيام بزيارتنا وقد زارنا فعلاً بعد مرور ثمان وأربعين ساعة.

في الوقت عينه كانت شركة اليورانيوم تواجه مشكلة. لقد كانت الحملة الإعلامية تبعث على السرور فعلاً، ولكن في الوقت الذي كان فيه مئات الصحفيين ينتظرون في الخارج، فإنّهم كانوا في حالة حصار كما توقفت الأعمال تماماً. وغدا من المهم أن نعثر على مَقَرٍّ جديد لنا. وعن هذا الموضوع تحدَّثْتُ مباشرة مع رئيس الأمم المتحدة، وطلبْتُ منه العمل على إيجاد منطقة تتمتع بأمن كبير نستطيع فيها أن نضمن

خصوصيتنا. فما كان منه إلا أن أسرع بتنفيذ طلبنا. وفي غضون ساعة من الـزمن أعْلَمَـنا أنّ في وسـعنا الانـتقال إلى قاعـدة الـصواريخ 91 في ساراتوكاسبرنكز بولاية نيويورك. وفي اليوم التالي الذي يصادف السابع عشر من تشرين الأول انتقلنا إلى المكان الجديد.

امتازت قاعدتنا الجديدة بفوائد جمّة. وكانت ما تزال بمعيتنا قائمة بأسماء عدد من الرجال في أميركا، كُنّا قد عقدنا العزم على مفاتحتهم بالانضمام إلينا في الوقت المناسب. وقد زُوِّدْنا بأسماء هؤلاء الرجال من كل من ريزيموف وسينسفيلد من جامعة ييل. كان خمسة من هؤلاء الرجال موجودين في ولاية نيويورك. فطلبنا من الرئيس مفاتحة هؤلاء الرجال لاستقبالنا لدى وصولنا إلى القاعدة 91. وكان هؤلاء الرجال هم أوليفر فلمنك وميريل فيليبس من مختبر علم النفس في كولومبيا، ورسل هولكروفت من جامعة فيليبس من مختبر علم النفس في كولومبيا، وسيراقوس وإدوارد ليف وفكتور من معهد الأبحاث في ألبانيا.

في الليلة التي سبقت مغادرتنا شركة اليورانيوم، ظهر فليشمان على شاشة التلفزيون وأكّد من جديد أنّه ليس ثمة سبب يدفع سكان الأرض إلى الفزع. فهو لم يكن يظن أنّ الطفيليات من القوة بحيث تستطيع إلحاق أي ضرر حقيقي بالجنس البشري. وكانت مهمتنا تتمثل في محاولة التأكد من أنّ الطفيليات لن تكون من القوة بما فيه الكفاية.

بالنسبة إلينا فإنّ الجانب العام من مهمتنا هذه كان أقل الجوانب أهمية، بل إنّه كان في الواقع عديم الشأن مسبِّباً للإرهاق، إذ إنّنا كُنّا نريد المباشرة بالعمل الحقيقي وهو استكشاف مدى قوتنا وقوة الطفيليات.

أعدَّتْ شركة اليورانيوم صاروخاً سريعاً لكي ينقلنا إلى القاعدة 91 حيث وصلنا في غضون ساعة واحدة. أعلن التلفزيون عن وصولنا عصر

اليوم نفسه. كما أنّ الرئيس نفسه ظهر شخصياً على شاشات التلفزيون لكي يوضح الأسباب التي دفعته إلى السماح لنا بالانتقال إلى القاعدة 91، وهي منطقة تتمتع بأقصى درجات الأمن حيث يُقال إنّ دخول جمل في ثقب الإبرة أسهل من دخول المرء إلى القاعدة 91. وأشار إلى أنّ سلامتنا إنّما هي قضية ذات أهمية عالمية وأنّ أي محاولة من جانب الصحفيين للاتصال بنا، سيُنْظَرُ إليها باعتبارها خرقاً لقوانين الأمن وستُعالَجُ طبقاً لذلك. وقد حلَّ هذا بالتأكيد إحدى أكبر مشكلاتنا، فمنذ ذلك الوقت أصبح في وسعنا التنقل دون ملاحقة الطائرات العمودية.

كانت القاعدة 91 تفتقر إلى وسائل الراحة مقارنةً بمبنى المديرين في شركة اليورانيوم. فقد كان مَقَرُّنا عبارة عن كوخ شُيِّدَ في الساعات الأربعِ والعشرين التي سبقت وصولنا. وكان أفضل بقليل من غرفة حسنة التأثيث من غرف الثكنات.

لدى وصولنا كان الرجال الخمسة في انتظارنا وهم فلمنك وفيليبس وهولكروفت وليف وأبنر، وهم جميعاً لم يبلغوا الأربعين من العمر. إضافة إلى ذلك، فإنّ هولكروفت لم يبدُ عليه سيماء العُلَماء فقد كان طوله أكثر من ستة أقدام وله خدان متوردان وعينان شديدتا الزرقة. أحسسْتُ بشيء من الوجل عندما رأيته للمرّة الأولى. أما الباقون فقد أثاروا دهشتي بوصفهم رجالاً من الطراز الأول: أذكياء، يمتازون برباطة الجأش ويتمتعون بروح النكتة. تناولنا الشاي مع مسؤول القاعدة ورئيس جهاز الأمن فيها، ويبدا هذان الشخصان جنديين بكل ما للكلمة من معنى. فهما يتمتعان بقدر من الذكاء رغم واقعيتهما. وقد أراد ضابط الأمن معرفة ماهية الإجراءات التي يستطيع اتخاذها ضِدَّ جواسيس ساثوغوان فعزمْتُ على القيام بمحاولة لكي يفهما تماماً الخطر الذي نواجهه. ولا يتمثل هذا بعدو يهاجمُكَ من الخلف أو الأمام بل بعدو

موجود في أعماقنا. وقد بدا عليهما الارتباك إلى أن قال الجنرال وينسلو "أعتقد أنك تعني أنّ في وسعك مقارنة هذه المخلوقات بالجراثيم التي تدخل في الدورة الدموية". فأومأتُ بالإيجاب وانتابني الشعور أنّ الفكرة راقَتْ لهما بالرغم من أنّ ضابط الأمن أخذ يفكر في إطار مبيدات الجراثيم.

بعد تناول الشاي، أخذنا الرجال الخمسة معنا وعدنا إلى الكوخ. رُحْتُ أقرأ في أفكار ضابط الأمن أنّ هناك عدداً من مايكروفونات الذبذبة المخفية تحت الأرض الأسمنتية للكوخ – وقد وُضِعَتْ في ذلك المكان بناءً على أوامره – ولهذا فإنّنا عندما دخلنا، عمِلْتُ على استخراجها وتحطيمها. لقد كانت مدفونة على مسافة بوصة واحدة في الأرضية الأسمنتية وكان من المستحيل تحطيمها من الناحية النظرية، دون القيام بعملية الحفر. وكُنْتُ كلما التقيْتُ بضابط الأمن خلال الأسبوع الثاني وجدْتُه ينظرُ إليَّ نظرةً غريبة.

قضينا مساء ذلك اليوم ونحن نشرح الموقف لمجنّدينا الخمسة. وقدّمنا لهم في البداية عدة نسخ مصوّرة من **التأملات التاريخية** لقراءتها ثم أوْضَحْتُ لهم فكرتي باختصار. وكانوا يسجّلون الحديث بحيث يمكن العودة إليه عند الحاجة. وهنا أُقَدِّمُ مقاطع من الحديث المسجَّل في الدقائق الخمس الأخيرة إذ إنّها توضح بجلاء طبيعة المشاكل التي واجهتنا.

"ولهذا، فإنّنا نعتقد أنّ هذه المخلوقات يمكن محاربتها بواسطة الجنس البشري من خلال تدريب أساسي في علم الظواهر. كما أنّنا نعرف أنّ قوتها الرئيسة تبدو كامنة في قدرتها على الإخلال بتوازن العقل كنْتُ قد اعترفْتُ في وقت لاحق أنّ تدمير آبوذ كان من أعمالنا. وهذا يعني أنّ علينا أن نعرف كيف نقاوم الطفيليات على جميع المستويات العقلية.

غير أنّ هذا الأمر يُوَلِّدُ مشكلة أخرى جديدة يتعيّن علينا إيجاد حلّ سريع لها. فنحن لا نعرف سوى القليل جداً عن الروح الإنسانية. ولا نعرف ما الذي يحدث عندما يولد الإنسان أو عندما يموت. كما أنّنا لا نفهم علاقة الإنسان بالزمان والمكان.

لقد اعتبرت الرؤية الرومانسية في القرن التاسع عشر أنّ الإنسان يشبه الآلهة. أما اليوم فنحن نعرف أنّ هذا قائم ضمن حدود الممكن. فالقدرات الهائلة للإنسان لا يمكن أبداً إدراكها. وإذا كان الإنسان يشبه الآلهة فإنّ ذلك يعني أنّه يسيطر على الأشياء بدلاً من أن يكون ضحية للظروف. غير أنّه لا بد من التأكيد بعدم وجود تحكّم نهائي، في حين ما زال هناك تساؤلات دون إجابات حتى الآن. فإذا سار الإنسان ووجهه مصوّب نحو السماء، فإنّ من السهولة انتقاله إليها. ففي الوقت الذي نعجز فيه عن فهم أُسُسِ وجودنا، فإنّ هذه الطفيليات ربما تخطط للهجوم على هذه الأُسُسْ وتعمل على تدميرنا. وما أعرِفُهُ هو أنّ هذه الطفيليات تجهل مثلنا تماماً هذه الأسئلة. غير أنّنا لا نستطيع المغامرة بوجود هذه الفرضية. لقد أصبح علينا معرفة أسرار الموت والزمان والمكان. وهذه هي الضمانة الوحيدة لكسب المعركة هذه".

لدهشتي – وسروري البالغ – وجدْتُ أنّ هولكروفت من أفضل التلاميذ الذين التقيْتُ بهم في حياتي. لقد كانت النظرة الطفولية البريئة التي يتمتّع بها دليلاً حقيقياً، على طبيعته. لقد نشأ في الريف في كنف عمّتين أغدقتا الحب عليه. وكان في دراسته ممتازاً في المواد العلمية. كما كان سخياً بطبعه متفائلاً وسليماً من الأمراض العصابية. وقد سمحَتْ له هذه البيئة المحظوظة التي تربى في أحضانها الاحتفاظ بهذه الخصال. غير أنّه لم يكن ذكياً جداً لأنّه كعالِم نفسي تجريبي يفتقر إلى نوع من الحافز العصبي الذي يجعل المرء عالماً من الطراز الأول. والأفضل من ذلك، أنّه

كـان متوافقاً طبيعـياً وغريـزياً مع الطبيعة. لهذا فإنّه من ناحيةٍ ما فَهِمَ كل ما أخبرْتُه بـه وكان ذلك يبدو معقولاً بالنسبة إليه. أما الباقون فقد فهموا الأمـر فهمـاً عقلياً وقامـوا بهضمه ببطء. لقد أدرك هولكروفت كل شيء بغريزته.

حتـى الآن، بـدا كـلّ شـيء هامـاً، فقـد كـان رايـش وفليـشمان والأخـوان كـراو وأنـا شخصياً أذكياء، ولم نستطع التخلص مـن عـادة محاولـة استخدام الـذهن في استكشاف عالم العقل، وهو ما يبدو مضيعةً للوقت ويشبه جيشاً تحت إمرة قائد يرفض القيام بأي عمل دون كتابة وثائـق بـثلاث نـسخ واستـشارة القـيادة حـول كـل شـيء. لقـد كـان هولكـروفت أشبه بالوسيط، وهو ليس وسيطاً روحياً بالرغم من أنّه بدا كـذلك. فمجاله ليس الروح بل الغرائز وفي ذلك المساء الأول استطعنا أن نُدْخِلَه ضـمن دائرتنا التخاطرية وسرى فينا أمل جديد نحن الخمسة: هل يستطيع هـذا الـرجل الغوص في العقل إلى مسافات أكثر عمقاً مما نفعل؟ هل يستطيع أن يعطينا فكرة عما تروم الطفيليات القيام به؟

قـضينا معظـم الوقت طيلة اليومين أو الثلاثة التالية في الكوخ حيث أخـذنا نُعَلِّـم تلاميذنا كـل ما نعرفه. وقد سهَّلَت قدراتنا التخاطرية المَهمة كـثيراً. غير أنّـنا أخـذنا نـدرك أيضاً أنّـنا أهملـنا واحـدة مـن أهـم مشاكل الظواهرية.

فعـندما تنبَّه رجـلاً أنّه كان مخطئاً تماماً في فهم طبيعته طوال حياته، فإنّ ذلـك يزعـزعه فجأة كما لو أنّك تناوِلُه مليون جنيه. كما يجعله يدرك بـنوع مـن الـصدمة أنّـك سلّمْتَه مفتاح الحـظ وأنّ كل الذين يُطْلَقُ عليهم صـفة العظمـاء في العـالم كانـوا يملكـون إشـراقات مـن هـذه القوى، التي أصبح الآن يملكهـا علـى نحـو واسـع. إلا أنّه أمضى جلّ حياته وهو ينظر إلى نفسه بتواضع.

لقد حَقَّقَتْ شخصيته القديمة قدراً من التعمق خلال ثلاثين أو أربعين سنة من العادات. وترفض هذه الأخيرة الانحسار بين عشية وضحاها. غير أنّ شخصيته الجديدة قوية بشكل استثنائي. وهكذا فقد أضحى ميداناً لمعركة بين شخصيتين. كما أنّه كان يهدر قدراً هائلاً من الطاقة في خضمّ هذا الاضطراب الهائل.

لقد كان هولكروفت تلميذاً ممتازاً كما أسلَفْت. لكنّ الرجال الأربعة الآخرون كانوا يتمتعون بشخصيات أكثر تطوراً منه. ولم تكن عندهم أية أحاسيس حقيقية بالخطر. على أي حال فقد نجونا نحن من الهجوم الذي شنّته علينا الطفيليات، فلِمَ لا ينجو هؤلاء أيضاً؟

إنّني لا ألقي اللوم على هؤلاء الرجال الأربعة. فقد كان كل شيء محتوماً. وكانت كل جامعة تواجه جانباً من جوانب المشكلة ذاتها: فالطلاب يجدون أنفسهم من الإثارة بحيث لا يريدون قضاءها في العمل المرهق.

تطلَّبَ مِنّا نحن الخمسة بذل جهد عقلي لمنع فلمنك وفيليبس وليف وأبنر من الإخلال بالنظام. وكان يتعيّن علينا مراقبتهم باستمرار. كانت الأفكار الجديدة بمثابة مُقَوٍّ هائل. فقد أصبحت عقولهم من الحيوية بحيث رغبوا في الخوض في مياه النهر وكأنّهم طلاب مدرسة سعداء. وبدلاً من أن يكونوا غارقين في قراءة هوسرل أو فيرلو بونتي فإنّ من شأنهم أن يتذكروا مشاهد من الطفولة أو قصص الحب السابقة. كان أبنر عاشقاً للموسيقى يجيد عزف جميع أوبرات فاكنر عن ظهر قلب. وكان كلما تُرِكَ وشأنه أخذ يدندن بعض الثيمات ويغرق في نشوة واسترخاء. أما فيليبس فكان أشبه بدون جوان، وكان يتذكر غزواته السابقة فتنتابه النشوة جراء ذلك، ولكن دفاعاً عن فيليبس، فإنّني أَوَدُّ الإشارة إلى أنّ مغامراته الجنسية كانت دوماً بحثاً عن شيء لم يتمكن من العثور عليه

أبداً. وقد عثر عليه فجأة ولم يستطع منع نفسه من التشبث المستمر بالماضي.

في اليوم الثالث لوصولنا إلى القاعدة 91. جاء هولكروفت لتجاذب أطراف الحديث معي. وقال:

– ينتابني الإحساس بأنّنا نضحك على أنفسنا.

فسألته بوجل عمّا يقصده:

– إنّني لا أدري فعلاً. غير أنّني عندما أحاولُ التقاط طول موجاتها (يقصد الطفيليات)، فإنّ شعوراً بالحيوية الهائلة يسري في أعماقي. إنّها تخطط لأمرٍ ما.

لقد كان كل شيء يبعث على الإحباط على نحو جنوني. فقد كُنّا نملك أعظم الأسرار وقمنا بتحذير العالم. ولكن بالرغم من ذلك. فقد كُنّا نجهل كل شيء تماماً. من هي هذه المخلوقات؟ ومِنْ أين أتت؟ وما هدفها في النهاية؟ وهل كانت ذكية حقاً أم لا؟

تساءلنا مراراً وتوصلنا إلى بعض الإجابات. فالذكاء البشري إنّما هو وظيفة بدافع التطور عند الإنسان. فالعالِم والفيلسوف يتعطشان إلى المعرفة لأنّهما لا يريدان أن يظلاّ مجرّد بشر. وهنا نسأل أمِنَ المحتمل أن تكون هذه المخلوقات ذكية وتشبه في وضعها العالِم والفيلسوف عندنا؟ ولّما كانت هذه المخلوقات عدوة لنا، فإنّه من الصعب التوصل إلى اليقين. غير أنّ التاريخ علّمنا أنّ الذكاء ليس ضمانةً للخير. ففي كل الأحوال، إذا كانت هذه المخلوقات ذكية، فإنّنا ربما نستطيع عقد هدنة معها. ومرة أخرى نقول، إذا كانت ذكية، فلعلها تدرك أنّها خسرت المعركة. ولكن هل خسرت المعركة؟

عندما حدثني هولكروفت عن مخاوفه، أسرعْتُ باستدعاء بقية الرفاق. وكان ذلك في صباح يوم مشرق يشع منه الدفء. وكان يتنامى

إلى أسماعنا صوت العريف حيث يحفر عدد من الطيارين على بُعد مئات الأمتار، وكانت الشمس مشرقةً والجوّ دافئ.

بعد أن شرحْتُ للجميع مخاوفي أخبرتُهُم أنّه يتعيّن علينا بذل محاولة لمعرفة المزيد عن الطفيليات. فطلبنا من تلاميذنا الأربعة بذل جهودهم لإقامة نوع من الاتصال التخاطري معنا. وكان ذلك بمثابة عملية خطيرة لهذا فإنّنا كُنّا بحاجة ماسة إلى أكبر دعم ممكن نستطيع الحصول عليه. وبعد مرور نصف ساعة من التمرين، أعلن ليف أنّه بات في وسعه استلام إشاراتنا بوضوح. أما الآخرون فقد استنفدوا أنفسهم في محاولة الوصول إلينا، لذلك طلبنا منهم أن ينسوا الموضوع ويستريحوا. لم نخبرهم بما يوجد في أدمغتنا، لأنّه في حال هجوم الطفيليات علينا، فإنّ هؤلاء سيصبحون في خطر داهم بسبب قلة ممارستهم قدراتهم العقلية.

أسدلنا الستائر وأقفلنا الأبواب وجلسنا جميعاً وبدأنا نركّز تفكيرنا. لقد أَصْبَحْتُ معتاداً على هذه العملية حتى أنّني أقوم بها آلياً. وكانت الخطوة الأولى التي أَتَّخِذُها عندما أرغب بالنوم هي نسيان العالم الخارجي تماماً. وفي ثوانٍ معدودة كنْتُ أغوص في أغوار دماغي المظلمة. أما الخطوة التالية فكانت تحتاج إلى بعض الممارسة إذ كان ينبغي عليَّ أن أفصل نفسي عن شخصيتي المادية الاعتيادية. فلا بد من الإبقاء على الجانب العقلاني مني في حالة يقظة تامة لكي يغوص في عالم الأحلام والذكريات. وتشبه هذه العملية ما يحدث للمرء عندما ينتابه كابوس فيقول لنفسه: "إنّه مجرد حلم فأنا ما زلت في سريري ولا بد أن أستيقظ". فالنفس الخاصة بضوء النهار ما تزال موجودة غير أنّها تائهة في عالم الأوهام. وسرعان ما اكتشفْتُ أنّ في وسعي الهبوط نحو طبقة الأحلام هذه واستعادة وعيي الكامل، غير أنّ ذلك يبدو حيلة صعبة

طالما أنّ البشر يستخدمون الجسد لعكس الوعي بشكل ما. إنّ طبقة الحلم الكائنة في الدماغ إنّما تمثل عالَماً غريباً صامتاً يشعر فيه المرء وكأنّه يسبح تحت سطح البحر. بل إنّها بالنسبة إلى المبتدئ أشد أجزاء التجربة خطورة. فالجسد يعمل كالمرساة في العقل. وقد شكر الشاعر ييتس الله لأنّه يملك الجسد وتفاهاته لكي ينقذه من كوابيسه. إنّ الجسد يشبه ثقلاً كبيراً يجثم فوق أفكارنا ويمنعها من الطوفان فوق السطح. ويشبه هذا وجود المرء على سطح القمر ووزنه بضعة كيلوغرامات. إذ ما إن يتقدّم بضع خطوات حتى يجد نفسه وقد أخذ يطير في الفضاء كالمنطاد. فالأفكار تحصل على مثل هذه الطاقة الشيطانية عندما تتحرر من جاذبية الجسد. فإذا كان أحد المفكّرين يملك نوازع خبيثة، فإنّ أفكاره سرعان ما تصبح شياطين مثيرة للهلع. وما لم يدرك أنّ هذه الأفكار إنّما هي أفكاره بالذات، وأنّه لا وجود لها خارج كيانه، فإنّه قد يصبح رهيباً وتتفاقم عنده الأمور.

أثناء غوصي الهادئ في أعماق أحلامي وذكرياتي، حرصْتُ على البقاء سلبياً لكي أتجنبها. فلو أنّني أخطأْتُ وركّزْتُ في أي واحد منها، فإنّ من شأن ذلك الحلم أن يمتد ويتوسّع ليصبح عالماً قائماً بذاته. فعلى سبيل المثال، شمَمْتُ رائحة تبغ الجنجرتوم الذي كان جدي معتاداً على تدخينه. ولما كانت قد مضت فترة طويلة جداً من الزمن لم أشمّها، فقد توقفْتُ لحظات وسمحْتُ لاهتمامي أن ينصبّ عليها. وسرعان ما أحسسْتُ أنّني أرى جدي والحديقة الخلفية في منزله الكائن في مقاطعة لنكونشاير. لقد كنْتُ في الواقع موجوداً في الحديقة الخلفية التي جرى إعادة تجسيدها بتفاصيل دقيقة جداً بحيث إنّني في ظل ظروف مختلفة تماماً كنْتُ سأُصَدِّقُ واقعيتها. وبذلْتُ جهدي لطردها من مخيلتي وعدْتُ إلى ظلماتي الدافئة مرة أخرى.

لقد كانت هذه الظلمات تضج بالحياة ولم تكن مجرد انعكاس لحياة الجسد. فهي تشبه الحياة التي تنطلق كالكهرباء لتشمل الكون. لهذا، فإنّ الطبقات السفلى من الدماغ كان يشار إليها بكلمة حضانة وذلك لوجود إحساس قوي بالدفء والبراءة. إنّه عالم الأطفال بلا أجساد.

تحت طبقة الحضانة هذه كان هناك فراغ، لا شيء يشبه الفراغ الأجوف للفضاء الخارجي. وهذه المنطقة مخيفة إذ من السهل أن يفقد المرء فيها اتجاهه. وفي كل تجاربي المبكرة كُنْتُ دوماً أنام في هذه المنطقة لأستيقظ بعد ذلك بساعات عدّة. ولا يوجد ما يعكس إحساس المرء بفرديته أو حتى وجوده، لهذا فإنّ لحظة واحدة من عدم الانتباه تجعل المرء يفقد وعيه.

كانت تلك الحدود هي أبعد النقاط التي وصلْتُ إليها. حتى بعد ذلك الوقت، كان يتعيّن عليَّ السماح لنفسي بالصعود بين فترة وأخرى نحو طبقة الحضانة لكي أركّز انتباهي.

ظلّتْ أدمغتنا طيلة الوقت في حالة اتصال تخاطري. لكنّ هذا لا يعني أنّنا جميعاً كُنّا نسبح جنباً إلى جنب إذا صَحَّ التعبير. بل كان كل واحد منا يسبح بمفرده والأدمغة هي التي ظلت متصلة بعضها ببعض. وهذا يعني أنّه كان في ميسورنا تقديم المساعدة بعضنا لبعض بواسطة نوع من السيطرة بعيدة المدى. فلو كان النعاس قد غلبني عندما توقّفْتُ في حديقة جدي، فإنّ في وسع الآخرين إيقاظي ولو أنّ أحدنا تعرض للهجوم، فإنّنا سنصحو جميعاً حالاً ونتّحدُ من أجل صد الهجوم. ولكنّنا في الأعماق السحيقة كُنّا كل واحد منا بمفرده.

في هذه الأثناء، عرفْتُ من خلال الاتصال بهولكروفت أنّه كان يواصل غوصه فدُهِشْتُ لأنّني شخصياً أصبحتُ عديم الوزن تماماً عندما وصلْتُ إلى ذلك العمق. وكان وعيي أشبه بفقاعة تريد الصعود.

كنْتُ أعلم تماماً أنّ ثمة موهبة في الغوص إلى مسافات أعمق. لكنّ امتلاك هـذه الموهبة يتطلب قدراً من التعمّق والممارسة. وإذا كان ذلك هو كل ما تـستطيع القيام به من أجل البقاء في حالة وعي ، فإنّ الأمر محتمل. ويبدو أنّ هولكروفت كان يملك الموهبة.

أمـا بالنسبة إلى الزمن فيبدو أنّـه بلا معنى في هذه المناطق من العقل. فهـو يمضي ولا يمـضي إذا صَـحّ التعـبير. إذ طالمـا أنّ أحـداً لا يـشعر بـنفاذ الـصبر ، فـإنّ ثمـة شيئاً حيادياً يخص ماضيه. وأستطيع القـول أن لا وجـود لأي طفيلـيات بالقـرب مـني ، ولـهـذا فقـد بـدأْتُ عملـية الانـتظار وبقيْتُ منتبهاً. وسـرعان ما أدركْتُ أنّ هولكروفت بدأ يعود من رحلته ، وبدأْتُ أطفـو بخفـة عائـداً إلى الأعلـى خـلال الأحـلام والذكـريات ، وعـدْتُ إلى الوعـي المـادي بعد مرور ساعة من بدء التجربة. كان هولكروفت ما يزال غائباً عـن الوعـي ومـضت عـشر دقائـق قـبل أن يفـتح عينيه. كـان خـدّاه شاحبين بالرغم من أنّـه كان يتنفس بهدوء.

بعـد أن نظـر إلينا بهـدوء وعـرفنا أنّـه لا يملك أكثر من ذلك ليخبرنا به ، قال :

– إنّـني لا أستطيع فهم ذلك ، إذ لا شيء يحدث هناك في الأعماق. ولعلي أصدق أنّ الطفيليات قامت بالانسحاب.

– ألم ترَ أي شيء؟

– كـلا. لقـد انتابني الإحـساس بـأنّ هـناك بعـض الطفيلـيات تحـوم حولي مرة أو مرتين ، ولكنّها كانت قليلة جداً.

سـجّلنا التجـربة ذاتهـا. وبـدا أنّـهـا كانـت تبعـث على الأمل. غير أنّ أحداً منّا لم يشعر بالسعادة أبداً.

عند انتصاف النهار ولأول مرة خلال ثلاثة أيام ، استمعنا إلى نشرة الأخبار التلفزيونية وعلمنا ما أقدمت عليه الطفيليات خلال الأيام الثلاثة

الماضية. فقد قام كاف، باغتيال نون رئيس دولة قاف ومن خلال حركته الانقلابية أصبح يسيطر على عدة مدن. وبعد وقوع الانقلاب أذاع الراديو مقتطفات من خطاب كاف وأخذ كل واحد منا يحدق إلى زميله.

كان صوته يخلو من أي تعبير وبدا كأنّه يردّد شيئاً حفظه بواسطة آلة الروت الشبيهة بالقيثارة، وأنّه كان متعباً بحيث لم يستطع ترديده بصورة صحيحة:

"لقد ظلّ الرجل في دولة قاف سنوات طويلة ينظر إلى نفسه نظرة دونية مقارنة ببقيّة أفراد الجنس البشري. لقد آن الأوان لوضع حدٍّ لهذا الأمر. فالرجل في دولة قاف يعلم أنّه أفضل من بقية أفراد الجنس البشري في جميع المجالات. فهو أقوى منهم جسدياً وأكثر فحولة كما أنّه يستطيع القيام بعمليات ذهنية ساعات أطول بكثير دون أن يشعر بالتعب. إنّ القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الرجل في دولة قاف...". لقد كان خطابه حماسياً بالدرجة الرئيسة وكان كاف يتحدث خلال ذلك وهو مؤمن بما يقول تماماً. إلاّ أنّه بالرغم من ذلك كان يبدو وكأنّه يسيطر تمام السيطرة، على نفسه بصورة تجعله غير مقنع تماماً. كان أشبه بممثل قام بتسجيل حديثه بعد عدة محاولات. وانتهى حديثه بالإشارة إلينا: "لقد قام أفراد الجنس البشري بالتفكير بطريقة جديدة لابتزاز أبناء دولة قاف، فقد اخترعوا أعداداً كبيرة من المخلوقات الغريبة التي يفترض أنّها تقوم بغزو الأرض. هل رأى أحد حقاً أياً من هذه المخلوقات؟ كلا. لأنّ هذه المخلوقات غير موجودة أساساً. إنّها حيلة أخرى من حِيَل أبناء الجنس البشري لكي يشغلوا أبناء دولة قاف عن هجومهم".

إنّ الشيء الوحيد الذي أثار قلقنا هو أنّ كاف كان واقعاً تحت سيطرة طفيليات العقل. وبما أنّنا كُنّا نعرف كفاية عن هذه الطفيليات فإنّنا كُنّا نؤمن أنّ التقليل من شأنها يمثل خطأ فادحاً.

وفهمنا سياسة الطفيليات بسرعة. وهي سياسة مارستها بنجاح على أي حال خلال القرنين الماضيين، وتتلخص في إشغال الجنس البشري بالحروب. ففي القرنين الماضيين بذل البشر جهودهم من أجل تغيير حالة الوعي وتحويله إلى شيء أكثر توتراً.

جلسنا وتجاذبنا أطراف الحديث حتى وقت متأخر من الليل. فقد تطلّبت التطورات الأخيرة اتخاذ إجراء عاجل. ولكن ما هو هذا الإجراء؟ لقد كُنّا جميعاً نُحِسّ بوجود الخطر. وفي الساعة الثالثة صباحاً ذهبنا إلى النوم. وفي الساعة الخامسة أيقظنا هولكروفت وقال:

— إنّ الطفيليات تخطط لشيء ما، فأنا أشعر بذلك. وأعتقد أنّه من الأفضل لنا مغادرة المكان.

— إلى أين؟

فأجاب رايش:

— إلى واشنطن. أعتقد أنّه يستحسن اطلاع الرئيس هناك.

فقلت:

— وما فائدة ذلك.

فقال رايش:

— لا أدري. لديَّ إحساسٌ بأنّنا نضيع وقتنا بالجلوس هنا.

ولم يكن هناك أي سبب يدعونا لمزيد من التأخير. فبالرغم من أنّه ما تزال هناك ساعة قبل انبلاج الفجر، فإنّنا فقد توجهنا إلى الطائرة العمودية التي وضعتها حكومة الرئيس في خدمتنا. ومع ضوء النهار، رأينا شوارع واشنطن الواسعة والطويلة وهي تمتد تحتنا. فهبطنا برفق في الشارع الكائن أمام مقر الرئيس. وهنا أسرع الجندي المكلّف حراسة البوابة الرئيسة نحونا وهو يشهر بندقيته الذرية. وكان رجلاً شاباً ولم نجد صعوبة في إقناعه أنّه من الأفضل أن يستدعي ضابطه المسؤول بينما نقوم

نحن بإدخال الطائرة إلى الساحة. وهكذا تجلت إحدى مزايا قوتنا في إزالة العقبات الاعتيادية الرسمية من أمامنا.

سلمنا الضابط المسؤول رسالة إلى الرئيس ثم قمنا بجولة للعثور على فنجان قهوة. وكانت هَيْأتُنا تبدو للعابرين الاعتياديين أشبه بوفد من رجال الأعمال. في هذه الأثناء صادفنا مطعماً ضخماً فدخلنا وجلسنا أمام طاولتين متجاورتين تطلان على الشارع. وبينما نحن جالسين غُصْتُ في عقل أبنر فشعر بما أقوم به وابتسم ثم قال:

– إنّه أمر يثير الضحك. لقد كان يتعيّن عليَّ أن أفكّر بالخطر المحدّق بالجنس البشري وبمسقط رأس رايش، حيث إنّني ولدت في واشنطن. ولكنّي بدلاً من ذلك، أشعر بنوع من الاشمئزاز من هؤلاء الناس الذين يتجولون في الشوارع. إنّهم جميعاً نائمون ولا يبدو عليهم أنّهم يحفلون كثيراً بما يجري لهم.

فقال رايش وهو يبتسم:

– لا تنسَ أنّك كنت واحداً منهم قبل أسبوع فقط.

اتصلْتُ هاتفياً بالمقر وعلِمْتُ أنّنا مدعوون لتناول الإفطار مع الرئيس في الساعة التاسعة. وبينما نحن في طريق عودتنا بين حشود الناس المتوجهين إلى أعمالهم، شعرنا فجأة بهزة خفيفة في الأرصفة. فنظر كل واحد منا إلى الآخر وقال أبنر:

– زلزال؟

فأجاب رايش:

– كلا. إنّه انفجار.

فأسرعنا في خطواتنا ووصلنا إلى مقر الرئيس في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين. فسألْتُ الضابط الذي جاء لمرافقتنا إن كان قد سمع بأي أنباء حول وقوع انفجار. فهزّ رأسه وقال:

– أي انفجار؟

بعد مرور عشرين دقيقة وبعد أن جلسنا لتناول الإفطار علِمنا بما حصل. فقد استدعي الرئيس على عجل. وبعد عودته بدا وجهه ممتقعاً وصوته متهدجاً وقال:

– أيها السادة لقد دمّر انفجار حصل قبل نصف ساعة القاعدة رقم 91. ولم ينبس أحدنا بشيء غير أنّ فكرة واحدة استحوذت علينا جميعاً وهي: كم سيستغرق الطفيليات من وقت لكي تدركنا؟

❖ ❖ ❖

سجل كل من رايش وهولكروفت شرحا مفصلاً للّقاء مع الرئيس ولهذا فإنّني سأقتصر هنا على تقديم مجرد خطوط عامة لما حدث. فبعد أن أخْبَرَنا الرئيس بما حصل وجدنا أنّه على وشك الانهيار مما جعلنا نعمل على تهدئته بأساليبنا التي لطالما استخدمناها. فالرئيس لم يكن يملك إرادة قوية ولكنّه رئيس ممتاز في زمن السلم إذ يتّسم بإدارة ممتازة غير أنّه ليس الرجل الصحيح للتعامل مع الأزمات الدولية. ووجدنا أنّه بلغ من الاضطراب للأنباء الواردة بحيث نسي الاتصال بقيادة الجيش وإصدار الأمر بوضع النظام الدفاعي موضع التنفيذ حالاً. بيد أنّه اقتنع بتلافي ما حدث وفرحنا عندما علمنا أنّ أجهزة الرادار الجديدة في وسعها أن تؤمن اختراق صاروخ ذري يسير بسرعة ميل في الثانية.

كان الرئيس ميالاً إلى التعلق بأمل أنّ الانفجار الذي حصل في القاعدة رقم 91 إنّما سببه حادث لعله صاروخ من صواريخ مارس التي وضعت في تلك المنطقة. وتبلغ قوة هذا الصاروخ من الشدة بحيث يستطيع تدمير نصف ولاية نيويورك. غير أنّنا أخبرناه باستحالة ذلك وأنّ الانفجار إنّما دبرته الطفيليات التي وظّفت كاف للقيام به. فقال إنّه في مثل هذه الحالة فإنّه ملتزم بالمواجهة الذرية مع دولة قاف. غير أنّنا بيّنا له

أنّ ذلـك غـير ضـروري لأنّ الانفجـار كـان يـستهدفنا نحـن ، وأنّ فـشل الطفيليات في استهدافنا إنّما كـان بسبب الصدفة وإحساس هولكروفت بالخطـر. كمـا أنّ فرصـة أخرى لن تواتي كاف لاستخدام هذه الطريقة. في هـذه الأثناء يمكن للرئيس أن يتظاهر بالاعتقاد أنّ الانفجار سببه صاروخ مـن المريخ. غير أنّ أمراً واحداً يظل بالغ الأهمية وهو أن نقوم بحشد أكبر عـدد ممكـن مـن الـرجال الأذكـياء يمكـنهم أن يدركـوا مـشكلة طفيليـات العقـل ، وبتدريبهم ليصبحوا أشبه بالجيش. وإذا استطعنا إيجاد عددٍ كافٍ مـن الـرجال الـذين يتمـتعون بقـدرات علـى التخاطـر فلعلّـنا نقـدر علـى تحطيم تمـرد كـاف قبل انتشاره. في هـذه الأثـناء ، يتعيّن علينا إيجاد مكان مناسب نعمل فيه دون أن يقلقنا شيء.

إنّ مهمـة تزويد الـرئيس بالـشجاعة المعـنوية والقـوة لكي يواجه الأزمـة شـغلَتْ أذهاننا طيلة ذلك الصباح. لقد وجب على الرئيس أن يبيّن مـن خـلال شاشـات التلفـزيون أنّـه يـؤمن أنّ الانفجار ناتج عن حادث ما.

بلـغ قطر الدائرة الـتي دمرها الانفجار ثلاثين ميلاً ولهذا فإنّه ليس مـن الغـريب أنّـنا شـعرنا بـه في واشـنطن. وقـد هـدّأ هـذا التفسير كثيراً من روع الـناس. بعـد ذلـك ، وجـب القـيام بإعـادة فحـص الـنظام الدفاعـي وأُرسلتْ رسـالة سـرية إلى كـاف حُـذِرَ فـيها مـن أنّ إجـراءً رادعاً سيُتَّخَذُ ضـده في حـال تكـرار الانفجـار. وقـررنا أنّـه مـن الأفـضل أن نـصدر بياناً نوضـح فيه أنّـنا ما زلنا على قيد الحياة. إذ كان من المستحيل كتمان ذلك عـن الطفيليات. مـن ناحية أخرى ، فإنّ الإعلان عن قوتنا قد يثير موجة واسعة من اليأس بخاصة بعد أن أخذت الملايين تتطلع إلينا كقادة لها.

عـندما جلسنا نتـناول الغـداء في وقـت مبكر ، خيّم جو ثقيل من الكآبـة علينا وبـدا للـوهلة الأولى أنّـه يـستحيل علينا تحقـيق النـصر.

وتمثل الأمل الوحيد في تجنيد مائة شخص تقريباً وضمّهم إلى حلقتنا. ثـم العمـل علـى تـدمير كاف بواسطة الوسائل ذاتها التي استخدمناها ضـد جيورجـي ريبوت لكنّـنا في جمـيع الأحوال، سنظل تحت مراقبة الطفيليات المستمرة. إذ لا يـوجد شـيء يـستطيع مـنعها من تجنيد قادة آخـرين بعـد أن قامـت بكـسب كـاف إلى صـفوفها. بـل إنّـهـا في الواقع تـستطيع أن تـتحكم في الرئيس نفسه. وبات من العبث التفكير في ضم الـرئيس إلى صـفوفنا فهـو أسـوة بخمـسٍ وتـسعين في المـئة مـن الجنس البشري لـن يتمكن مـن استيعاب المشكلة. لهذا فنحن في خطر دائم. حتــى أثــناء ســيرنا في الطــرقات، هــناك احــتمال قــيام الطفيلــيات بالاستحواذ على أحـد المارة وقذفـه علينا كالصاروخ. وإذا كان أحد هؤلاء المارة يحمل مسدساً ذرياً، فإنّـه سيقضي علينا.

في هذه الأثناء قال رايش:

– إنّه لأمر يدعو إلى الرثاء أنّنا لا نستطيع الانتقال إلى كوكب آخر والبدء بجيش آخر.

ولم يكـن جاداً إذ كُنّا نعلـم أنّـه لا يـوجد أي كوكب آخر مسكون ضـمن المجمـوعة الشمـسية. في جمـيع الأحـوال، لا يـوجد علـى الأرض سفينة فـضائية تـستطيع نقـل البـشر عـبر مـسافة خمـسين مليـون مـيل نحو المريخ.

ولكـن، ألا يعتبر ذلك بمثابة حلّ لمشكلة توفير الأمن؟ إنّ الأمم المتحدة تملك فعلاً صواريخ عدة تستطيع نقل 500 شخص إلى القمر. ثم هناك محطات الأقمار الصناعية الثلاث التي تدور في مدارات حول الأرض. في الوقت الذي نظل فيه على سطح الأرض فذلك يعني أنّـنا في حالـة خطـر دائـم إزاء الطفيلـيات. ولا يـوجد مكـان آمـن باسـتثناء الفضاء الخارجي.

نعم ذلك هو الجواب على ما يبدو. بعد تناول الغداء مباشرة توجهْتُ برفقة رايش وفليشمان إلى الرئيس وشرَحْتُ له فكرتنا. في حال نجاح الطفيليات في تدميرنا فذلك يعني أنّ الأرض قد هُزِمَت. وفي حال كسب الطفيليات للمعركة فإنّها ستعمل على إفناء كل من يسعى إلى إعادة اكتشاف سرنا. وأفضل أمل للأرض يكمن في السماح لحوالى 50 شخصاً بالتوجه بأحد صواريخ القمر وقضاء الأسابيع القليلة التالية في أحد الأقمار الصناعية، أو القيام بجولة دائرية بين الأرض والقمر. في تلك الحالة ربما سنصبح من القوة بحيث نتحدى الطفيليات. أو ربّما يقوم هؤلاء الأشخاص بالانقسام إلى فرق صغيرة تقوم كل واحدة منها بسحب 50 شخصاً آخر نحو الفضاء وبهذا نكون قد أنشأنا في النهاية جيشاً يستطيع أن يتحكم في بلد من البلدان.

وقد أشار أحد المؤرخين أنّنا نستطيع أن نُجنّد الرئيس تماماً كما فعلت الطفيليات عندما جنّدت الرئيس كاف، ونجبره على الموافقة على كل ما نطلب منه. طبيعي أنّ لمثل هذا المنهاج مبرراته في ظل الأزمة، غير أنّه ليس من الضروري إقدامنا على تطبيقه إذ كان الرئيس سعيداً جداً للقيام بكل ما نقترحه عليه، فقد كانت الأزمة تثير مخاوفه.

أشرْتُ سابقاً إلى أنّ سنسفيلد وراميزوف قاما بتزويدنا بقائمة تضم أسماء عدد من الرجال يمكن ضمهم إلى حلقتنا. غير أنّنا لم نجد سوى نصف العدد. إضافة إلى ذلك فقد كان لدى هولكروفت وأبنر وبقية الرجال مقترحاتهم الخاصة. كانت النتيجة أنّنا تحدثنا مع ثلاثين رجلاً وافقوا جميعهم على الانضمام إلينا في عصر ذلك اليوم. وقد أسهمت القوة الجوية في نقلهم إلى واشنطن، وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ازداد عدد مجموعتنا وأصبحت تضم تسعةً وثلاثين عضواً. وقد كان يتعيّن على المجموعة أن تضم واحداً وأربعين شخصاً، غير أنّ

الطائرة التي كانت تنقل عالِمَيْنِ نفسانيين من لوس أنجلوس تحطمت فوق منطقة كراندكانيون. لم نتوصل إلى اكتشاف السبب في وقوع الحادث غير أنّه لم يكن من الصعب علينا تخمينه.

رتّب الرئيس كل شيء لكي نتمكن من مغادرة كوكب الأرض بعد ظهر اليوم التالي وذلك من قاعدة الصواريخ في أنابوليس. في تلك الأثناء وضعنا طلابنا البالغ عددهم ثماني وعشرين طالباً في دورة تدريبية سريعة حول الظواهرية. واكتشفنا أنّ التدريب جعلنا نبلغ مرحلة الكمال أو شبه الكمال. ولعل الجو العام للأزمة هو الذي ساعدنا في ذلك. إذ أحدث تغييراً مذهلاً لدى كل من فيريل وفيليبس وليف وأبنر. وقبل أن ينقضي النهار كان أحد المجندين الجدد يمارس تأثير قواه الخارقة على قطعة من رماد سيجارة.

بالرغم من ذلك، فإنّ الشعور بالخطر كان ما يزال مخيماً علينا وهو شعور يشير إلى أنّ هناك ما يثير إزعاجنا من الخارج أو الداخل. ولو كان العدو الجاثم أمامنا يتمثل في أي فرد من الأفراد فإنّ الشعور بالثقة سوف ينتابنا، غير أنّ ما كان يثير الإحباط في نفوسنا إدراكنا أنّ الطفيليات قد تستخدم أي شخص من بين بلايين البشر في الكرة الأرضية ضدنا. كان هذا الشعور باليأس يشبه الشعور الذي ينتاب المرء عند بحثه عن إبرة في كومة من القش. ولا بد لي من الاعتراف أنّنا واصلنا مراقبة الرئيس باستمرار وعن قرب طيلة الوقت الذي بقينا فيه في واشنطن، إذ كان من السهل جداً على الطفيليات السيطرة على دماغه وتجميده لخدمتها.

قضيْتُ الليلة السابقة لمغادرتنا الأرض وأنا يَقِظ واكتشفْتُ أنّني لست بحاجة إلا لبضع ساعات من النوم تلك الليلة. فإذا سمحْتُ لنفسي بالنوم أكثر من ذلك فقد يعني ذلك إضعاف قدراتي العقلية وإضعاف تحكمي بالوعي. غير أنّني شعرت الآن أنّه ينبغي عليَّ التعامل مع

مشكلة أقلقتني وعذبتني. وكان إحساسي يشير إلى أنّني مقبل على أمر هام.

لقد لازمني هذا الشعور منذ الليلة التي قامت فيها الطفيليات بتدمير مجموعتنا باستثنائنا نحن الخمسة. وبدا أنّنا قد وصلنا إلى حالة من السكون منذ ذلك الوقت. لقد ربحنا عدة معارك جانبية صغيرة ضدها ولكن بالرغم من ذلك، ما نزال نشعر بأنّ الطفيليات أهم إنجازاتنا قد انتهت – وبدا هذا الأمر أكثر غرابة وبخاصة بعد أن تركتنا بمفردنا، على ما يبدو، منذ ليلة المعركة.

إنّ الحيوانات تشبه الآلات إلى حدٍّ كبير فهي تعيش بواسطة العادة والأعمال الانعكاسية، كما يشبه الجنس البشري الآلات كثيراً. إلا أنّنا نملك درجة من الوعي يمثل التحرر من العادة والقدرة على القيام بشيء جديد وأصيل. وقد أخذ الشعور بالإحباط ينتابني في أنّ هذا الأمر المقصود إنّما يتمثل في واحدة من آلاف العادات التي نسلّم بوجودها جدلاً. لقد كنْتُ أناضل من أجل المزيد من التحكم بوعيي، غير أنّني أخذْتُ أجد بعض العادات المتأصلة فيَّ تقف في طريق سيطرتي الحقيقية.

واسمحوا لي إيضاح هذه النقطة. إنّ الأمر الذي كان يقلقني يتعلق بالتدفق الهائل للطاقة التي تمكّنْتُ بواسطتها من دحر الطفيليات. وبالرغم من كل الجهود التي بذلتها لاستيعاب مصادر هذه الطاقة، فإنّها ما تزال لغزاً بالنسبة إليَّ. واليوم يكتشف فجأة معظم البشر أنّ حالات الطوارئ تولّد طاقات داخلية لم يسبق لهم أن أدركوا وجودها. فالحرب، على سبيل المثال، قد تجعل الشخص الوَسْواس بطلاً.

سبب هذا يرجع إلى أنّ النشاط عند معظم الناس، تتحكم فيه قوى موجودة في اللاوعي لا يمكن إدراكها. أما أنا فقد كنْتُ أدرك هذه القوى. إذ أستطيع الغوص في أعماق عقلي كما يفعل المهندس عندما

يتفحص المكائن في إحدى السفن. غير أنّني بالرغم من ذلك لم أستطع الوصول إلى مصدر القوة الداخلية الحقيقية. لماذا؟ إنّ عنصر المفاجأة في معركتي ضد الطفيليات ساعدني على جمع هذه الطاقات الهائلة. وكان هناك أمر يصعب تحديد سببه بخصوص الفشل في الوصول إلى مصدر هذه الطاقات الهائلة.

قضيْتُ الليلة وأنا أصارع هذه المشكلة. فحاوَلْتُ الغوص أكثر فأكثر في تفكيري دون جدوى. وبدا أنّ ثمة عقبة خفية أو لعله ضعفي الخاص والافتقار إلى التركيز. ولم يكن للطفيليات شأن في ذلك حيث لم أشاهد أي واحدة منها.

عند الفجر شعرْتُ بالتعب ولكنّني ذهبت مع رايش وهولكروفت والأخوين كراو إلى قاعدة الصواريخ في أنابوليس للقيام بعملية الفحص الأخيرة، وكان عملاً جيداً. إذ قمنا بمقابلة الفريق كله الذي أَعَدَّ الصاروخ، بحجة توجيه أسئلة شكلية عامة. بدوا جميعاً في غاية النزاهة والود. وسألناهم كيف جرت الأمور فأجابوا أنّ كل شيء سار على ما يرام دون حدوث أي شيء. غير أنّ هولكروفت الذي اكتفى طيلة الوقت بمراقبتنا دون أن يقول شيئاً سأل فجأة:

– هل هناك عضو في الفريق غائب الآن؟

فهزّ العقيد ماسي رئيس الفريق رأسه وقال:

– إنّ جميع المهندسين حاضرون.

فكرّر هولكروفت السؤال:

– ولكن هل ثمة أحد غائب عدا المهندسين؟

– شخص واحد فقط يدعى كيلرمان وهو مساعد الملازم كوستا. وقد تخلّف عن الحضور بسبب ارتباطه بموعد مع الطبيب النفساني.

كان كوستا مسؤولاً بالدرجة الرئيسة عن برمجة العقل الإلكتروني الذي يقوم بتنظيم عمل الصاروخ: الوقود والحرارة والسيطرة الجوية وما إلى ذلك. فقلْتُ عرضاً:

– أنا أعلم أنّ الأمر عديم الأهمية ولكنّنا نفضّل رؤيته وهذا أمر شكلي.

– لكنّ الملازم كوستا يعرف أكثر من كيلرمان فيما يتعلق بالعقل الآلي.

– مع ذلك فإنّنا نريد رؤيته.

وبسرعة تمّ الاتصال بمقر الطبيب النفساني وأجاب أنّ كيلرمان غادر المقر قبل نصف ساعة. ولدى التدقيق مع الحرس تبيّن أنّ كيلرمان قد غادر المكان على ظهر دراجة بخارية قبل عشرين دقيقة. في هذه الأثناء قال كوستا وهو مضطرب.

– إنّ لكيلرمان صديقة في الجامعة أسمح له بالذهاب لتناول فنجان قهوة معها. وأعتقد أنّه ذهب إليها. فقال رايش بلا اكتراث:

– سأكون مسروراً لو أرسلْتَ شخصاً يستدعيه. في هذه الأثناء أرجو القيام بفحص جميع دوائر العقل الآلي.

❖ ❖ ❖

بعد ساعة من الزمن كشف الفحص أنّ العقل الآلي كان في حالة جيدة جداً، غير أنّ الشخص الذي ذهب إلى الجامعة عاد دون كيلرمان ولم يكن قد شاهده أحد، فقال كوستا:

– لعله توجه إلى المدينة لشراء بعض الحاجيات. وهذا يُعَدُّ خرقاً للتعليمات غير أنّني أعتقد أنّه فكّر أنّ أحداً لن يلاحظ غيابه في هذا الصباح المليء بالعمل.

وحاول العقيد ماسي تغيير دفّة الموضوعة غير أنّ رايش قال:

— إنّني آسف يا سيادة العقيد ولكنّنا لن نغادر بواسطة هذا الصاروخ قبل أن نتحدث إلى كيلرمان. لذا أرجو توجيه نداء عام لاستدعائه. لعل الفريق المكلف بالإعداد فكّر أنّنا مجانين ونثير الملل غير أنّهم لم يملكوا بديلاً سوى الموافقة. لذلك تمّ إرسال عدة سيارات للشرطة العسكرية وإخبار جميع رجال الشرطة في المنطقة. وتبيّن فيما بعد أنّ شخصاً تنطبق عليه أوصاف كيلرمان قد غادر أحد مطارات الطائرات العمودية المحلية متوجهاً إلى واشنطن قبل بضع ساعات. وفي الحال استمرت المطاردة في واشنطن حيث أُخْبِرَت الشرطة هناك بالأمر.

وأخيراً تمّ تحديد مكان كيلرمان في الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر أي بعد ساعة من الوقت المقرر لانطلاقنا. كان كيلرمان قد قام برحلة عودة من واشنطن وتعرفوا إليه في ذلك المطار المحلي. احتج قائلاً إنّه ترك المكان لكي يشتري لصديقته خاتم الخطوبة وظنّ أنّ أحداً لن يلاحظ غيابه. ولكن، عندما رأيناه كانت لمخاوفنا ما يبررها، فقد كان شخصاً غريب الأطوار ومصاباً بانفصام الشخصية وكان يفتقر في شخصيته إلى النضج. وقد استغلت الطفيليات هذا الجانب ولم يكن هناك أي ضرورة للاستيلاء على دماغه، إذ كان يكفي مجرد إجراء بعض التغييرات في دوائر عقله، ثم تتكفل طبيعته الصبيانية بشعوره بالعظمة بالبقية الباقية.

ما إن حلَّ كيلرمان بيننا حتى انتزعنا الحقيقة منه. كان قد أجرى تعديلات دقيقة جداً على أجهزة السيطرة على درجة الحرارة في السفينة. فعندما تبدأ درجة الحرارة بالارتفاع ببطء شديد في الفضاء الخارجي يصعب علينا ملاحظتها. بيد أنّ هذا التغيير من شأنه إحداث تعديل أوتوماتيكي للعقل الآلي، ومن شأنه أيضاً أن يؤثر في آلية توقف

السفينة، بحيث إنّنا لدى اقترابنا من القمر الصناعي ستكون سرعتنا بالغة جداً ومن شأننا أن نصطدم بالقمر ونقضي على أنفسنا وعليه. وقد فشلت عملية فحص الدوائر الاعتيادية في الكشف عن ذلك، حيث إنّ العقل الإلكتروني يملك بلايين الدوائر المحتملة وأنّ أي فحص لا يتضمن سوى التأكد من أنّ التقاطعات الرئيسة فيه تعمل بانتظام.

تركنا كيلرمان لمصيره. وعلمْتُ أنّه قُدِّم لمحكمة عسكرية وأُعْدِم. انطلقنا أخيراً في الساعة الرابعة والنصف.

في الساعة السادسة كُنّا ننطلق بسرعة أربعة آلاف ميل في الساعة باتجاه القمر. وكانت قوة الجذب في السفينة من الطراز القديم: فالأرضية كانت ممغنطة وملابسنا مصنوعة خصيصاً بحيث تنجذب نحوها إذ نبدو وكأنّ وزننا اعتيادي. ومن نتائج ذلك أنّنا شعرنا جميعاً بدوار الفضاء خلال الساعتين الأولَيَيْن.

بعد فترة اجتمعنا في غرفة الطعام وتحدث رايش قليلاً عن الطفيليات وبيّن كيف يمكن استخدام أسلوب هوسرل في مكافحتها. أما بقية الأحاديث فقد أُجِّلَت حتى اليوم التالي لأنّ كلاً منّا كان يشعر بالقلق الشديد والإثارة جرّاء الأجواء الجديدة. إذ لم يسبق لأي منّا أن استخدم سفينة فضائية في الطيران.

وبينما نحن في الجزء المواجه للأرض من القمر الصناعي. كان في ميسورنا التقاط صور التلفزيون. فأصغينا إلى نشرة أخبار الساعة التاسعة والنصف. وكان أول شيء أشاهده هو وجه فيليكس هازارد الذي كان يلقي خطاباً حماسياً أمام جمع غفير من الناس.

قبل ثماني ساعات – أي في السابعة والنصف حسب توقيت مدينة برلين – ألقى هازارد خطاباً في مدينة ميونخ، تحدث فيه عن عظمة الجيش الآري وطالب باستقالة حكومة الديمقراطيين الاجتماعيين الحالية

والمستشار الدكتور شرودر. وكان رد الفعل شديداً في عموم البلاد. إذ بعد مرور ساعتين، أعلنت الحركة الوطنية الجديدة أنّ زعيمها لودفيك سيتهر قد تنازل عن منصبه طوعاً لفيليكس هازارد. ونُسِبَ إلى سيتهر قوله إنّ من شأن هازارد أن يعيد أمجاد الجيش الآري ويقود الأمة إلى النصر. وكان هناك لغط كثير حول التهديدات الوقحة للجماعات العرقية الدونية إضافة إلى مقتطفات مطولة من كوبينو وهوستن وستيوارت جامبرلين ومن كتاب **أسطورة القرن العشرين** لمؤلفه روزنبرك. وبدا واضحاً ما حدث. فالطفيليات أنجزَتْ مهمتها في دولة قاف واتجهَتْ الآن نحو أوروبا. غير أنّ معظم البلدان كانت تملك أنظمة دفاعية لا يمكن حتى للصواريخ الهيدروجينية اختراقها. وهذا ما جعل الطفيليات تعمل على إنتاج ردود فعل أقوى بكثير من ذلك، وقد تَمَثَّلَ نشاطها في إحياء العنصرية الآرية.

لا بد لي من الاعتراف أنّ معنوياتي قد انخفضت إلى أدنى مستوياتها. وبدت مهمتنا يائسة. ففي هذه الحال ربما تنشب الحرب في العالَم خلال أسبوع، أي قبل رجوعنا إلى الأرض. وظهر أنّنا لا نستطيع شيئاً للحؤول دون ذلك. بل لم يكن بقاء الأرض مؤكّداً لدى عودتنا. وأصبح من السهل جداً توقع ما سيحدث بعد ذلك:

فالطفيليات ستتجه نحو إضعاف كل بلد من خلال السيطرة على الأدمغة الرئيسة. ولن يصعب اختراق أميركا وأوروبا بعد قيام الخونة بتخريب أجهزة الإنذار.

لم أنم إلا بضع ساعات واستيقظْتُ في الساعة الرابعة ثم شاهدْتُ أخبار الساعة التاسعة صباحاً من محطة تلفزيون لندن وكانت ساعاتنا مضبوطة بحسب توقيت أميركا. كانت الأخبار سيئة. فقد لقي المستشار الألماني مصرعه وأعلن هازارد أنّ حكومة الديمقراطيين الاجتماعيين غير

شرعية. ونصّب نفسه مستشاراً، ممثلاً حقيقياً لإرادة الشعب الألماني. هذا وسيقوم حزبه بالاستيلاء على حكومة ألمانيا وسيكون المقر هو الرايخشتاغ في برلين بدلاً من القصر في بون. وصدرت التعليمات بإعطاء الحق لكل مواطن في إطلاق النار على أي عضو من أعضاء الحكومة المرتدة حالاً. وقد تبيّن فيما بعد أنّ هذا الإجراء كان غير ضروري إذ وافق الديموقراطيون الاجتماعيون على طردهم من السلطة وأعلنوا تأييدهم لهازارد. ثم أعلن هازارد بعد ذلك نظامه الجديد في سيطرة البيض. فعندما تخضع الأجناس الأقل شأناً، فإنّ ترحيلها سيكون جماعياً إلى كوكب الزهرة. ولاقت الفكرة على ما يبدو حماسة شديدة في عدد من بلدان العالم بما فيها بريطانيا وأميركا. ولم يُشِرْ أحد إلى أنّ تكاليف نقل بليون فرد لمسافة ثلاثين مليون ميل سيكلف أموالاً طائلة لا يملكها العالم حتى عندما يصبح كوكب الزهرة مأهولاً بالسكان.

كان من المُقَرَّرِ أن نصل منتصف الطريق إلى القمر في الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم. عندها، سنفقد اتصالنا التلفزيوني بالأرض بالرغم من أنّنا سنظل نستلم إشارات الراديو. والسؤال المطروح الآن هو: هل نقوم بتغيير دفّة السفينة ونظل على مسافة يوم واحد من الأرض؟ إذ في حالة نشوب الحرب في العالم يصبح من الأفضل وجودنا على الأرض للاشتراك في القتال ضد الطفيليات. بل ويمكننا على الأقل المساعدة في منع الطفيليات من التغلغل في النظام الدفاعي للأرض. ولم يتطلب الأمر سوى وضع كل واحد منّا في كل وحدة دفاعية للحؤول دون وصول الطفيليات. والتأكد من عدم حدوث أي خيانة.

واتضح أنّ هذه هي أفضل سياسة غير أنّنا دهشنا عندما وجدنا هولكروفت يعترض عليها. ولم يتمكن من تقديم أي أسباب توضح معارضته لها. وذكر أنّ لديه مجرد حدس أو شعور. ولما كان شعوره هذا

قد أنقذ حياتنا ذات مرة فقد كُنّا ميالين إلى الاهتمام بما قاله. تحدثْتُ إليه بعد ذلك وحاولْتُ أن أجعله يبوح بمصدر هذا الشعور. وبعد محاولات عدّة، قال أخيراً إنّه كلما ابتعدنا أكثر عن الأرض كلما كان ذلك أفضل. ولا بد لي من الاعتراف بأنّني أُصِبْتُ بخيبة أمل. وعلى أي حال، فقد اتخذنا القرار وواصلنا رحلتنا نحو القمر.

في الجزء الأعظم من الرحلة نجحت الأيدي العشر القديمة في نسيان الخطر الجاثم فوقنا وركزنا على المشاكل الظواهرية. ليس من السهل على الآخرين النسيان، فالكثيرون منهم تركوا أسرهم من ورائهم لذا كان من الطبيعي إحساسهم بالقلق واستطعنا بجهد كبير حثّهم على العمل عشر ساعات يومياً في مجال تدريب الدماغ. ولم يكن الأمر سهلاً، ولكن بعد اليوم الثاني بدأنا نربح هذه المعركة بالذات، وفعل التوتر فعله لصالحنا عندما قمنا بإقناعهم نسيان متاعبهم الأرضية. وهذا ما ساعد في نجاحنا. فلم تصادفنا أية متاعب شأن تلك التي صادفتنا مع ميريل وفيليبس وليف وأبنر.

بالرغم من ذلك بقيْتُ غير مقتنع. فبعد خمسين ساعة من الطيران كُنّا ما نزال على بعد أربعين ألف ميل من القمر. كما ظلّ الإحساس يلازمني في أنّ الطفيليات قريبة منا أكثر من أي وقت مضى.

❖ ❖ ❖

تحدثْتُ حول هذا الموضوع مع رايش وفليشمان والأخوين كراو بعد أن فرغنا. لقد كانت هناك بعض الحقائق التي ما زالت غير واضحة لنا بشأن الطفيليات. فمن الناحية النظرية لا يوجد أي فرق سواء أكُنّا على الأرض أم في الفضاء الخارجي. فهي موجودة في الدماغ ولهذا ليس في وسع المرء الخلاص منها. وعلى أي حال، فهي لم تزعجنا مباشرة منذ تلك الليلة التي قامَتْ فيها بتدمير معظمنا، إذ

أدركْتُ أنّ في وسعها إلحاق الهزيمة بنا بصورة غير مباشرة عن طريق إثارة حرب عالمية.

بالرغم من ذلك، فإنّ الطفيليات كانت موجودة في الفضاء الخارجي، إذ إنّني وجدتها في مكتبي في شارع بريس حيث قامت بمراقبة سجلات كارل وايزمان. كيف لي أن أفسّر هذا التناقض؟ إنّها موجودة في الفضاء وخارجه. ومهما يكن من أمر فإنّ عقولنا موجودة في الفضاء وبعيداً عنه، فالمرء لا يستطيع أن يحدد مكان العقل لأنّه لا يحتل حيّزاً في فراغ. ولكن على الرغم من ذلك فإنّه يتحرك في الفضاء مع أجسادنا.

مرة أخرى، انتابني شعور بأنّ ثمة حلقة مفقودة. فجلسنا معاً وأخذنا نفكر بالأمور جميعاً تفكيراً بطيئاً وخطوة فخطوة. ثم بادَرْتُ قائلاً:

– إنّ الطفيليات موجودة أساساً في الفضاء، وقد جاءت إلى الأرض عمداً لكي تقتات من الجنس البشري. ونحن نعلم أنّ البشر يبدون جميعاً بعقول منفصلة لأنّ المرء عندما يغوص في أعماق دماغه يفقد اتصاله بالآخرين. ونعلم أيضاً أنّ الجنس البشري يشترك في عقل واحد. فنحن أشبه بصنابير مياه المدينة، كل صنبور منفصل عن الآخر. لكنّها تستلم مياهها من الخزان الرئيس.

هنا قاطعني رايش إذ قَدَّمَ مقتطفات حرفية مما جاء في كلامه الذي سجلناه.

– غير أنّك قلْتَ بأنّك استطعْتَ قهرها من خلال استجماع الطاقة العظيمة. أليس ذلك هو الخزان الرئيس؟

فأجبْتُ:

– أظن ذلك.

– ولكن في هذه الحال فإنّ الطفيليات تعيش في الخزان كما أنّ الطاقة متوفرة لديها أيضاً. فكيف تعلل ذلك؟

نعم تلك هي النقطة المهمة التي بدأنا نقترب منها. إنّ أعماق العقل كما يبدو – وهو المكان الذي تعيش فيه الطفيليات – وكذلك مصدر الطاقة الهائلة التي كنْتُ أَسْتَمِدُّها أمران مختلفان، فذلك المصدر قد يكون موجوداً في أعماق العقل وهي ليست تلك الأعماق نفسها. قال فليشمان:

– حسن جداً. إلى أين سيقودنا هذا؟

فأجاب هنريش كراو ببطء:

– أعتقد أنّني أعرف إلى أين سيقودنا هذا. إنّنا نتحدث عن مصدر هائل وعظيم من مصادر الطاقة وهو ما أطلق عليه برنارد شو قوة الحياة. هذا المصدر إنّما هو الحيوية التي تقوم بعملية حثّنا جميعاً.

فقاطعه أخوه لويس بقوة:

– لكن لماذا تنزعج الطفيليات من الكائنات البشرية إذا كانت تستطيع سرقة طاقاتها من المصدر؟ إنّه من الواضح...

فقاطعه هنريش:

– من الواضح أنّها لا تستطيع إذ يتعين عليها أن تكون موجودة بين المصدر والفرد.

وهنا لم أفهم قصدهما فسألتهما:

– وما الذي يعنيه هذا؟

– هذا يعني أنّ المصدر الرئيس غير متوفر لديها وربما هو معادٍ لها تماماً. أي أنّنا إذا استطعنا الوصول بطريقة ما إلى أصل هذا المصدر فربما قُدِّرَ لنا أن نملك من القوة ما نستطيع بها تدمير الطفيليات.

فأوضَحْتُ للجميع أنّ هذه الفكرة راودتني من قبل بالرغم من أنّني لم أحلّل مضامينها تحليلاً كافياً، فالمشكلة تتمثل في أنّني لا أستطيع التوغل عميقاً إلى ذلك المصدر وكلّما حاولْتُ ذلك، شعرْتُ أنّني لا أملك قوة الإرادة المناسبة.

فقال رايش:

– لكن إذا كانت الطفيليات موجودة بينك وبين المصدر، فربما تعمل على إثارة العراقيل أمامك.

أخذنا الآن ندرك أنّ هذه مسؤولية حقيقية. فطالما استخدمت الطفيليات أسلوب وضع العراقيل هذا ضد الجنس البشري، وهي تتعمد في ذلك تحويل انتباه العقل عندما تقوم بالاستحواذ على أسراره. لقد عرفنا كيف نمنع حدوث ذلك بواسطة التوغل إلى تلك الأعماق من العقل حيث تنشط الطفيليات عادة. فما كان منها إلاّ أن تراجعت نحو مواقع أشد عمقاً لا نستطيع الوصول إليها، ولعلها تستخدم الطرق القديمة ذاتها ضدنا.

حتى الآن كنْتُ أفترِضُ وجود سبب طبيعي حال دون توغلي إلى ما وراء نقطة معينة من عقلي. فالغواص لا يستطيع الغوص إلا إلى نقطة معينة في البحر يتساوى فيها وزن الماء الذي يدفعه مع وزن جسمه. وإذا أراد الغوص إلى مسافات أعمق، يتعيّن عليه ربط أثقال ببدلته، أما أنا فلم أكن أعلم شيئاً عن طريقة جعل عقلي أكثر ثقلاً كي أستطيع الغوص أكثر فأكثر في أعماق نفسي. وكنْتُ أفترِضُ أنّ هذا هو سبب فشلي في التوغل إلى مسافات أعمق. هل هذا صحيح؟ لقد بدأْتُ أفكّر بالأمر وأدركت أنّ السبب الذي كان يمنعني من الوصول إلى أعماق أشد هو استنزاف إحساسي بالهدف. إذ بدا عقلي وقد أصبح خاوياً. كما أنّ إحساسي بفرديتي أصبح أكثر مدعاةً للقلق أي أنّه من المحتمل جداً وجود أمر يعرقلني.

قرَّرْتُ أن أقوم باختبار ذلك ثانية كما فعل الآخرون. فأغمضْتُ عينيّ وبدأْتُ الغوص في طبقات ذاكرتي. غير أنّني وجدْتُ صعوبة في اختراقها. وبدا كل شيء عنيفاً ومضطرباً كأنّه السباق تحت سطح البحر بعد حدوث انفجار في أعماقه. وتذكَّرْتُ أنّ الأحلام التي شاهدتها في الليلة السابقة كانت تتمتّع بالخاصية العنيفة والمضطربة ذاتها.

لماذا؟ لم تكن تبدو هناك أية طفيليات فما هو سبب الاضطراب يا ترى؟ وحاولْتُ بجهد الغوص أعمق فأعمق ونجحْتُ بعد صعوبات جمّة، في الوصول إلى منطقة الحضانة. هنا ازدادت الأمور سوءاً. فهذه الطاقات البريئة والعنيفة حصلت على ما يشبه القوة العصبية. فهي تمتاز عادة بالهدوء والنظام كأمواج البحر الهادئة. غير أنّ البحر بدا الآن مضطرباً.

أدركْتُ أنّ هذه هي أعمق نقطة أستطيع الوصول إليها، لذا سمحْتُ لنفسي أن أطفو ثانية. وكان رايش قد عاد تواً. كانت تجربته مماثلة لتجربتي. وبينما نحن في انتظار عودة الآخرين بدأنا بمناقشة المشكلة. هل أنّنا نمر باضطراب عصابي هائل يؤثر في الجنس البشري كله؟

وبإحساس مليء بالإحباط واليأس عبرْتُ نحو الميسرة ونظرت باتجاه السطح الهائل والمشرق للقمر الذي كان يمتد تحتنا. وكُنّا في هذه الأثناء على بعد ثماني ساعات فقط منه. فنظرْتُ إلى مفاتيح القيادة للتأكد من أنّها تقوم بتعويض قوة جذب القمر الصناعي. وعندما فعلْتُ ذلك واتتني فكرة مدهشة: الجاذبية... القمر.

فالتفَتُّ إلى رايش وقلت:

– ربما كان ما سأقوله لك مجرد ظن سخيف... ولكن هل يمكن أن تستخدم الطفيليات القمر كقاعدة لها؟

فأجاب بانشداه :

– قاعدة!؟ وكيف تستطيع ذلك؟ إنّ القمر خال من البشر كما أنّها لا تعيش في الفضاء الخالي على حدٍّ علمنا.

فهززْتُ رأسي :

– إنّها مجرد فكرة لتفسير سبب الاضطراب الشديد الذي أصاب عقولنا. في هذه اللحظة وصل هولكروفت وأخبرته باختصار باكتشافنا. فأغمض عينيه وجلس فوق السرير وبسرعة أكّد أنّ الطبقات العليا للعقل كانت في حالة غريبة من الاضطراب. وبالرغم من أنّه لم يسمع سؤالي ، فإنّه التفت وأشار من الميسرة نحو القمر وقال :

– هو ذا. هناك ما يؤثر فينا وفي حركات المد.

فسألته :

– وكيف عرفت؟

فهزّ رأسه قائلاً :

– إنّني أشعر بقوة الجذب.

كان هذا محتملاً. مجانين... رجال تتأثر عقولهم بفعل قوة جاذبية القمر. ولكن لماذا؟ لماذا يتعيّن على القمر التأثير في العقل؟

وسألت هولكروفت :

– هل تعتقد بوجود طفيليات هناك؟

فهزّ رأسه وقال :

– لا أعرف ولكن بالرغم من ذلك ، فهو ذو علاقة بها. وقررنا أنّه من الأفضل إشراك الآخرين في النقاش معنا لأنّ المشكلة التي تواجهنا ، قد تلقي عليها بعض الأضواء أية أفكار أخرى. لهذا طلبْتُ من الجميع الانتباه وشرحْتُ لهم الأمر بصورة مختصرة جداً.

ولم يُقَدِّم سوى العالِم الفيزياوي النووي بيرجز اقتراحاً مثمراً إذ قال:

– هل اطّلعتم على أعمال الفيلسوف كورديف؟ لقد ذكر دوماً أنّ الجنس البشري ما هو إلا طعام القمر. وقارن الجنس البشري بقطيع من الأغنام تسمن من أجل إطعام القمر.

فسألت هولكروفت:

– هل يعني ذلك لك شيئاً؟

فأجاب بجدّية:

– نعم. ليس هناك أي شك في أنّ القمر يمارس ضغطاً هائلاً، غريباً على عقل الإنسان. وهذا لا علاقة له بالجاذبية. ونحن نعلم جيداً أنّ القمر لم يكن أبداً جزءاً من أجزاء الأرض أو الشمس – بل إنّه أتى من مكان آخر. لعله كان آخر مذنب وقع في أسر الأرض. إنّ مكوناته الكيميائية لا تشبه مثيلاتها في الأرض. والآن نعرف أنّ القمر يقوم بسرقة الطاقة البشرية... أو أنّه يؤثر فيها بطريقة ما.

فقال رايش:

– هل تقصد أنّه ربما كان قاعدة للطفيليات؟

– كلا لا أعتقد ذلك. بل ربما قامت الطفيليات باستخدام القمر بطريقة ما. إنّني أشعر بأنّ القمر يرسل طاقة مثيرة للاضطراب، طاقة عصابية، إنّه أشبه بمرسل هائل والأرض هي المتلقي.

وهنا أخذ الجميع يسهمون بإيراد بعض الأساطير التي تدور حول القمر لم يسبق لي سماعها من قبل. فأخبروني إنّ عبادة هوربيجر التي كان ينتمي إليها هتلر والتي تقول إنّ الأرض ستستولي على قمر جديد كل عشرة آلاف سنة أو ما يقرب من ذلك. واستناداً إلى هوربيجر فإنّ القمر الحالي هو السابع بالنسبة إلى الأرض. أما

الأقمار الستة الأخرى فقد سقطت على الأرض وتسببت في حدوث كوارث هائلة دمرت معظم الجنس البشري. والطوفان الذي ورد ذكره في الإنجيل كان سببه سقوط القمر السادس.

وذكر الآخرون نظريات أخرى حول القمر، بدا معظمها من السخف بحيث يصعب تصديقها. غير أنّ الحقيقة ظلت تتمثل في أنّني كنْتُ أدرك أنّ القمر كان يسبب درجة من الفوضى في المستويات السابقة للوعي في العقل. وأشار رايش أيضاً أنّ الطفيليات كانت تبدو في أقوى صورها أثناء الليل. وافترضت دوماً أنّ سبب هذا يرجع إلى أنّ العقل يصبح مرهقاً في نهاية اليوم، ولكن بالرغم من ذلك، فإنّني عندما أنام نهاراً في بعض الأحيان وأظل ساهراً أثناء الليل، أنتبه قليلاً للشعور المتزايد بضعفي خلال الليل.

وسألت هولكروفت:

— هل تعتقد أنّ من المحتمل أن تستخدم الطفيليات هذه الطاقة الغريبة التي يصدرها القمر وذلك لعرقلة توارد الأفكار عند البشر؟

غير أنّ هولكروفت شأن بقية الزملاء لم يعرف سوى القليل عن هذا الموضوع. ولكن بالرغم من ذلك ظلّ هناك أمر واضح جداً. يتعيّن علينا معرفة ما إذا كان في وسعنا الذهاب إلى ما وراء نطاق أثر الاضطراب هذا. وإذا كان القمر هو المرسل الهائل والأرض هي المتلقية الهائلة كما أشار هولكروفت، فإنّه يتعيّن علينا الخلاص من مدى كل منهما. وهذا يعني أنّ رحلتنا الحالية ينبغي أن يتغير اتجاهها. بعد أن أصبحنا على مسافة عشرة آلاف ميل من القمر فقط.

وبسرعة اتصلت بالعقيد ماسي في قاعدة أنابوليس وشرحت له أنّنا نريد تغيير مسار رحلتنا والتوجه عبر الفضاء الخارجي إلى وضع يقع بين المشتري وزحل. وقال ماسي إنّه لا يرى سبباً يمنعنا من هذا التغيير.

فالوقـود ما يزال يكفينا لمدة أسبوعين آخرين مما يعني أنّنا نستطيع المجازفة بـالطيران لمسافة ثلاثـة أربـاع مليون مـيل آخـر قبل العودة وأضاف ماسي أنّـه لـو كـان قـد عـرف بالأمر قبل الآن لأمر بتزويدنا بوقود يكفينا لقطع نـصف المسافة نحو المريخ. غير أنّي أوضحت له أنّ الابتعاد نصف مليون مـيل آخـر عـن الأرض يكفـي حاليـاً. وهـذا يعـني أكثر من ضعفي المسافة بين القمر والأرض.

وبـناء علـى تعليمات ماسي أجريت التغييرات الضرورية في أجهزة التحكم في العقل الآلي. وبعد ذلك انضممت إلى الآخرين لتناول العشاء اللذيذ.

في تلك الأثناء، كُنّا ننطلق نحو القمر ونتوغل في مناطق من الفضاء لم يـسبق لأي إنسان أن تجرأ علـى الوصـول إلـيها باستثناء طاقم السفينة المنحوسـة بـروكليس. وعلـى أي حـال، فإنّ مخاوفنا الأرضية زالت تماماً كما تزول متاعب العمل عند أول يوم من أيام العطلة.

في تلـك الليلة، استغرقْتُ في نـوم عمـيق هـادئ أكثر من أي وقت مـضى وعـندما استيقظْتُ نظرْتُ إلى سـاعتي وكانـت الـسابعة والنـصف تمامـاً. فحاولـت التذكـر وإيجـاد أي تفسير للـشعور الغامـر بالـبهجة الـذي انتابني:

هـل رأيْتُ حلماً جميلاً؟ ربما، فأنا لا أستطيع تذكر الأحلام نهائياً. ثـم نهـضْتُ واتجهْـتُ نحـو المؤخـرة فبدا القمـر بدراً هائلاً تظهر فيه الجبال بـصورة واضـحة. وعلـى بعـد ربـع مليون مـيل مـن القمـر بـدت الأرض بصورة هلال هائل الحجم لونه أخضر مائل إلى الزرقة.

أغمـضْتُ عينيّ واستغرقْتُ في التفكير. كان الجو هادئاً رغم وجود بعـض المطبات الـهوائية. وبـدا واضحاً لي أنّ السبب في هذه المطبات إنّما يعـود إلى القمـر نفـسه. غـير أنّ قـوته أصـابها الـوهن بعـض الـشيء. أمـا

النتيجة فكانت الإحساس بمتعة الهدوء الداخلي والحرية وهو يشبه الإحساس الذي ينتاب المرء حين يجتاز دور النقاهة. ثم أيقظْتُ رايش وهولكروفت ولاحظْتُ أنّهما كانا يبدوان منشرحين أكثر من السابق. ولم يقل أحدنا شيئاً لزميله بيد أنّ أملاً عظيماً كان يراودنا جميعاً.

ولم يحدث شيء في ذلك اليوم. فجلسنا وأخذنا نراقب القمر وهو ينحسر كما بدأنا بملاحظة الارتياح التام بالإحساس بالحرية وهو يزداد.

من ناحية، كان يوماً مليئاً بالنشاط لا يمكن قول أي شيء بصدده.

عند هذه النقطة أستطيع القول إنّ مشكلة اللغة أخذَتْ بالظهور. فالكلمات تبدأ بالفشل في التعبير لأنّ لغتنا الاعتيادية لا تستطيع أبداً وصف هذه التجارب. ولا أستطيع إلا أن أقدم هذا المثال لإيضاح المسألة. تصور أنّ بلداً يعيش فيه الأقزام ولديهم مرادفات عديدة لكلمة حجم: كبير، واسع، هائل، عظيم، ضخم... إلخ وأنّهم عندما يريدون وصف فكرة الضخامة يقولون ضخم كالإنسان. ترى ما الذي سيحدث بعد أن يختطف نسر أحد هؤلاء الأقزام ويحلّق به في الفضاء فوق جبل إفرست؟

كيف سيتسنى له إيجاد الكلمة المناسبة لتوضح أنّ الجبل من الضخامة بحيث إنّ الإنسان نفسه يبدو قزماً مقارنة به؟

تلك هي مشكلتي. إنّني لن ألجأ إلى الاستعانة بالمصطلحات الفنية لاستحالتها. إذ لا يوجد شيء يصعب على الوصف بالكلمات إذا ما توفر للمرء الوقت والشجاعة الكافية. وإذا كان الإطار اللغوي الحالي عندك يفتقر إلى الدقة، عندها يتعيّن ابتكار إطار أكبر بعناية.

بالرغم من ذلك، فإنّ القضية ليست واقعية في الوقت الحالي. إذ إنّ الوصف الدقيق لما حدث خلال الأيام العشرة التالية من شأنه أن يتطلب كتاباً ضخماً يمتلئ بالتناظر، وحقيقة الأمر أنّنا كُنّا ننطلق بعيداً عن نطاق طفيليات العقل، وهو أمر أدركناه منذ اليوم الأول.

إنّ الطفيليات ما تزال موجودة في دماغي وأستطيع أن أدرك ذلك بمجرد أن أغمض عيني وأستسلم للاستغراق في الأفكار. إنّني أعرف أنّها مخلوقات تتمتع بذكاء قليل. فلو كانت قادرة على التفكير المنطقي لأدركْتُ أنّنا سنعود إلى الأرض في غضون أسبوعين. وأنّه لا توجد أي صعوبة تواجه بقاءها على قيد الحياة. غير أنّها كانت في حالة رعب هائل يشبه الرعب الذي يجتاح طفلاً لدى مغادرته البيت.

لقد كانت الطفيليات موجودة على الأرض لفترة طويلة جداً وتنتقل بحرية من شخص إلى آخر. أما الآن، فهي تشعر بالارتباط النفسي بالأرض وقد أخذ يضعف بالتدريج مما يثير هلعها.

لم يكن بعضنا سعيداً جداً لهذا الأمر. فقد خلطنا بين خوف الطفيليات وخوفنا، وهو أمر طبيعي طالما أنّنا شعرنا بأنّ الخوف ينبع من أعماقنا فطرياً، وأنّه يتعيّن على من هم أكثر أعضاء المجموعة تجربةً، البقاء في حالة يقظة مستمرة للتأكد من عدم تعرض أي فرد من المجندين حديثاً لحالة الرعب. وأدركنا الآن طبيعة حمى الفضاء التي طالما أثارت الإحباط في جهود الإنسان للتوغل في الفضاء.

مع مرور الأيام أدركنا أنّنا قهرنا الطفيليات، وأنّ المسألة لا تعدو مجرد بعض الوقت لدفعها إلى الاستسلام. وكان كل يوم يضيف 120 ألف ميل للمسافة التي تفصل بيننا وبين الأرض. ولم يبقَ لنا سوى معرفة البُعد المطلوب عن الأرض لجعلها تنهار كلية.

وجدْتُ الآن أنّ في ميسوري الغوص في عقلي بسهولة أكبر. وأستطيع القيام بذلك دون بذل أي جهد ودون حتى إغماض عيني. أخيراً، أخذْتُ أفهم ما كان يقصده تيليارد دي شاردان عندما قال إنّ الموطن الحقيقي للإنسان إنّما يتمثل في العقل. لقد أصبحت قادراً على تحريك دماغي في جميع الاتجاهات تماماً كما يتحول الإنسان بسيارته في

الريف. كما استطعْتُ التجول في الطبقات السحيقة من العدم. وأدركت الآن أنّ تلك الطبقات أبعد ما تكون عن العدم. إنّني في الواقع أمتلك بعض الصفات المقرونة بالفضاء الخارجي كالهدوء والافتقار إلى التوتر. إلا أنّ هذا الهدوء يشبه هدوء قاع المحيط الهادئ. حيث يبلغ الضغط من الشدة يصعب معها على أي مخلوق البقاء حياً. لقد كان العدم مجرد طاقة حياتية خالصة، بالرغم من أنّ الكلمات أصبحَتْ الآن غير دقيقة مما يجعلها تفقد أي معنى.

كنْتُ أقضي أحياناً ساعات طويلة في بحر الظلمات هذا دون أن أقوم بأي عمل باستثناء التحليق. ويبدو هذا صعباً على الفهم لأنّنا أصبحنا أسرى الحركة لا سيّما وأنّ الطفيليات أشاعت الاضطراب في مسيرة الأفكار الاعتيادية لدينا.

غير أنّ الهدوء أمر طبيعي بالنسبة إلى الإنسان: الهدوء والهدوء التام. وكل شاعر يعرف هذا إذ في الهدوء يبدأ بفهم عظمة قدراته الباطنية الخلاقة أو روحه على حدِّ تعبير وردزورث. فإذا رميت حصاة في بحر فلن تحدث أي تأثير. أما إذا رميتها في بركة ماء. ففي وسعك ملاحظة الفرق بوضوح. لقد رأيْتُ قدرة الطفيليات على وضع عقل الإنسان في حالة اضطراب شامل وذلك من خلال التحكم في طاقات القمر المثيرة للقلق، وهذا هو السبب في أنّ الإنسان لم يستطع أبداً استغلال طاقاته الجبارة. إنّ الشعراء والعباقرة هم الأشخاص الوحيدون الذين يرتابون حتى في وجود مثل هذه الطاقات.

❖ ❖ ❖

حان الوقت لكي نتخذ قراراً. فقد مضى على وجودنا خارج الأرض عشرة أيام. وكان لدينا من الوقود ما يكفي للتوجه نحو أقرب قمر اصطناعي. كانت طفيليات العقل على وشك الانهيار التام. فهل

نستطيع يا ترى الاندفاع إلى نقطةٍ أبعد في الفضاء ما يعني أنّنا قد نفقد اتجاهنا؟ لقد توقفنا عن استعمال جميع المعدات الكهربائية حيث أدركنا أنّنا سنحتاج إلى الطاقة. وكانت في السفينة أشرعة ضخمة نُشِرَت حال مغادرتنا أجواء الأرض إضافة إلى أنّ ضغط أشعة الشمس عمل على دفعنا إلى الأمام. كما أنّ جزءاً كبيراً من الطاقة التي استُخْدِمَت في تشغيل مكائن السفينة كانت عبارة عن طاقة شمسية. بيد أنّ الأشرعة هذه، من شأنها أن تكون عديمة الفائدة في العودة إلى الأرض. صحيح أنّنا استخدمنا طاقة قليلة جداً لدى اندفاعنا إلى الأمام، ولم تكن أمامنا أية معوقات باستثناء قوة الجذب الموجودة في الكواكب البعيدة والنيازك، التي كانت تمرّ بجانبنا بمعدل اثنين أو ثلاثة في الساعة.

أخيراً قررنا القيام بالمجازفة. وعلى أي حال، فقد كان من المستحيل الشعور بالتشاؤم بشأن احتمال عودتنا إلى الأرض. لهذا السبب اندفعنا إلى الأمام، متجاهلين أي مشكلة ونحن ننتظر أن تفقد الطفيليات سيطرتها.

حدث هذا في اليوم الرابع عشر ولم يكن أحدنا يتوقع كيف سيتم ذلك. فخلال الصباح كنْتُ واعياً بالهلع الذي أصاب الطفيليات والكراهية التي كانت تضمرها لنا، وشعرْتُ أنّ عقلي أصبح مضطرباً أكثر من أي وقت مضى منذ مغادرتنا القمر، وكنْتُ أجلس مع رايش قرب مؤخرة السفينة وأحدّق في الأرض تحتي، وفجأة لاحت على وجهه أمارات الجزع كما أحسسْتُ بموجة من الهلع تنتابني. فنظرت إلى الخارج لأرى إن كان ثمة أي سبب دعاه للجزع. ولكن عندما نظرْتُ إليه ثانية وجدْتُ أنّ وجهه قد امتقع وبدا شاحباً جداً. ثم سرَتْ في جسده قشعريرة وأغمض عينيه لحظة وأخذ ينفجر في الضحك. غير أنّ ضحكته كانت تعبّر عن سعادة عظيمة. وفي تلك الأثناء انتابني إحساس

كاد أن يمزقني من الأعماق وشعرْتُ كأنّ مخلوقاً حياً أخذ ينهش أوصالي. وقد تساوى في ذلك العذاب العقلي والجسدي.

بدا من الواضح أنّني لن أستطيع النجاة. ثم سمعْتُ بعد ذلك رايش وهو يصرخ في أذني:

– كل شيء على ما يرام! لقد انتصرنا على الطفيليات وقد بدأتْ بالرحيل. غير أنّ العنف أخذ يكتنف الأمور. وبدأْتُ أشعر كأنّ شراً مستطيراً أخذ يشقُّ طريقه في أعماقي، وللحظة أدركْتُ أنّني كنْتُ على خطأ إذ تصوَّرْتُ أنّ الطفيليات كائنات منفصلة. فهي متحدة وتشبه الأخطبوط تماماً. وفي ميسوري أن أشعر الآن بمدى كراهيتها لي، تلك الكراهية التي تحتاج إلى كلمة جديدة نبتدعها لوصفها.

ثم أخذ ذلك الإحساس اللامتناهي والذي لا يمكن وصفه يتلاشى، غير أنّ ردَّ فعلي كان مختلفاً عن رد فعل رايش. إذ إنّ شعوراً بالسعادة والعرفان الذي انتابني كان من العنفوان بحيث شعرت كأنّ قلبي سينفجر كما أنّ عيناي اغرورقتا بالدموع، حتى أنّ ضوء الشمس أصبح وهجاً متألقاً ذكرني بالسباحة تحت سطح الماء عندما كنْتُ طفلاً صغيراً. ولما تلاشى ذلك كله، شعرت كأنّني أشبه بالمريض الذي يجتاز دور النقاهة بعد أن استأصل الأطباء منه ورما سرطانياً خبيثاً.

أما الآخرون فكانوا يتناولون الطعام في الغرفة المجاورة. اندفعنا إليهم وأخبرناهم بما حدث، الأمر الذي أثار دهشتهم وجعلهم يوجهون الأسئلة حيث إنّهم لم يشعروا بما شعرنا به. وأعتقد أنّ سبب ذلك يكمن في وضعنا – حيث كُنّا ننظر وراءنا نحو الأرض – ولهذا نصحنا الآخرين بالانتقال إلى أقصى السفينة حيث الظلام يغلّف المكان وذلك لكي نقوم برحلتنا الأولى نحو المنطقة الحرّة الجديدة من العقل.

❖ ❖ ❖

عند هذه النقطة بدأتُ أدرك أنّ كل ما سأقوله سيكون كذباً. ولهذا يتعيّن عليَّ بذل جهد خاص لكي أوضح بدلاً من محاولة جعل اللغة اليومية تقوم بوظيفة غير معنية بها البتة.

إنّ الحرية تمثل أهم تجربة يمكن للجنس البشري أن يمر بها. ففي الحياة الاعتيادية، نمارسها في كل لحظة عندما تستدعي بعض الظروف الطارئة منا تجنيد كل طاقاتنا بعد أن نصاب بالهزيمة. وما يحدث بعد ذلك هو أنّ العقل يصبح كالنسر غير مقيّد باللحظة الراهنة.

ولهذا فإنّ أعظم مشكلة بشرية تتمثل في أنّنا مقيدون بالحاضر. وسبب هذا أنّنا كالآلات وأنّ إرادتنا الحرّة متناهية في الصغر. كما أنّ جسمنا عبارة عن ماكينة معقدة أشبه بالسيارة. ولعل أفضل تشبيه هو أنّنا كالأطراف الاصطناعية التي يحملها الذين فقدوا ذراعاً أو ساقاً. إنّ هذه الأطراف بما فيها من وحدات طاقة لا تُغْني أو تتساوى في استجابتها مع الأذرع أو السيقان الحقيقية. وقد أخبرني أحد الأشخاص أنّ مَنْ يستخدم مثل هذه الأطراف لسنوات طويلة في وسعه أن ينسى تماماً أنّها أطراف غير حقيقية. ولكن في حالة حدوث عطل في وحدة الطاقة. فإنّ هذا الشخص سرعان ما يدرك أنّ أطرافه ليست سوى آلات، وأنّ قوة إرادته تلعب دوراً تافهاً في حركتها.

إنّ هذا يصح علينا جميعاً. إنّنا نملك قوة إرادة أقل بكثير مما نتصور وهذا يعني أنّنا لا نملك تقريباً أي حرية حقيقية. ولا تكاد توجد أهمية لمثل هذا الأمر في معظم الأوقات لأنّ الآلة — وأقصد أجسادنا وعقولنا — تنفّذ ما نطلب على أي حال: الأكل والشرب والإفراغ والنوم وممارسة الجنس وغير ذلك.

لكنّ الشعراء والصوفيين تنتابهم لحظات من الحرية عندما يدركون فجأة أنّهم يريدون من الآلة القيام بأمر أكثر أهمية. فهم يريدون من

العقـل أن يغـدو قـادراً علـى فـصل نفـسه عـن العـالم في أسـرع وقـت والتحليـق فـوقه. كما أنّ اهتمامنا ينـصبّ عـادة على التفاصيل الدقـيقة والأشياء الحقيقية الكائنة من حولنا كالسيارة المتأهبة للسير. وفي بعض الأحيان نكون في حالة وقوف. إنّ العقل يتوقف عن الاهتمام بالتفاصيل التافهة ويجد نفسه حراً. وبدلاً من أن يكون مفيداً بالواقع الممل للحاضر. نجده حراً في اختيار الواقع الذي يفضل التأمل فيه.

منـذ بدايـة شـهر آب — عـندما شـرعْتُ لأول مـرة بقـراءة **الـتأملات التاريخية** لكـارل — أخـذْتُ أعي باستمرار احتمالات حريتي الشخصية، الأمـر الـذي يعني أنـّني كسرْتُ الطوق الـذي يـربط معظـم أبناء الجنس البـشري. لقـد ظلّتْ الطفيليات تعتمد اعتماداً أساسياً على العادة والجهل مـن أجـل إبقـاء الجنس البـشري مـصفداً بـالأغلال. غـير أنّها عمدت إلى توطـيد نفـسها في أعمـاق سـحيقة مـن الـنفس البـشرية حـيث تـستطيع امتصاص الطاقات التي يحصل عليها البشر من الينابيع الأساسية.

ويتعيّن علـيَّ أن أوضـح هـذه الـنقطة بـشكل أفـضل. فلـو لم يكـن الإنسان حيواناً متطوراً، فإنّ الطفيليات كانت ستجد فيه مضيفاً دائماً. ولكـن تكـون هنـاك أي فرصـة أمـام الإنـسان لاكتـشاف وجودها. غير أنّ نـسبةً ضـئيلةً مـن الجـنس البـشري لا تـتجاوز العـشرين بالمئة، عـبارة عن حيوانات متطورة تتمتع بدافـع قـوي لأن تغـدو حـرّة حقاً. ويتعيّن فصل هـؤلاء الأشـخاص، لهـذا الـسبب ينبغـي علـى الطفيلـيات الانـدفاع نحـو سطح العقل واصطناع الدمى لها. وبهذا الشكل سلمت أنفسها.

❖ ❖ ❖

ذكَـرْتُ أنّ الإنـسان يـستمد قـواه مـن مـصدر حيـاتي سـري يكمـن في أعمـاق وجـوده. ويعتـبر هـذا المـصدر مركـز الجاذبية الذي يصون الإنسان ووجوده الحقيقي. إذ لا يمكن تدميره تماماً ولهذا فإنّ الطفيليات غير قادرة

على الوصول إليه. وكل ما في استطاعتها القيام به امتصاص القوة من هذا المصدر العميق باتجاه الوجود الواعي للإنسان.

أستطيع الآن أن أوضح شيئاً عن الاكتشاف الذي توصّلْتُ إليه عندما قمت بمحاولة جديدة للدخول إلى أعماقي.

لقد لاحظْتُ أولاً هدوءاً غريباً يلفّ دماغي ولم أعد أحس بأي اضطراب. يرجع السبب في هذا إلى أنّ دماغي قد أصبح خالياً من المتطفلين وأصبح أخيراً ملكوتي الخاص.

وقد غيّر هذا كثيراً من أحلامي وذكرياتي. إنّ كل من حاول النوم ودماغه مصاب بالإعياء الشديد أو بالحمى، يعلم جيداً ذلك الشعور الرهيب، عندما تصبح جميع الأفكار وكأنّها أسماك تندفع بسرعة عظيمة وتبدو غريبة، كما أنّ أعماق الرأس التي يفترض فيها أن تكون مناطق خاصة ورائعة، تشبه مدينة الألعاب المكتظة بالغرباء. إنّني لم أدرك إلا في هذه اللحظة مدى احتشاد الدماغ بمثل هذه الطفيليات. إذ أصبح الآن هادئاً جداً. كما أنّ ذكرياتي أصبحت منظمة وكأنّها أشبه بصف من الجنود يقفون استعداداً لأداء التحية. وأستطيع بإشارة مني أن أجعل أي واحد منهم يتقدم خطوة إلى الأمام. لقد أدركْتُ حقيقة أنّ كل ما حدث لنا إنّما هو مخزّن في الذاكرة. ففي ميسوري تذكر أيام طفولتي الأولى تماماً كما أتذكر ذكريات الأمس. إضافة إلى ذلك، فإنّ ذكريات الحياة السابقة ترتبط الآن بسلسلة طويلة من ذكريات حياتي الراهنة. لقد كان عقلي أشبه ببحر هادئ تنعكس فيه السماء شأن المرآة، كما أنّ مياهه من الوضوح بحيث يمكن رؤية القاع.

ما أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر هو القوة الهائلة للكائنات البشرية وقدرتها على البقاء حية. إنّ الكائنات البشرية لا بد أن تكون من أقوى الأنواع في الكون.

أخـذْتُ الآن أهبط بدماغي كالرجل الذي يتجول في قاعات إحدى القـلاع. وللمرة الأولى. عـرفْتُ مـا الذي كنْتُ أمثله. كنْتُ أعرف أنّ هذا الإنـسان هـو أنـا شخـصياً. لم يعد هناك وجود لبحر الظلمات والعدم. لم تكـن هناك أية عوائق أمام اندفاعي إلى تلك الأعماق السحيقة من العقل الـباطن. وهـنا بـدأْتُ أفهـم أمراً يستحيل التعبير عنه. ليس هناك أي سبب يدعـو إلى الـتوغل إلى أعمـاق أشـد، حيث الحياة الخالصة ولكن بالرغم من ذلك تحتوي الموت. موت الجسد والوعي.

إنّ مـا ندعـوه الحياة علـى الأرض لـيس إلا مـزيجاً مـن قـوى الحـياة الخالـصة والجسد. إنّـه ارتـباط بين الحياة واللاحياة. أقولُ اللاحياة وليس المادة لأنّ المـادة مـن شـأنها أن تكون كلمة غير صحيحة. فكل مادة تكون حيّة طالما هي موجودة. والكلمة الأساس هنا هي الوجود. إذ لا يستطيع أي كـائن فهـم كلمة الوجود لأنّـه موجود فيه، غير أنّ كون المرء موجوداً لا يُعْتَبَرُ صـفة سـلبية، بـل هـو الانـدفاع مـن اللاوجود. إنّ الوجود نفسه يمثل صرخة إثبات، والوجود يعني اللاوجود.

في وسـعك أن تلاحـظ أنّ المشكلة بـرمتها تـتعلق باللغة، وقد كنْتُ مـضطراً لاستخدام كلمة أو كلمتين لتفيا بالغرض، في الوقت الذي كنْتُ أحتاج فيه إلى حـوالى خمـسين كلمـة. ولا يشبه هذا تماماً وصف الألوان لـشخص أعمـى، إذ لا يـوجد كـائن بـشري أعمـى تماماً. إننا جميعاً نملك قدراً من الحرية. غير أنّ للحرية ألواناً متعددة كالمنشور.

فلـدى محـاولتي الغـوص إلى مـنابع حياتـي، كـنْتُ أتـركُ ورائـي ملكـوت الوجـود إذ إنّ النـبع هـذا غير موجـود. مما يعـني أنّـهـا لـيست موجودة خارج الوجود.

هـذه كلـها حـرية. لقـد أصـبح عقلـي مُلْكـاً لي كما أنّني أول رجل أحقـق هـذا الـتفوق. ولكـن بالـرغم من ذلك يتعيّن عليَّ التخلي عن هذه

التأملات المثيرة، والتفكير بدلاً من ذلك في المشكلة التي جاءت بنا إلى الفضاء الخارجي: الأرض وطفيليات العقل. لهذا فقد عدْتُ مضطراً إلى السطح. وعندما نظرْتُ إلى رايش بدا كأنّه شخص غريب ووجدته ينظر إليَّ بالطريقة ذاتها. تبادلنا الابتسامات كأنّنا ممثلان فرغا تواً من التدرّب على مشهد يقومان فيه بدور عدوّين. وسألته:

— ما الذي يحدث الآن؟

لكنه سأل:

— إلى أي مدى وصلت؟

— ليس بعيداً. إذ لا فائدة من ذلك.

— ما هي القوة التي نستطيع أن نستمدها؟

— إنّني لست واثقاً. وأرغب في استشارة الآخرين.

ذهبنا إلى الغرفة التالية فوجدنا أنّ خمسة عشر فرداً تخلصوا من طفيلياتهم، وصاروا يساعدون الآخرين في ذلك. وكان بعض المجندين الجدد في حالة صراع عنيف بحيث إنّهم كانوا على وشك تدمير أنفسهم، تماماً كالأم التي تتلوى على الأرض ساعة الولادة. وقد تطلّب مِنّا بعض الجهد العمل على تهدئتهم طالما أنّه لا فائدة من استخدام القوة التي كان من شأنها زيادة رعبهم. واستمر أحد الرجال يصرخ قائلاً:

— حوِّلوا مسار السفينة! حوِّلوا مسار السفينة! إنّها تكاد تقضي عليَّ.

كان من الواضح أنّ المخلوق الكائن في أعماقه يسعى إلى إجباره على حثّنا على الرجوع إلى الأرض. ولم يتحرر تماماً إلا بعد مرور عشرين دقيقة وبلغ من الإعياء بحيث إنّه استغرق في النوم فوراً.

في الساعة الثامنة مساءً، انتهى كل شيء. فقد كان الدوار الذي أصاب معظم المجندين الجدد من الشدة، بحيث إنّهم لم يستطيعوا

التحدث إلا نادراً. لقد أدركوا أنّهم ليسوا أنفسهم وكان يتعيّن عليهم اكتشاف ذواتهم.

في جميع الأحوال، فإنّ عشرة مِنّا كانوا يتمتعون باتزان كامل. وعرفنا الآن أنّه لا توجد أي مشكلة بخصوص وقود المركبة. فقد كانت قوانا الخارقة في وضع يمكّنها من قيادة السفينة إلى أماكن نائية مثل بلوتو، وبسرعة تفوق السرعة الحالية بثلاثة آلاف مرة. غير أنّ هذا لن يحقق أي هدف. إذ ينبغي علينا العودة إلى الأرض واتخاذ قرار حول الأسلوب الذي سنطبقه في حربنا ضد الطفيليات. ليس من الصعب تدمير كاف وهازارد غير أنّ هذه ستكون مجرد مهمة مؤقّتة. إنّ الطفيليات تستطيع ابتكار أكثر من كاف وهازارد في أي وقت تشاء. ولا نستطيع أن نقضي على جميع أتباعهم أو العمل على إعادة برمجة أدمغتهم. لذا ينبغي علينا ممارسة هذه اللعبة وفق قواعد الطفيليات نفسها. إنّها أشبه بلعبة شطرنج، والكائنات البشرية فيها تمثل البيادق.

لقد ناقشنا المسألة برمتها طيلة الليل دون التوصل إلى أي خطة محددة، وانتابني الشعور بأنّنا نسير في طريق خاطئ تماماً. لقد كُنّا نفكر بأسلوب العموميات حول الطفيليات ولكن لا بد من وجود طريق آخر.

في الساعة الثالثة صباحاً، أيقظني رايش أو أنّ عقله هو الذي أيقظني لأنّه كان موجوداً في الغرفة المجاورة، وقد كُنّا مضطجعين في الظلام ونتحدث بواسطة التخاطر، لم يكن رايش قد استسلم للنوم بعد. كان يسترجع أفكاره ببطء أو بطريقة منظمة حول المشكلة كلها.

قال:

— لقد كنْتُ منهمكاً في إيجاد الصلة بين كل الأشياء التي نعرفها حول هذه المخلوقات ووجدْتُ ما يثير حيرتي. لماذا تكره الطفيليات مغادرة الأرض؟ وإذا كانت موجودة في الدماغ. فإنّ ذلك لن يؤثر في وضعها البتة.

فأجبت:

– لأنّها موجودة في مستوى من العقل مألوف للجميع.

– ليس ذلك هو السبب. إنّ المسافة لا تمثل أي فارق بالنسبة إلى الفكر، فأنا أستطيع الاتصال تخاطرياً مع شخص موجودٌ على الأرض بالسهولة نفسها التي أستطيع القيام بها معك. في تلك الحالة، فإنّه يتعيّن عليها أن تكون في وضع مريح سواء أكان هنا أم في الأرض.

فسألته:

– ما الذي تعتقده؟

– أعتقد أنّ للأمر صلة بالقمر.

– هل تعتقد أنّها تستخدمه كقاعدة لها؟

– كلا. فالأمر أشد تعقيداً من ذلك. أصغ إليَّ وقل لي إن كان الأمر يبدو معقولاً لك. ولنبدأ من قادش. فنحن نعلم أنّ كل ما يتعلق بموضوع أولئك الأجداد العظام غير صحيح. ولنفرض لهذا السبب عدم وجود علاقة بين طفيليات العقل وقادش – أي أنّها تستخدمها لصرف الأنظار – لكي تجعل الإنسان يفتش عن أعدائه خارج نفسه. لعل هذا صحيح الآن ولكن بالرغم من ذلك، ألا تعطينا قادش بعض الدلائل؟ إنّ الشيء الأول الذي تثبته بشكل قاطع أنّ تقويم التاريخ البشري الاعتيادي عبارة عن غلطة. فاستناداً إلى علم طبقات الأرض، فإنّ عمر الإنسان حوالى مليون سنة. وهذا يعني أنّنا لم نعثر على أية آثار بشرية تعود إلى زمن أقدم من ذلك.

هنا ذكّرْتُ رايش قائلاً:

– تشير أقدم الآثار إلى أنّه لم يتطور إلى ما هو أبعد من القرد قبل مليون سنة.

– مَنْ لم يتطور؟ إنسان بكين؟ أنّى لنا أن نعرف أنّه النوع الوحيد من البشر؟ ثم لا تنسَ أنّ الرومان كانوا على درجة عالية من المدنية، عندما كان البريطانيون مجرد عبيد. كما كان الحثيون متمدنين عندما كان الرومان والإغريق ما يزالون عبيداً – إنّ الأمر نسبي. فالمدنية تميل إلى التطور في جيوب صغيرة. إنّ الشيء الوحيد الذي نعرفه عن عملية النشوء هو أنّها تفضل الذكاء. لماذا إذاً يتعيّن علينا الافتراض أنّ الإنسان لم يظهر إلا قبل مليون سنة؟ إنّنا نعرف أنّ الديناصورات والماموث والدببة العملاقة – بل وحتى الجياد – عاشت ملايين السنين قبل ذلك. إنّ تاريخ الإنسان لا بد أن يكون أعرق من ذلك بكثير، إذ لا يعقل أنّه ظهر من اللاوجود.

– أنْتَ تتّفِقُ معي في أنّ وجود قادش يبرهن على هذه النظرية. أما النظرية البديلة الوحيدة فهي أنّ سكان قادش أتوا من كوكب آخر.

– لهذا فنحن نعترف أنّ عمر الإنسان أكبر بكثير من مليون سنة. وهذا يشكّل مشكلة لمعرفة السبب في عدم تطور المدينة بسرعة، وهنا أجد نفسي ميالاً مرة أخرى إلى تركيز اهتمامي على الأساطير المختلفة التي تدور حول دمار العالم، الطوفان وما أشبه. لنفرض أنّ مختلف حالات الهوس القمري صحيحة وأنّ هناك شيئاً من الحقيقة في الفكرة القائلة إنّ الطوفان العظيم كان سببه القمر المنعكس على الأرض.

لم أكن أتابع كلام رايش تماماً. إذ لم أفهم مدى علاقة هذه التكهنات بطفيليات العقل.

– لو قمنا بإيجاد علاقة بين مختلف الأساطير الخاصة بالطوفان، فإنّنا سنتوصل إلى نتيجة مفادها أنّ الطوفان حدث في وقت متأخر نسبياً من تأريخ البشر، ولنقل قبل حوالى خمسة آلاف سنة. ولنفرض بعد ذلك أنّ الطوفان حدث بسبب دوران القمر في مدار قريب من الأرض

كما أشار هورييجر. فهل يعني هذا أنّ قمرنا الحالي كان يدور حول الأرض منذ سبعة آلاف سنة فقط؟

– ذلك محتمل ولكن من خلال عملك كعالِم آثار، هل تعتقد أنّ هناك أي دليل واضح يعزز هذه الفكرة، أم أنّ الأمر لا يعدو كونه تخمين؟

– أعتقد أنّ هناك دليلاً واضحاً. وقد شرحْتُ ذلك في كتاب وضعْتُهُ قبل عشرين سنة. غير أنّني ما أزال غير قادر على فهم علاقة هذا كله بالطفيليات.

– سوف أخبرك. لقد آلمتني هذه المسألة المتعلّقة بأصل الطفيليات. لقد أوْرَدَ وايزمان أنّه يعتقد أنّ الطفيليات هبطت على الأرض قبل حوالى مائتي سنة؟ ولكنّنا نعرف أنّها لا تحب الفضاء الخارجي. فمن أين أتت إذاً؟

– من القمر.

– ربما. بيد أنّ ذلك ما يزال يعني أنّها تستطيع العيش خارج عقل الإنسان.

فجأةً أدركْتُ مغزى كلامه. لقد أصبح لدينا الآن دليل مهم حول أصل الطفيليات.

– إنّها لا تحب العيش بعيداً عن حشود الجنس البشري. ما هو السبب في ذلك يا ترى؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال بسيطة جداً. فهي لا تستطيع ذلك، لأنّها كانت أساساً من البشر. والدليل على هذا يكمن في أول جملة في كتاب وايزمان **تأملات تاريخية** التي يقول فيها: "إنّني أعتقد أنّ الجنس البشري يتعرض للهجوم بواسطة نوع من أنواع سرطان العقل" إنّ السرطان لا يستطيع البقاء بعيداً عن جسد الضحية. ولكن ما هو سبب سرطان البدن؟ هذه هي إحدى المشاكل التي يتضح جوابها لأي فرد سبق له أن قام بالغوص داخل عقله. وهي تنشأ عن المصدر ذاته الذي

يسبب انفصام الشخصية. إنّ الإنسان أشبه بقارة من القارات غير أنّ عقله الواعي ليس أكبر من حديقة خلفية، وهذا يعني أنّ الإنسان يتألق كلّياً تقريباً عبر إمكانيات غير معروفة. إنّ الذين يصطلح على تسميتهم بالأشخاص العظام، هم الرجال الذين امتلكوا الشجاعة لتحقيق بعض هذه الإمكانيات.

إنّ الإنسان الاعتيادي من الجبن والخوف بحيث لا يقدر على بذل المحاولة، حيث نراه يفضل الأمان الذي توفره الحديقة الخلفية على كل شيء.

أما انفصام الشخصية، فيحدث عندما تقوم بعض هذه الإمكانيات غير المتحققة بالانتقام. وهكذا، على سبيل المثال، فإنّ الرجل الخائف الذي يتمتع بدافع جنسي قوي يسعى إلى كبته، يستيقظ ذات يوم ليجد نفسه وقد قام بعملية اغتصاب جنسي، وهو يحاول تبرير فعله بقوله إنّ شخصاً آخر استحوذ عليه وارتكب العملية. غير أنّ هذا الآخر هو في الواقع الشخص نفسه بل هو جزء منه، لكن لم يستطع إدراكه بسبب خوفه الشديد.

إنّ السرطان يحدث بواسطة الإمكانيات غير المتحققة التي تمارس الانتقام. فقد لاحظ الباحثون الأوائل في هذا الميدان أنّه مرض من أمراض الإحباط أو الشيخوخة.

إنّ الأفراد الذين يملكون الشجاعة لتحقيق ذواتهم لا يموتون بسبب السرطان. بينما نجد الرجال الذين لديهم مثل هذه الإمكانيات، غير أنّهم يفتقرون إلى التعبير عنها يشكلون نسبة كبيرة من مرضى السرطان. حيث إنّ عدم ثقتهم بالحياة يسمّم أرواحهم.

إنّ السرطان وانفصام الشخصية يصبحان مستحيلين حالما يعرف الإنسان كيف يغوص إلى أعماقه حيث يصبح من المستحيل على جيوب الإحباط هذه النمو.

بمعنى آخر، فقد كان وايزمان على صواب، حيث إنّ الطفيليات ظهرت فعلاً قبل قرنين تقريباً. إذ كان الرجال في القرون السابقة لهذين القرنين منهمكين بقضية تماسك الروح والجسد، بحيث لم يكن لديهم الوقت للإحباط. كانوا أكثر اتحاداً من الإنسان الحديث. وقد اعتمدوا على غريزتهم أكثر. ثم وصل الإنسان إلى مستوى من الارتقاء، تطلّب منه أن يصبح على درجة أكبر من الوعي والثقافة والنقد الذاتي. إنّ الفجوة القائمة بين مستواه الواعي والغريزي أخذت تزداد. فجأةً لم يعد السرطان وانفصام الشخصية من الأمراض النادرة بل على العكس أصبحت شائعة. ولكن ما هو دور القمر في هذا كله؟

يقدّم لنا السرطان الدليل مرة أخرى. فهو يعزى إلى هبوطٍ عام في درجة الحيوية التي يسبّبها الإحباط أو الشيخوخة. غير أنّ هذا الأمر وحده لا يكفي كبداية لتكَوُّن السرطان، إذ يتطلب وجود عامل آخر كالكدمة مثلاً. فإذا اعتبرنا الحياة نوعاً من القوة الكهربائية التي تسكن جسد الإنسان، تماماً كما تسكن المغناطيسية في المغناطيس، نستطيع القول إنّ المنطقة المصابة بالكدمة لم تعد قادرة على نقل التيار المغناطيسي ذاته كما هي الحال مع بقية المناطق. ولهذا تتدهور إلى مستوى أدنى وتأخذ بتوليد نوع من انفصام الشخصية نفسها.

لقد كانت نظرية رايش حول الطفيليات تتلخص بما يلي:

قبل حوالى عشرة آلاف سنة، انسحب القمر ببطء نحو الأرض بفعل جاذبيتها. ولعل هذا القمر هو الثالث أو الرابع التابع للأرض. وقد استغرق الأمر ألفي سنة قبل أن يصطدم القمر بالأرض ويتحطم. أما البحر الذي انحسر قرب خط الاستواء بفعل جاذبية القمر، أصبح قادراً الآن على الاندفاع فوق اليابسة بموجات هائلة، محطماً في ذلك كل مظاهر المدنية باستثناء قادش التي دمرت بفعل قمر سابق. وظلت الأرض ألف سنة تقريباً

بلا قمر وبلا حياة تذكر، إلا أنّها سرعان ما جذبت قمراً آخر نحوها هو القمر الحالي. غير أنّ هذا القمر يمتاز بخطورته الكبيرة، حيث يتمتع بقوى راديوية مشعّة غريبة، في وسعها توليد الاضطرابات في عقل الإنسان.

إنّ جميع النظريات الخاصة بأصل هذه القوى ما هي إلا مجرد تخمينات، وإنّ نظرية رايش التي تشبه كثيراً نظريتي تتلخص بالآتي:

لقد كان القمر ذات يوم جزءاً من كوكب آخر لعله الشمس، وكانت تسكنه مخلوقات ليس لها أجساد بالمعنى المادي. وقد اعتاد العلماء على التصريح بأنّ كواكب معينة لا يمكن أن تكون فيها حياة، لأنّ الحياة لا يمكن لها أن تستمر في ظلّ الظروف الموجودة فوق سطح هذه الكواكب. واكتشف العلماء أنّ الحياة يمكن أن تحصل على موطئ قدم لها حتى في أقسى الظروف. كما أنّ الحياة التي تحصل على موطئ قدم لها في الشمس، من شأنها أن لا تكون بالتأكيد حياة مادية بالمعنى الذي نفهمه.

وقد تسبب نيزك عابر في اقتطاع جزء هائل ومشتعل من الشمس، مما جعل الغازات الحارقة تتكاثف في القمر كما نعرفه اليوم وتعمل على القضاء على سكانه. وطالما أنّ هؤلاء السكان لم يكونوا يتمتعون بأجساد مادية بالمعنى الذي نعرفه، فهم لا يموتون بالطريقة الاعتيادية، لهذا فقد حاولوا التكيّف مع الأجسام الباردة في عالمهم وأصبحوا بذلك جزءاً من البناء الذري للأجسام الصلدة، تماماً كما كانوا ذات يوم جزءاً من تكوين القارات الحارة.

هكذا يظل القمر مشعاً حياة غريبة. ولو لم تأسر الأرض القمر فإنّ من شأن مثل هذه الحياة الغريبة أن تكون قد ماتت منذ زمن بعيد، لأنّ الحياة لا يمكن أن توجد إلا في الأماكن التي يعمل فيها القانون الثاني من علم الديناميكا الحرارية، أي حيثما تنتقل الطاقة من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى لها. غير أنّ القمر ظلَّ محتفظاً بحيويته بفعل قربه من

الأرض، ذلك الكوكب الذي يشعّ بالطاقة والحياة. ومع تمكّن الجنس البشري من الحصول، وببطء على موطئ قدم على الأرض، أخذ الإنسان يعي غريزياً الوجود الحي للقمر.

هنا كما أظن تكمن الإجابة على السؤال الخاص بأصل الطفيليات والمادة المسببة للسرطان... إنّ الأشكال البدائية من الحياة كالأسماك واللبائن لا تتأثر بمن يراقبها؛ فهي تحيا في مستوى غريزي، ويبدو الوجود الغريب مجرد مسألة طبيعية بالنسبة إليها.

غير أنّ الإنسان أخذ يصبح تدريجياً سيّد الأرض، وتمّ له ذلك بفعل تطوير ذهنه وعقله الواعي، ولهذا فقد أصبح مفصولاً عن دوافعه الغريزية. وهكذا أخذ الإحباط يزداد ليتحول إلى جيوب عنيفة صغيرة من الطاقة المكبوتة. في هذه النقطة نفسها فإنّ الإثارة التي يحدثها القمر والضغط النفسي المستمر لحياةٍ نصف مجمدة تأخذ بإحداث تأثيراتها المتوقعة.

عندئذٍ يبدأ تطور سرطان الدماغ.

❖ ❖ ❖

يبدو كل هذا التنظير مستنداً إلى دليل واهٍ. غير أنّ ذلك ليس صحيحاً، فهو يستند إلى المنطق ويبدأ من ذلك السؤال المحيّر: لماذا ظلت الطفيليات تخاف الفضاء الخارجي؟

والإجابة التي توحي بنفسها حالاً هي أنّ الإنسان عندما يبدأ بفقدان الاتصال مع الكائن الكامن في داخله ومع أعماقه الغريزية، فإنّه يجد نفسه في فخ عالم الوعي أي في عالم الناس الآخرين. ويعرف كل شاعر هذه الحقيقة، فعندما يسبب له الآخرون الملل، نراه يرجع إلى مصادر القوة الخفية في أعماقه، عندها يعلم أن لا أهميّة للآخرين. ويعلم أنّ الحياة السرية في أعماقه هي الواقع، أما الآخرون فليسوا سوى ظلالاً مقارنةً به. غير أنّ هذه الظلال تتماسك بعضها ببعض... لقد أشار

أرسطو إلى أنّ الإنسان حيوان مُسَيَّس وهو بهذا يشير إلى أعظم كذبة في تاريخ البشرية، لأنّ الإنسان على صلة بالتلال والنجوم، أقوى بكثير من صلة بني جنسه من البشر.

إنّ الشاعر كائن أقل أو أكثر تماسكاً. فهو لم يفقد اتصاله بقواه الداخلية لكنّ الأشخاص الآخرين أو الظلال، هم الذين يتعرضون للإصابة بسرطان العقل. فالمجتمع الإنساني بالنسبة إليهم يمثل الواقع، وهم يولون أهمية كبيرة لقيمته الشخصية التافهة. ولما كانت الطفيليات انعكاساً لهذه المخلوقات، فهل مما يدعو إلى الدهشة أنّ الطفيليات نفسها تتشبث بالمجتمع الإنساني؟ إنّها لا تحظى بأي مكان في سفينتنا الفضائية لأنّنا جميعاً نعرف السر وهو أنّ الإنسان ليس وحيداً أبداً، لأنّه على صلة مباشرة بمجمل القوة في الكون.

هذا يعني أنّه حتى لو لم نذهب إلى العالم الخارجي، فإنّ عقولنا من شأنها ألا تصبح مأوىً للطفيليات. فالسرطان أخذ يموت فينا جوعاً بالتدريج.

عجّلت رحلتنا الفضائية بعملية الموت. وعندما انفصلنا عن بقية البشر، كان إحساسنا الأول يتمثل في الخوف والوحدة وكأنّنا أطفال، انفصلنا عن أمهاتنا لأول مرة، وفي تلك اللحظة يواجه المرء السؤال الأعظم: هل إنّ الإنسان حقاً مخلوق اجتماعي ليس له وجود منفصل عن بقية الناس؟ وإن كان هذا صحيحاً، فإنّ قيمنا الإنسانية كلها باطلة: الخير، الصدق، الحب والدين وغيرها، لأنّ هذه القيم مطلقة. من حيث التعريف وأكثر أهمية من بقية البشر.

سبب هذا الجزع حالة ارتداد جديدة إلى الداخل، أي مصدر القوة والمعنى والهدف. إنّ أسلاك الهاتف المزيفة التي تربطنا بعضنا ببعض، لم تعد لها أي أهمية. ولكنّها مهمة جداً عندما ندرك أنّها قيم خالدة.

ذلك هو السبب الذي جعل الطفيليات مضطرة إلى تركنا. **فكلما** توغلنا في الفضاء كلما ازداد يقين **مواجهتنا لتلك الحقيقة القائلة إنّ بقية** البشر لا يوفرون لنا قِيَمَنا. والإنسان ليس وحيداً، **إذ في وسعك أن تكون** آخر رجل حي على وجه الأرض إلاّ أنّ ذلك **لا يعني أنّك ستكون وحيداً.**

تجاذبْتُ أطراف الحديث مع رايش طيلة تلك الليلة وعندما أصبحت الساعة تشير إلى أنّ الفجر قد بزغ على الأرض، حدث شيء ما لكلينا. فخلال الساعات القليلة الماضية كُنّا قد تغيرنا. لقد تحولت الشرنقات إلى فراشات.

لم نعد ننتمي إلى الأرض، فقد أصبح الفضاء الخاوي من حولنا، يمثل بيتنا تماماً كما كان الحال معنا عندما كُنّا على الأرض. كان هذا الأمر يثير فينا الخوف قليلاً. إذ يشعر المرء كأنّه شحاذ ورث فجأة ثروة طائلة. حيث ينظر ملياً إلى صفوف الخدم الذين ينتظرون تنفيذ أوامره، ويفكر في الأشياء التي سيتمكن من الحصول عليها بكل هذه الأموال، كما ينظر إلى الأراضي الشاسعة التي أصبحت الآن ملكه... وهو يفكر: إنّه يعيش في دوامة معينة. فهناك أمور كثيرة تتطلب الغوص والتعمق، أمور كثيرة نجهلها تماماً. ولكن قبل كل شيء هناك مهمة أخرى أمامنا وهي اطلاع الآخرين على معلوماتنا الجديدة.

وبالرغم من أنّ الأرض لم تعد موطننا فليس هناك شك بما نعتزم القيام به مستقبلاً. لقد أصبحنا شرطة الكون.

توجهْتُ إلى لوحة السيطرة الآلية. قبل أسبوع من الزمن كان يتعيّن عليَّ الحصول على تعليمات مفصلة من العقيد ماسي، أما الآن فقد أصبح كل شيء سهلاً جداً. إذ بحركة سريعة قمت بالتعديلات الضرورية وضغطت على أزرار إعادة البرمجة، وهنا ضمّت السفينة أجنحتها. أطلقْتُ صاروخ الدَوَران فأخذت السفينة تدور ببطء وبرفق مما جعل

الآخرين يستيقظون ويأتون إلينا حالاً لمعرفة ما حدث. فقلْتُ لهم: إنّنا عائدون إلى الأرض، ساعدوني في جعل السفينة تسير بسرعة أقصى.

فما كان منّا الآن إلا أن ركّزنا أذهاننا وأخذنا نعمل على توليد تيار إرادة بديل. ببطء سمحنا لهذا التيار الانزلاق على ظهر السفينة. بدا الأمر وكأنّ يداً عملاقة قد أطبقت على السفينة. وشعرنا بازدياد السرعة. كانت القوة التي أحدثناها تساوي قوة عشر قنابل هيدروجينية، ولهذا يتطلب الأمر المزيد من العناية لدى ابتكارها وإلاّ أدى ذلك إلى تحطيم السفينة وتحويلها إلى ذرات تراب في الكون.

إنّ وجودنا في سفينة فضائية صممها على ما يبدو بعض المجانين، وعلى بُعْدِ مليوني ميل من الأرض، يحمل في طياته شيئاً من المتعة. واتفقْتُ مع رايش أنّ أول عمل يتعيّن علينا القيام به حال وصولنا الأرض هو أن نبيّن لهؤلاء المجانين كيف تُصْنَعُ سفينة فضاء حقيقية.

كُنّا نسير بسرعة مائة ألف ميل في الساعة. ما يعني أنّنا على بُعْدِ عشرين ساعةٍ من الأرض. أما القمر الذي كان يقع على بُعْدِ ربع مليون ميل من الأرض، فقد كان ما يزال بيننا وبين الأرض، وهذا يعني أنّنا سنمر به بعد سبع عشرة ساعةً ونصف، ويبدو أنّ مهمتنا كانت تتعلق بالقمر.

لم نفكر في هذه المرحلة في تحريك القمر. فقد كان وزنه يبلغ خمسة آلاف بليون طن. ومع ذلك، لم تكن لدينا أي فكرة عن وزن الحجم الذي نستطيع أن نحركه بقوّتنا جميعاً. علماً أنّ الفرصة بدت أمامنا كافية رغم ضآلتها لتحريك القمر. إضافة إلى ذلك، فما الذي سيحدث لو أنّنا تمكّنا من تحريكه في الفضاء الخارجي؟ إنّ مصدر إزعاج النفس البشرية من شأنه أن يختفي. لهذا فعندما يتبيّن لنا أنّ القمر يشكّل سبباً أساسياً في ذلك فإنّ الأمر يستدعي القيام بتقصٍ شامل.

❖ ❖ ❖

أصبحنا على بعد خمسين ألف ميل من القمر قبل أن نشعر بقوة جذبه ثانية. تبادلْتُ النظرات مع رايش وبدت لنا أهمية هذه الحقيقة واضحة. لقد كان القمر على علم بما نقوم به. فمنذ اللحظة الأولى لخروجنا من الأرض، أصبح القمر على علم بنا وكان اهتمامه مركزاً علينا حتى بعد أن مررنا به.

أما الآن وبعد أن أخذنا نقترب منه من الخلف، فإنّه لم يشعر بنا إلا بعد أن أصبحنا على بعد خمسين ألف ميل.

في هذه اللحظة أدرنا وجهة السفينة نحو القمر مباشرة ثم بدأنا التوقف. وبعد مرور نصف ساعة هبطنا برفق مما أثار سحابةً من غبار القمر الفضي من حولنا.

لقد زرْتُ القمر سابقاً وبدا آنذاك أشبه بصخرة ميتة لا أكثر.

أما الآن فإنّه لم يعد ميتاً. لقد بدا مخلوقاً معذباً وكان الإحساس بالمأساة عظيماً، يشبه النظر إلى هيكل مبنى محترق شبّت فيه النيران وتسببت في موت ألف شخص في داخله.

لم نُضِع الوقت في محاولة القيام بالتجربة التي أتت بنا إلى هذا المكان. ودون أن نغادر السفينة، إذ لم يكن بحوزتنا ملابس فضاء لعدم توقعنا القيام بهذا الهبوط، وجّهنا شعاعاً من قوة الإرادة على كتلة هائلة من الصخور المسامية لاحت لنا وكأنّها تل عظيم من النمل يبلغ ارتفاعه ميلاً واحداً تقريباً. وسرعان ما تفكك التل برمته وتحول إلى مجرد غبار دقيق يشبه طبقةً من الضباب غلّفت السفينة. كما تسبب ذلك في ارتفاع درجة الحرارة لبعض الوقت، مما جعلنا نشعر بشيء من الضيق. لكنّ شعورنا بالغبطة والفرح كان عظيماً لدى رؤيتنا التل وقد تناثر. لقد أطلقنا قوى الحياة الحبيسة. ولكن بما أنّ هذه القوى ليست لها أجساد، فقد توارت عن الأنظار وتناثرت في الفضاء.

لقد انتابنا شعور بالانقباض. فقد أشار شيلي مخاطباً القمر:

– ألستَ شاحباً بسبب التعب؟!

كما كشف ييتس، عن شعورٍ مشابهٍ بالخوف عندما شبّه القمر بأحمق يتخبط في طريقه خلال السماء. وهنا تكمن اللعنة. فقد كُنّا في هذه المرة كمن يزور روحاً معذبة في مستشفى المجانين.

بعد نصف ساعة أصبح القمر وراءنا. لقد كانت هذه اللحظة من أكثر اللحظات إثارة، حيث يصبح المرء في موقعٍ وسط بين الأرض والقمر. لكن في هذه المرة، كانت مهمتنا ما تزال تنحصر بالقمر.

لقد أردنا أن نحدّد مدى تأثير قوانا الخارقة فيه وتعيّن علينا أن نحدّد ذلك من موقع وسط بين الأرض والقمر، طالما أنّه كان ينبغي علينا أن نتحصّن بالأرض. ومن الواضح أنّنا لا نستطيع توليد أي قوة ونحن في الفضاء الخارجي إذ إنّ حجم القمر الهائل من شأنه أن يردَّ هذه القوة نحونا فيدمِّرَنا. لقد كانت سفينتنا بمثابة الزاوية الثالثة لمثلث مسطح.

كان الأمر يتطلب إشراك عقولنا جميعاً دفعة واحدة. وهذا هو أكثر أجزاء المشكلة صعوبة. إذ ما يزال أغلب الموجودين منّا، غير واعين تماماً بقواهم الخارقة هذه. أصبحْتُ مضطراً مع رايش وفليشمان على العمل كموجهين لهذه القوة. لقد اكتنفت عملنا خطورة كبيرة ولم تبدُ سفينتنا على هذه الدرجة من الضآلة بحيث يسهل على شخص واحد فَقَدَ السيطرة للحظة، أن يقضي علينا جميعاً. لهذا فقد ركزنا نحن الثلاثة على الحؤول دون وقوع أية حوادث مؤسفة بينما قام هولكروفت وأبنر بالتنسيق في محاولة زيادة موجة الذبذبات لطاقاتنا الخارقة. ثم أصبح ضرورياً تحسّس طريقنا نحو الأرض مما سبّب حدوث صدمة لنا. فقد بدا كل شيء وكأنّنا عائدون إلى واشنطن. لقد كانت الأرض تبث الحياة بالقوة التي يقوم بها القمر، وهي ليست حياة الإحباط الحبيسة بل الخوف والعصاب. إنّ صحة نظرية رايش

حول طفيليات العقل سرعان ما أصبحت واضحة. فقد كان سكان الأرض يزدادون هلعاً في الوقت الذي تزداد فيه قوة طاقتنا الخارقة. أدّى هذا الهلع إلى تعميق الفجوة بين هؤلاء الناس وذواتهم الحقيقية، وَلَّدَ ظلاً سرطانياً أنا بديله. لقد حققت بسرعة واقعاً غريباً مستقلاً مثلما تستطيع أحياناً النظر إلى صورتك المنعكسة في مرآة وتخالها حيّة.

وعندما تمكّنا من إعادة الاتصال ثانية بالأرض، أصبحنا في موقع نستطيع فيه الضغط على القمر أضعافاً، حيث كانت هناك قوة مباشرة من قوانا الخارقة تنبعث من السفينة الفضائية، وقوة تنعكس من الأرض.

ولم يكن الهدف من هذه التجربة التأثير في القمر بأي حال من الأحوال، بل قياس استجابتنا له تماماً كما يفعل لاعب الكريكت عندما يزن الكرة في يده. لقد أشرْتُ سابقاً إلى أنّ الإحساس الذي يتولّد عن استخدام القوى الخارقة لا يختلف كثيراً عن الإحساس المتولد عند لمس أي شيء في الواقع. بيد أنّ الفرق الفارق الوحيد هو أنّ مداه أعظم بكثير. في هذه الحالة، عندما نفلح في تأسيس الأشعة المنعكسة من الأرض، فإنّنا نستطيع قياس مقاومة القمر. وهذا يعني ببساطة بذل طاقة متزايدة ومن ثم معرفة ما حدث. طبيعي أنّني لا أملك أي تجربة سابقة. ذلك كل ما كان في وسعي وفي وسع رايش عمله لزيادة القوة ومنع ذبذبتها من تحطيم السفينة. لقد كُنّا نشعر بازدياد سرعتها من خلال زيادة الذبذبات. وأخيراً أصدرْتُ أمري بالتوقف حالاً بسبب خطورة الوضع الذي وصلنا إليه. وعندما سألْتُ هولكروفت عمّا حدث قال:

– لست متأكداً، لكني أعتقد أنّنا حصلنا على استجابة. ليس من الصعب علينا تطويق القمر، إلا أنّه من الصعب تحديد مدى الضغط اللازم للتأثير عليه، ولهذا فإنّه ينبغي علينا بذل المحاولة من جديد من على سطح الأرض.

لقد كان يقصد بلا شك أنّ إشعاع قوانا الخارقة استطاع استكشاف شكل القمر.

إلا أنّنا ما زلنا لا نملك أي فكرة عما إذا كان في الإمكان تحريكه بواسطة هذه القوى.

بسبب الإعياء الذي انتابنا استغرقنا في النوم لما تبقى من الساعة الأخيرة قبل وصولنا الأرض.

في الساعة التاسعة بدأنا بتخفيض السرعة إلى ألف ميل في الساعة، وبعد سبع عشرة دقيقة دخلنا أجواء الأرض فقمنا بقطع القوة نهائياً، وهبطنا قبل الساعة العاشرة بدقائق.

أحسسنا وكأنّنا رجعنا بعد مرور ألف عام. لقد تغيّر كل شيء في أعماقنا، بحيث بدت الأرض وكأنّها مكان آخر. وأول شيء لاحظناه كان متوقعاً. فقد بدا كل شيء أكثر جمالاً من السابق. وهذا ما لم نلحظه عندما كُنّا على سطح القمر بسبب تأثير الاضطراب الذي أثاره.

من ناحية أخرى، فقد بدت الكائنات البشرية التي خرجت لاستقبالنا غريبة ومثيرة النفور. بصورة غريزية حمينا أنفسنا من نظرات الآخرين وبذلنا ما في وسعنا لكي نبدو وكأنّ كل شيء فينا لم يتغير. هنا قال ماسي وقد ظهر الإعياء الشديد والمرض عليه:

— حسن يا سيدي هل حالفكم الحظ؟

فقلت:

— أعتقد ذلك.

تبدَّلَتْ سحنة وجهه وتلاشى عنه الإرهاق، فأحسسْتُ فجأة بموجة حب نحوه ووضعت يدي فوق ذراعه لكي أسمح لبعض الحياة أن تسري فيه. سُرِرْتُ للتحول السريع الذي طرأ عليه حيث زالت تجاعيد وجهه وعمل الأمل والطاقة على تقويم حالته. وقلت له:

– قل ما الذي حدث منذ أن غادرنا المكان.

كان الوضع خطيراً، فقد احتل كاف بسرعة هائلة وبطريقة وحشية الأردن وسوريا وتركيا وبلغاريا. وحيثما لقي مقاومة، عمل على إبادة آلاف السكان. قبل ساعة من هبوطنا، كانت إيطاليا قد استسلمت وسمحت لكاف بعبور الأراضي الإيطالية. أما الجيش الألماني فقد احتشد على طول حدود ستيريا ويوغسلافيا غير أنّ المعركة الرئيسة الأولى في الحرب لم تبدأ بعد. فقد هدّد الألمان باستخدام القنبلة الهيدروجينية إذا ما استخدم كاف سلاحه الإشعاعي. لذا فمن المحتمل أنّ حرباً تقليدية طويلة الأمد، من شأنها أن تندلع الآن. فقد اخترق أربعة عشر صاروخاً شديد الانفجار الدفاعات الجوية، وتسبب أحدها في اندلاع حريق هائل ما يزال مستمراً منذ الأسبوع الماضي في لوس أنجلوس. وكان من الصعب على السكان هناك القيام بهجوم صاروخي مضاد لأنّ جيوش كاف كانت تنتشر فوق مساحات شاسعة من الأراضي.

من الغريب جداً أنّ أحداً لم يدرك مدى خطورة وجنون هازارد. ففي خلال الأسبوعين اللذين قام فيهما كاف باحتلال دول البحر الأبيض المتوسط، كانت ألمانيا والنمسا قد أعلنتا التعبئة. وعندما انتشرت شائعات مفادها أنّ هازارد كان يقوم بتحريك مواقع إطلاق الصواريخ الهيدروجينية إلى النمسا، طلب منه رئيس الأمم المتحدة عدم استخدام الأسلحة الذرية. ولم تكن إجابة هازارد ملزمة. غير أنّ الشعور العام كان يدل على أنّه سيتصرف بطريقة معقولة.

انتقلنا إلى واشنطن بواسطة طائرة صاروخية. وقبل منتصف النهار كُنّا نتناول الغداء مع الرئيس الذي بدا لنا في حالة إعياء شديدة، غير أنّه استعاد نشاطه بعد مرور نصف ساعة، كما قام بتوفير الطعام لبقية زملائنا وعددهم خمسون شخصاً وكان أول شيء قاله لي هو:

– إنّني لا أدري كيف يمكنك أن تبدو غير مكترث.

– لأنّني أعتقد أنّ في وسعنا وقف هذه الحرب.

كنْتُ أعلم أنّ مثل هذا الكلام يروق له. ولم أُضِفْ شيئاً، إذ بدا لي فجأة أنّه ليس مهماً سواء أقضى الجيش البشري على نفسه أم لا. هنا سألني كيف السبيل إلى وقف الحرب. فقلت له:

– إنّنا نرغب يا سيادة الرئيس، أن تعلن بواسطة وكالة التلفزيون المركزية، أنّك ستذيع بياناً بعد ست ساعات يهم العالم أجمع.

– وهل تستطيع أن تخبرني ما هو هذا الإعلان؟

– لست متأكداً بعد. لكنّي أعتقد أنّ له علاقة بالقمر.

وفي الساعة الثانية عشرة والربع، خرجنا جميعاً إلى حدائق مقر الرئيس وكانت السحب قد حجبت السماء والجو بارداً تتخلله زخات مطر خفيفة، لكنّ ذلك لم يغيّر شيئاً، إذ كُنّا نعلم جميعاً موقع القمر تماماً ونشعر بمدى جذبه من وراء السحب.

ولم نعد نشعر بالتعب، بل شعرنا بالغبطة بسبب عودتنا إلى الأرض. كما أنّنا أدركنا بصورة غريزية عدم وجود صعوبة في وقف الحرب. أما قهر الطفيليات أولاً فتلك مسألة أخرى.

لقد ساعدتنا تجربتنا في الفضاء كثيراً. فوجود الأرض كقاعدة لنا نحتمي بها، يجعل العمل على تركيز أفكارنا أسهل أمرٍ بالنسبة لنا. هذه المرة لم يكن هنالك ضرورة لوجودنا أنا ورايش وفليشمان لكي نعمل بموجهين. إذ في أسوأ الحالات سنتمكن من هزّ مقر الرئيس.

انتابنا شعور غامض بالغبطة ونحن نمارس تركيز أفكارنا مجتمعين. هذه التجربة هي التي جعلتني أدرك أكثر من أي وقت مضى معنى العبارة القائلة إنّ كلاً مِنّا جزء من الآخر.

ركزنا أفكارنا في القمر وكأنّها شعاع ينصبّ عليه. ولم نقم في هذه المرحلة ببذل أي مجهود لزيادة القوة من خلال الذبذبات. لقد كان الاتصال الفعلي بالقمر مثيراً للدهشة. فقد بدا وكأنّنا فجأة وسط أكثر الناس صخباً في العالم. إذ انتقلت الذبذبات المثيرة للاضطراب من القمر مباشرة على امتداد سلك القوة الممتد بيننا. ولم يكن هناك في الواقع أي صوت مسموع، لكنّ عقولنا فقدت لعدة لحظات الاتصال، عندما انتقلت موجة الاضطراب النفسي إلينا. غير أنّنا بذلنا المحاولة من جديد وقدمنا العون إلى رايش في توليد طاقة محفّزة جديدة. بدت المسافة التي تفصل بيننا وبين القمر عديمة الأهمية، لهذا السبب استنتجْتُ أنّ قوتنا هي من العَظَمة بحيث إنّ مجرد ثلاثة أرباع مليون ميل تبدو على مرمى حجر مِنّا.

وببطء شديد أخذنا نزيد الضغط على سطح القمر لكي نعمل على تحريكه.

لم يحدث أي شيء في بادئ الأمر، مما جعلنا نزيد الضغط. ولم يحدث شيء هذه المرة أيضاً. بعد ربع ساعة أدركنا أنّنا بدأنا نحقق النجاح. فقد أخذ القمر يتحرك ولكن ببطء شديد جداً. وكانت حركته تتّجه من الشمال إلى الجنوب.

يبلغ محيط القمر من الشمال إلى الجنوب حوالى ستة آلاف ميل. وقد واصلنا زيادة الضغط إلى أن أصبح يتحرك بسرعة ثلاثة آلاف ميل في الساعة. واستغرق الوقت مِنّا أكثر من خمس دقائق تقريباً بعد أن تغلّبنا على كتلته الخاملة، ما يعني أنّ من شأن القمر أن يدور حول محوره مرة كل ساعتين. وهي سرعة ينبغي لها أن تخدم هدفنا بأي طريقة.

دخلنا وشربنا القهوة الحارة. في هذه الفترة كان قد انضم إلينا خمسة عشر عضواً من أعضاء الأمم المتحدة، مما جعل الغرفة تزدحم بهم. وعندما طلبنا منهم المحافظة على الهدوء جلسوا جميعاً وعقولنا مركزة على القمر

لكي نتبيّن مدى نجاح محاولتنا. فاكتشفنا أنّ المحاولة قد نجحت فعلاً. إذ في خلال عشرين دقيقة، دار نصف القمر المواجه للأرض واتجه نحو الفضاء الخارجي. أما النصف الآخر الذي لم يسبق للأرض مواجهته فقد أصبح الآن مواجهاً لها. وهكذا فإنّ، القوى المثيرة للاضطراب في القمر تمّ شطرها إلى نصفين. إنّ هذه الإشعاعات من الطاقة الروحية ظلت عدة آلاف من السنين موجهة نحو الأرض. أما الآن فقد أصبحت موجهة للفضاء الخارجي. ولم تعد القوى الحيوية المتجمدة في القمر تملك ذكاءً متّقداً. فهي لم تستطع تقويم الوضع أو إدراك أنّ مقرها أصبح يدور. إضافة إلى ذلك، فقد كان يدور بطريقة تفقد التوازن، إذ ظلّ اهتمامها لعدة قرون منصبّاً مباشرة على الأرض التي تدور من اليسار إلى اليمين، بسرعة تُقَدّر عند السطح بأكثر من ألف ميل في الساعة. أما الآن فقد أصبح موطنها نفسه يدور بزاوية حادة باتجاه الأرض، الأمر الذي يسبّب الكثير من الاضطراب حتماً.

عند انتهاء الساعة أصبح الجزء المظلم السابق من القمر في مواجهة الأرض تماماً. فتوقفت تقريباً جميع الذبذبات المثيرة للاضطراب القادمة من القمر. وسألنا عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ إن كانوا قد لمسوا أي فرق. فأجاب البعض بالنفي بينما ظلَّ قسم آخر في حيرة من الأمر، وذكروا أنّ إحساساً بالأمان أشد من السابق أخذ ينتابهم الآن.

في هذه الأثناء أصبح في وسعنا إخبار الرئيس بما يتعيّن عليه قوله في بيانه. فقد كانت الخطة بسيطة وواضحة جداً. إذ كل ما ينبغي عليه ذكره، أنّ محطة أبحاث فضائية أرضية على سطح القمر قد تحطمت بعد أن أرسلت تقريراً يفيد بوصول مخلوقات غريبة عملاقة وبأعداد هائلة على سطحه!

بدا الرئيس مرتاباً فيما إذا كانت الخطة ستنجح. فما كان مِنّا إلا أن أكّدنا بأنّها ستنجح وطلبنا منه الذهاب وأخذ قسط من النوم.

❖ ❖ ❖

لم أكن حاضراً عندما ألقى الرئيس **بيانه التاريخي، إذ كنْتُ** غارقاً في نوم عميق بعد أن أصدرْتُ تعليمات بعدم **إيقاظي. لهذا السبب، فإنّني** عندما استيقظْتُ في الساعة العاشرة علمْتُ أنّ أول **إنجاز لنا قد تحقق. لقد** كان العالم أجمع منتظراً ظهور الرئيس على شاشة **التلفزيون. وقد أثارت** أنباء تحريك محور القمر موجة عارمة من الهستيريا في مدن العالم. **وأعتقدُ أنّ** لديَّ أسبابي الخاصة لتأنيب نفسي إذ أنّ صديقي العالِم الفلكي سير جورج جيبس توفي بنوبة قلبية بعد أن رأى تحرّك القمر من خلال التلسكوب في برج المراقبة في مدينة كرنيتش. لقد أكّد إعلان الرئيس وجود مخلوقات غريبة على سطح القمر مخاوف الجميع. ولم يسأل أحد عن سبب قيام المخلوقات هذه بتحريك القمر، حيث إنّ الحركة كانت واضحة للعيان جداً.

كما أنّ الرؤية في آسيا وأوروبا كانت تامة. ولا بد من الاعتراف أنّ الحركة لا يمكن رؤيتها حالاً – إذ تشبه في كثير من الأحيان حركة عقرب الساعة – غير أنّه بإمكان أي فرد أن يلاحظ الحركة من الشمال إلى الجنوب إذا ما حدّق إليه عشر دقائق أو أكثر.

كان أملنا أنّ هذه الأخبار من شأنها أن تبعد أفكار كل فرد عن الحرب، ولكنّنا لم نكن قد وضعنا في حسباننا الطفيليات. عند انتصاف النهار سمعنا أنّ ستة صواريخ هيدروجينية أُطْلِقَت باتجاه شمال يوغسلافيا وإيطاليا، ودمرت منطقة شاسعة تزيد مساحتها على ألف ميل مربع. لقد صمم هازارد أن لا يضع حداً للحرب دون إطلاق بعض الصواريخ. وقد كان من المناسب لو أنّ هازارد قتل كاف على الأقل. إلا أنّه لا يبدو قد فعل ذلك إذ ظهر كاف على شاشة التلفزيون عصر ذلك اليوم، وأعلن أنّه لن يغفر لهازارد قتله رجاله والحقيقة أنّ القتلى كانوا بمعظمهم من اليوغسلافيين والإيطاليين أما رجال كاف فقد كانوا إلى الجنوب من المنطقة التي تعرضت للقصف.

في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم تحسن الوضع. إذ أفادت تقارير الأنباء أنّ رجال كاف أخذوا يهربون من الخدمة بسبب احتمال هجوم كائنات غريبة من القمر، مما جعلهم يفضلون العودة والبقاء مع ذويهم. لكنّ كاف رغم ذلك أعلن أنّ رجاله سيقاتلون حتى الموت. وبعد بضع ساعات، دمر صاروخ هيدروجيني آخر مدينة كراز في ستيريا وأدى إلى قتل نصف مليون شخص من رجال هازارد. ثم أصابت ثلاثة صواريخ أخرى المنطقة الخالية الممتدة بين كراز وكلاجنفورت، مما أدى إلى قتل بضعة أشخاص فقط وتدمير أراضٍ تقدر مساحتها بمئات الأميال المربعة. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وردنا أنّ قوات هازارد اجتازت أخيراً الحدود اليوغسلافية، وبدأت تشاغل قطاعات كبيرة من قوات كاف في ماريبور. والواقع أنّ مدينة ماريبور نفسها دُمِّرَت تماماً بفعل أشعةٍ كونية، أما المعارك فكانت تدور رحاها على بُعْدِ ميل واحد خارج المدينة.

فجأةً أصبح من الواضح وجوب تدخُّلِنا، فقد كُنّا نأمل أن يوقف التهديد القادم من القمر الحرب بضعة أيام، وأن يفسح المجال أمام مجلس الأمن الدولي لاتخاذ بعض الخطوات. ما هي الفائدة التي ستجنيها الطفيليات من استمرار الحرب؟ إذا ما أصاب العالم الدمار الشامل، فإنّ من شأن الطفيليات أن تلقى حتفها أيضاً. من ناحية أخرى في حال وقف الحرب، فإنّ فرصة الطفيليات في البقاء على قيد الحياة تغدو معدومة. وبما أنّنا نعرف السر الآن – وهو أنّ الطفيليات فقدت سيطرتها في الفضاء الخارجي – فإنّنا نستطيع القضاء على الآلاف منها كل يوم ما لم تتعلّم التكيّف مع الخطر الجديد. ولعلها كانت تأمل في نجاة بضعة آلاف من الناس من هذه الكارثة تماماً كما نجت في الكوارث التي اصطدمت بالقمر سابقاً. ومهما كان السبب، فإنّه بدا وكأنّ الطفيليات عازمة على دفع الجنس البشري إلى الانتحار.

لهذا فإنّ الأمر الأكثر أهمية كان يتمثل في السرعة. فإذا كان كاف وهازارد قد صمما على تدمير العالم، فإنّ ذلك لن يكون صعباً أمامهما. إذ باستطاعة أي مهندس بسيط تحويل قنبلة هيدروجينية نقية إلى قنبلة مغلّفة بمادة الكوبالت يمكن صناعتها في غضون أربع وعشرين ساعة. إنّ إنقاذ الجنس البشري في مثل هذه الحالة يتلخّص في إيجاد وسيلة لتنقية الجو من الكوبالت، وفي استطاعة قوانا الخارقة العمل على تحقيق ذلك، غير أنّ ذلك قد يستغرق شهوراً أو سنين. ولعل الطفيليات فكرت في هذا الأمر.

ففي دورانكو بولاية كولورادو الأميركية تقوم مجموعة من العلماء بالعمل على صنع صاروخ فضائي يعمل بأشرعة فوتون العملاقة. وقد سمعنا الأحاديث تدور حوله في القاعدة 91. وهذا الصاروخ مصنوع خصيصاً من خليط رقيق من مادتي الليثيوم والبريليوم وأنّ حجمه كبير جداً.

تحدثْتُ مع الرئيس مستفسراً عن المرحلة التي وصل إليها المشروع وعن إمكانية استخدام السفينة بالرغم من ذلك؟ فاتصل بقاعدة دورانكو وجاءه الجواب: كلا. إنّ بناء الصاروخ قد اكتمل لكنّ المحركات ما تزال قيد الاختبار. فقُلْتُ للرئيس إنّ ذلك لا أهمية له. إذ إنّ كل ما نحتاج إليه هو السفينة، وينبغي لنا أن نطليها باللون الأسود. فأجابت القاعدة بأنّ ذلك مستحيل حيث إنّ مساحة سطحها تبلغ ميلين مربّعين. فما كان من الرئيس إلا أن صرخ من خلال الشاشة وقطع التيار الكهربائي عنها، وأخبرني أنّ السفينة ستُطْلى باللون الأسود أثناء الوقت الذي ستنقلنا فيه طائرة صاروخية إلى دورانكو.

أثار دهشتنا الكبيرة، حجم السفينة الهائل التي شيّدت في الحفرة الضخمة التي خلّفها النيزك الذي سقط على الأرض في العام 1980. وبما أنّ بناء السفينة كان أمراً سرياً جداً، فقد غُلِّفَت فتحة الحفرة بمادة صلبة. تحت هذه المادة كان الصاروخ بادياً للعيان يشبه طلقة هائلة

الحجم، أما أكبر مساحة مسطحة فيه فهي نهاية الخلفية، التي كانت تضم الأشرعة ويبلغ ارتفاعها ألفي قدم.

وصلنا إلى قاعدة دورانكو بعد خمس ساعات من دعوة الرئيس وكانت تفوح من المكان رائحة الطلاء كما كان كل شيء مغطى باللون الأسود. كذلك كان الرجال جميعاً يرتدون الملابس السوداء، أما السفينة فكانت مطلية باللون الأسود.

كان الوقت منتصف الليل. وأَخْبَرْنا الفريق كيتس قائد المحطة بوجوب صرف جميع الرجال وإزالة حاجز القوة. وطُلِبْ إليه إطاعة الأوامر دون أي مناقشة، فما كان منه إلا أن أبدى تعاوناً ممتازاً معنا. غير أنّه لم يسبق لي أن رأيْتُ شخصاً في حيرة من أمره كما رأيته، وعندما اطّلعنا على الأجهزة التي تقوم بتشغيل الأشرعة لاحظنا أنّها لم تُطْلَ باللون الأسود، بل كانت مضيئة براقة، تشبه أجنحة الفراشة عموماً.

ينبغي لي الاعتراف أنّ شعوراً بالعبث انتابنا جميعاً ونحن واقفون في القاعة الفضية الهائلة، التي كانت برودتها تجمّد العروق ورائحة الطلاء تنبعث منها. أما مفاتيح السيطرة فقد كانت مثبتة فيها عدا ستة مقاعد في المقدمة قرب أجهزة السيطرة. أما بقية الأفراد، فكان عليهم الجلوس فوق مقاعد أخرى نصبت لهم.

ولكن ما أن بدأنا العمل من أجل إطلاقها حتى زال الشعور بالعبث. إذ لم تعد هناك أية صعوبات. فقد كان الغلاف الخارجي خفيفاً جداً. وفي وسع الفرد أن يحركه بمفرده. عهدنا بهذه المهمة إلى فريق يتكوّن من عشرة رجال بقيادة أبنر، أما أنا فقد توليْتُ توجيه دفّة السفينة. الشخص الوحيد الذي لم يكن ضمن فريقنا، هو الكابتن هايدن رينولدز من السلاح الجوي الأميركي الذي يقوم بمهمة الدليل. فقد انتابته الدهشة لوجوده معنا طالما أنّ السفينة التي لا مكائن فيها لا تحتاج إلى وجود دليل.

انطلقنا بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة وارتفعنا إلى عشرة آلاف قدم متجهين نحو الشرق. بلغ رينولدز في ربع الساعة الأولى حداً من الذهول، بحيث بات من الصعب تلقّي أية تعليمات دقيقة منه. غير أنّه سرعان ما استعاد توازنه وأخذت الرحلة تسير على ما يرام.

سبق لأجهزة الدفاع الجوية أن تلقّت معلومات تفيد أنّنا سنخترق أجهزة الدفاع الأولى في الساعة الثانية عشرة والنصف، ولم نصادف أية متاعب. في الواحدة إلا ربعاً أشارت أجهزتنا التلفزيونية إلى أنّ جسماً ضخماً دخل أجواء الأرض قادماً من القمر.

لدى تحليقنا فوق الأطلسي، زدنا السرعة إلى ألف ميل في الساعة، وكانت نتيجة ذلك أن ازدادت الحرارة في السفينة بشكل يدعو إلى الضيق. غير أنّ الوقت كان له مغزاه. فبعد أن انطلقنا من دورانكو، كان الوقت الثامنة والنصف صباحاً في ماريبور وما يزال أمامنا خمسة آلاف ميل، ومن الضروري إنجاز المهمة قبل حلول الظلام. وقبل أن نجتاز الشاطئ الأوروبي زِدْنا الارتفاع إلى خمسة وعشرين ألف قدم. وعرفنا أنّ جميع أجهزة الإنذار المبكر في فرنسا وإنكلترا من شأنها أن تكشف وجودنا في هذا الوقت، لهذا يتعيّن علينا أن نكون في حالة حذر دائم.

سُدِّدَ أول صاروخ باتجاهنا من منطقة قريبة من بوردو الفرنسية. غير أنّ عشرة من رجالنا بإمرة رايش فجّروه في الجو على بُعْدِ ميلين منا تقريباً، إذ كانوا يقومون بالمحافظة على وجود حاجز القوة حول السفينة. لسوء الحظ نسي رايش أن يقفل مفتاح إرسال موجات القوة مما جعلنا فجأة نهتز في أماكننا. فقدنا السيطرة بضع ثوان تمكّنْتُ بعدها من إقفال هذه الموجات وبدأنا بالتقدّم بسهولة. بعد ذلك، اهتم رايش بتوجيه قوة الانفجار بعيداً عنا.

أظهرت شاشات التلفزيون أنّ رحلتنا كانت تحت مراقبة شاملة. كما أنّ انفجار الصاروخ الذي سُدِّدَ إلينا لم يترك مجالاً للشك لدى أي

فرد مِنّا في أنّنا مخلوقات غريبة قادمة من القمر، وأنّ لدينا أشعة تدميرية.

عند الساعة الواحدة بحسب التوقيت الأوروبي، كُنّا نحلّق فوق ميدان المعركة تماماً في ماريبور. فبدأنا بالانخفاض إلى ارتفاع عدة آلاف من الأقدام. ولم تكن تصدر عنا أية أصوات، فقد كان في ميسورنا سماع انفجار القذائف من تحتنا بوضوح.

كان من حسن حظنا أنّنا استخدمنا سفينة بمثل هذا الحجم. فقد كان ميدان المعركة واسعاً جداً يمتد إلى مسافة عشرة أميال. ولم تكن هناك تجمعات كبيرة للقوات، بل مجرد مجموعات صغيرة من الرجال كانوا يوجهون المدافع المتحركة وراجمات الصواريخ. كان حجم سفينتنا الهائل يعني أنّ كلا الجانبين سيتمكن من رؤيتنا بوضوح بالرغم من أنّ الأرض كانت مغطاة بطبقة كثيفة من الدخان.

هنا بدأنا الجزء الأكبر من عمليتنا، وهو جزء لم نستطع أن نضمن نجاحه. فقد كان من السهل جداً تدمير أوجه الحياة في تلك المنطقة التي تغطي مساحة قدرها مائة ميل مربع ووقف القتال فوراً. مع هذا، لم يستطع أحد مِنّا القيام بذلك. لم نكن نشعر سوى بالنفور من الناس الذين يريدون قتل بعضهم بعضاً. وقد شعرنا أن ليس من حقّنا قتلهم.

كان أول شيء نفعله هو وقف وحدات الصواريخ المتحركة. وبعد مرور عشر دقائق على ظهورنا، حاول عدد منهم إطلاق الصواريخ علينا. غير أنّ الصواريخ دمرتها مجموعة رايش كما أنّ حوالى ألف راجمة صواريخ ومدفع كانت في ميدان المعركة. لهذا يتعيّن علينا التركيز في الجزء الأكبر من المهمة.

استغرقنا ساعة ونحن نحاول تحسّس طريقنا بين الدخان من أجل تعيين موقع كل مدفع وراجمة ومن ثم تدميرها.

لقد تسبّب ظهورنا في ميدان المعركة في حدوث موجة من الهلع.

غير أنّ حدّة الموجة خفّت عندما لم تصدر عنا أية إشعاعات قاتلة. وكانت عمليتنا في شلّ المدافع مذهلة في نجاحها. ولم يدركها إلا الذين كانوا في تماس فعلي معها. لهذا، وبعد مرور فترة قصيرة، نظر كل واحد من هؤلاء إلينا نظرة فضول أكثر مما هي نظرة خوف. وكانت مَجَسّاتُنا العقلية تدرك ذلك ولهذا شجعنا هذه الحالة بينهم.

كان شعوراً غريباً. فقد جلسنا جميعاً في صمت تام ولم يكن هناك أي صوت باستثناء صوت رايش. أما إطلاق القذائف فقد توقف. وكُنّا نعلم أنّ مليون جندي يضمهم جيشان عظيمان يراقبوننا عن كثب، بل إنّني كنْتُ أدرك وجود الطفيليات في عدد كبير منهم.

في هذه الأثناء لمس فليشمان النور الذي ينظّم الأشرعة، وسرعان ما انفتحت ببطء. ولا بد أن يكون المشهد مؤثراً حيث انزلقت هذه الأجنحة الفضية الضخمة من فوق ظهر السفينة، وأخذت تتمدد برفق حتى وصل حجمها أربعة أمثال حجم السفينة بحيث بلغت مساحتها ثمانية أميال مربعة، وبدا منظرنا الآن أشبه بحشرة عملاقة ذات جسد أسود وأجنحة براقة وشفافة تقريباً.

لا بد أن يكون مفهوماً أنّنا كُنّا على صلة وثيقة بجمهورنا تشبه إلى حدٍّ كبير صلة الممثل الحميمة بجمهوره. لهذا السبب فقد كُنّا قادرين على تسجيل ردود فعل الدهشة التي احتوت على عنصر الخوف فقط.

عندما بدأنا بالتحليق نحو السماء ثانية، شعرْتُ بوجود تغيّر في نوع الاستجابة. فقد كان هؤلاء يراقبون السفينة بافتتان وليس بفضول. لقد كُنّا نبدو لهم مثل حشرة عملاقة يصعب التحديق إليها بارتياح بسبب شدة بريقها، ومع هذا فهي من الروعة بحيث لا يمكن للمرء أن يدع فرصة مشاهدتها تفوته.

أما أثر ذلك فهو ما توقعناه تماماً. فقد بدوا لنا كأنّهم تحت تأثير

النوم المغناطيسي، بينما كُنّا نتحرك ببطء نحو السماء. وكلّفت هذه الحركة الرشيقة جهداً كبيراً بذله فريق رايش طالما أنّ منطقة الجناح الهائلة تعني أنّ الريح كانت تدفع السفينة وقد كان من شأن الريح أن تجعل السفينة تدور في دوامة إذا ما أغفلوا عن الأمر لحظة.

ضمّ بقية أفراد مجموعتنا وعددهم أربعون شخصاً قواهم العقلية إلينا. كانت عقولهم جميعاً تحت سيطرتنا، وقد لاحظت أمراً مثيراً للاهتمام طالما شككت فيه. فقد كان جميع المشاهدين مرتبطين تخاطرياً وذلك من خلال الاهتمام الذي أظهروه بنا. وهذا يوضح خطورة مثل هذا الجمهور، إذ يستطيع توليد قوة تخاطرية بواسطة عملية تذبذب، ولكن بطريقة غير منظمة وعشوائية تجعله مضطراً للقيام بأعمال عنف لتحرير التوتر.

لقد كان توتر هذا الحشد في أيدينا، يشبه عقلاً واحداً ضخماً مفتوحاً أمامنا. وكان هذا العقل منصبّاً على جسم هائل يشبه الحشرة وقد أصبح الآن قريباً جداً من الأرض. كانوا جميعاً تحت تأثير التنويم المغناطيسي ومستعدين لأي اقتراح.

كان الجزء الأكبر من العملية بين يديّ الآن. فقد كانت عقولهم أشبه بشاشات التلفزيون، وكنْتُ بمثابة الناقل. والنتيجة هي أنّ كل واحد منهم أصبح فجأة منتبهاً للبابين الهائلين اللذين بدءا ينفتحان من جانِبَيْ السفينة. ومن هذين البابين اللذين يبلغ ارتفاعهما أكثر من ألف قدم، هبط غرباء القمر الذين بلغ طولهم أكثر من ألف قدم وكان شكلهم يوحي أنّهم حشرات، إذ كان لونهم أخضر وأرجلهم طويلة تشبه أرجل الجراد وعيونهم سوداء صغيرة. وكانوا يترنحون في حركتهم وكأنّهم غير معتادين على جاذبية الأرض، وأما أقدامهم فكانت تشبه مخالب الطيور.

بسرعة، قفزت المخلوقات الغريبة قفزات هائلة باتجاه الجيشين اللذين كانا يراقبانها. نقلت موجات كابوسية مرعبة ذات قوة تدميرية

رهيبة. وفي الوقت نفسه أطلقت التوتر الذي أطبق عليها. كانت نتيجة ذلك أن هربت جميعها بعيداً عَنّا. لقد كان الإحساس بالهلع مكرراً بحيث قَطَعْنا الاتصال التخاطري بها وتَرَكْناها تهرب، كما سقط الآلاف منها تحت الأقدام ولقيت مصرعها. وقد تبيّن فيما بعد أنّ خمس عشرةً بالمئة منها ماتت بهذه الطريقة.

لقد كانت التجربة تبعث على الضيق تماماً. فبعد مرور أسابيع على ذلك الحادث، بَقِيْتُ أتذكر حالة الهلع. لكنّها كانت رغم ذلك ضرورية لإنهاء الحرب، فمنذ ذلك اليوم لم يعد كاف وهازارد قائدين، بل تجاهلناهما وغابا عن الأذهان. كانت الحرب حلماً استيقظ منه الجميع، لعبة من ألعاب الأطفال وصلت نهاية المطاف. خلال الأيام الثلاثة التالية، تمكنت المنظمة الدولية التي كانت تعمل باتصال وثيق مع رئيس الأمم المتحدة، من أسر آلاف الأفراد من فلول الجيشين بما فيهم كاف وهازارد. وقد أُطْلِقَ الرصاص على الأخير ولقي مصرعه عندما حاول الهرب. أما كاف فقد وُضِعَ في مستشفى للأمراض العقلية ومات هناك بعد مرور سنة واحدة.

❖ ❖ ❖

يمكن الافتراض أنّنا بعد هذا النصر شعرنا بميل إلى الاكتفاء بما حققناه من نجاح. والحقيقة أنّنا لم نشعر بأي نجاح لسببين اثنين. الأول أنّ النصر كان أمراً سهلاً جداً. وسأبيّن سبب ذلك بالتفصيل إذ يعود ذلك لأهميته التاريخية، أما أهميته الاستراتيجية فلا تستحق سوى سطرين. والسبب الثاني أنّ الجزء المهم فعلاً من مهمتنا ما يزال أمامنا وهو العمل على استعادة العقل في هذا العالم والنظر في الإجراءات الخاصة بالقضاء على الطفيليات قضاء تاماً. إنّ ما قمنا بتطبيقه من الوسائل لم يكن بالشيء المذهل، باستثناء أنّنا أخبرنا العالم بالحقيقة. وفي اليوم التالي للنصر، أعلن رئيس الأمم

المتحدة من على شاشات التلفزيون أنّه يملك من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد أنّ مخلوقات القمر الغريبة كانت في طريقها إلى الخروج من المجموعة الشمسية، وأنّه لم تعد هناك أي خطورة مباشرة على كوكبنا. وأضاف: "ولكن بسبب وجود الخطر المستمر من هجوم مخلوقات من الفضاء الخارجي، فإنّ الأمم المتحدة تحث على إقامة حكومة عالمية موحدة تملك جميع الطاقات اللازمة لتعبئة قوة دفاعية دولية". وقد قبلت الدول الأعضاء في الأمم المتحدة اقتراحه فوراً، وبدأت المهمة الكبرى التي سجلها باقتدار ولفكانك رايش في كتابه **إعادة بناء العالم**.

من الطبيعي أنّ أكثر مهامنا خطورة هي القضاء على الطفيليات. غير أنّنا قررنا أنّ هذه المهمة لن تكون لها الأولوية. إذ إنّ حركة القمر كان لها تأثير في تحطيم قوة الطفيليات وذلك من خلال تقليص المصدر الأساس للاضطراب. وهناك سببٌ آخر لمعاملة الطفيليات باعتبارها مشكلة ثانوية، فأنا أعتقد أنّ الطفيليات كانت ظلاً من ظِلال جبن الإنسان وسلبيته. وتزداد قوة الطفيليات في جو الرعب والهزيمة إذ إنّها تتغذى من مخاوف الإنسان. وفي تلك الحالة، فإنّ أفضل طريقة لمكافحتها تحويل هذا الجو إلى جو يملؤه الأمل والقوة. وهذه هي مهمتنا خلال السنة القادمة. أما أول مشكلة فتتمثل في جعل قوة الأمن الدولية فعالة حقاً، والقضاء على أي علامة تدل على نشاط الطفيليات. وهذا يعني أنّه يتعيّن على عشرين فرداً من أفراد مجموعتنا تكييف أنفسهم ومشاكل التنظيم. هناك أمر آخر لا يقل عن أهمية يتمثل في جعل الناس يفهمون أنّ الطفيليات كانت موجودة فعلاً وأنّه يتعيّن على البشر التزام جانب اليقظة دائماً. وهذا بدوره يعني أنّ علينا زيادة أفراد المجموعة حتى تبلغ الآلاف أو الملايين. لهذا السبب، فإنّ عشرين شخصاً من بيننا بمن فيهم أبنر وفليشمان أُوكِلَتْ إليهم مهمة العمل في منظمة الأمن الدولي. أما بقية الأفراد، فكانت مهمتهم تنحصر في تعليم الآخرين.

يتعيّن عليَّ أن أوضح هذا الأمر طالما أنّ كل شيء يعتمد في الواقع على نجاحنا في هذا الميدان. فمسألة اختيار المرشحين وتعليمهم أساليب السيطرة العقلية ليست سهلة. وقد لا تظهر أي مشكلة على الإطلاق. إذ قمت شخصياً بتعليم نفسي بنفسي. وينطبق الأمر على رايش وفليشمان حتماً. وينبغي علينا أن نعلن للجنس البشري الحقائق الخاصة بالطفيليات، عندها يستطيع الأفراد أن يعلّموا أنفسهم بأنفسهم وهذا صحيح نسبياً. وقد حدث فعلاً. غير أنّ ذلك يولّد مشكلة أخرى فالمعركة ضد الطفيليات تتطلب ذكاء متقداً وحاداً، بينما معظم الناس كسالى عقلياً حتى أنّ الطفيليات تستطيع أن تراوغهم. وهو الآن في وضع خطير، إذ إنّ لدى الجنس البشري إحساساً بالأمن الكاذب، تغذيه الطفيليات بحرص بالغ. وقد سبّبت حقيقة أنّ ثلاثة أرباع الجنس البشري أصبحوا يعتقدون أنّهم قد حققوا سيطرة عقلية تامة، مشكلة كبيرة لنا. إذ كيف يتسنى لنا أن نعرف من هو الشخص الذي يستحق اهتمامنا من بين هذه الملايين. ولم نستطع إيجاد حل عاجل لهذه المشكلة. إذ بدأنا نعالجها عن طريق التجربة. حيث حصرنا اهتمامنا في عدد من الأفراد من ذوي الذكاء المتقد، وخصوصاً أولئك الذين شقوا طريقهم نحو النجاح بأنفسهم، طالما أنّ أكثر متطلباتنا أهميةً يتمثل في الشجاعة والحيوية. غير أنّنا أُصِبْنا بإخفاقات كثيرة جداً، فعندما حققت أسوة برايش الانتصارات الأولى على الطفيليات، كان حافزنا الإحساس بالخطر المباشر. ولم يتمكن عدد كبير من هؤلاء المرشحين الجدد من الإحساس بهذا الخطر الطارئ. لهذا بدأْتُ أدرك أنّ النجاح، كثيراً ما يعتمد على الكفاح والعمل الشاق وليس على الذكاء. ولم يكن لدينا وقت نضيعه في الإخفاقات. فلو أنّنا استخدمنا قدراتنا التخاطرية لتنبيههم، فإنّ ذلك من شأنه أن يعمل على زيادة كسلهم. ولهذا السبب كان إبعادهم واستدعاء غيرهم.

بدا لنا فجأةً أنّ الأشخاص الأذكياء والجادين أنفسهم، قد يعانون من الكسل الذهني إذا ما اكتسبوا مثل هذه العادة في فترة الطفولة. لهذا قررنا أنّ الحصول على مرشّحين جُدُد ينبغي أن يكون بأسرع وقت ممكن. وقد شكّل عدد من أفراد مجموعتنا فريقاً مستقلاً لاختبار القدرات العقلية للأطفال والمراهقين، وأطلق عليهم تسمية *اختبار فريق بيهرمان كي* الذي فاق نجاحه توقعاتنا جميعاً. إذ في غضون عامين فقط، بات لدينا أكثر من نصف مليون مرشح ممن هم دون سن الحادية والعشرين. وعند نهاية العام علمنا أنّنا ربحنا المعركة من أجل إقامة سلام عالمي دائم. وأصبح في وسعنا الآن تحويل اهتمامنا إلى القمر مرة أخرى، وهو أمر ضروري في هذه المرحلة، إذ أصبحت قوى القمر التي تسبب الاضطرابات متأقلمة في حركتها غير المألوفة وأعادت تركيزها على الأرض. وهذا ما توقعْتُ حدوثه تماماً، فحركة القمر لم تكن إلا إجراءً مؤقتاً.

قرّر فريق مِنّا يتألف من خمسمائة شخص، ودون استشارة الآخرين، أن يفصل القمر عن نطاق الجاذبية الأرضية. وبدأنا العمل في هذا المضمار في كانون الثاني 1999، وكان عملاً هندسياً في معظمه يرتكز على ممارسة ضغط مستمر على القمر ولفترة طويلة جداً. إنّ كثافة القمر منخفضة مقارنة بكثافة الأرض. كما أنّ القمر خلال عمره الطويل تعرض لسقوط عدد لا يحصى من الشهب والنيازك كان بعضها كبيراً جداً في حجمه.

لم يكن هدفنا مجرد حماية الأرض من انبثاق القمر. فقد كانت هناك أيضاً رغبة في القيام بعمل بخصوص الحياة الدفينة فيه. لهذا قررنا أنّه لا بد من دفع القمر إلى الشمس كي يتحرر سكانه عديمو الأجساد مرة ثانية.

قامت أربع مجموعات مِنّا تتألف من مئتين وخمسةٍ وعشرين شخصاً بالتمركز في نصف الكرة الشمالي، وبدأت عملها في دفع القمر برفق نحو الفضاء الخارجي، وهذا يعني بالطبع زيادة سرعة دورانه حول الأرض

وإضفاء المزيد من القوة عليه. وبهذا، فإنّ القمر من شأنه أن يندفع أكثر فأكثر عن الأرض. (لقد كان القمر يوماً ما أبعد كثيراً عن الأرض مما هو عليه في القرن العشرين غير أنّه أخذ يقترب منها أكثر فأكثر عندما بدأ يفقد طاقته).

خلال العام 1999 زدنا سرعة دوران القمر من ثمانية وعشرين يوماً إلى أربعة عشر يوماً وهي ليست بالمهمّة الصعبة. إذ إنّني كنْتُ في هذا الوقت قد عرفْتُ ما يكفي من أسرار العقل وعلاقته بالعالم المادي، بحيث بِتُّ قادراً على القيام بها وحدي. لقد أصبح القمر الآن على بعد مليون ميل من الأرض، وهذا يعني أنّ سرعته في المدار قد تضاعفت عشرة أمثال. وبعملية حسابية وجدنا أنّ هذه المسافة من شأنها أن تتضاعف إلى أربعين ألف ميل في الساعة قبل أن يهرب القمر. وعند ذلك سينجذب آلياً نحو الشمس. وقد حدث هذا فعلاً في الثاني والعشرين من شهر شباط سنة 2000. وفقدت الأرض قمرها مما أثار موجة احتجاج عنيفة في صفوف عشاقه غير أنّنا أهملنا ذلك الأمر كلياً. ولم نرتكب إلا خطأ طفيفاً. فبعد ثلاثة أشهر وبينما كان القمر يجتاز مدار عطارد، إذا به ينجذب إلى ذلك الكوكب. وبما أنّ حجم كوكب عطارد يوازي حجم القمر تقريباً، فإنّه لم يكن هناك أي احتمال في أن يصبح القمر تابعاً له. كما أنّ عطارد كان يبعد سبعة ملايين ميل عن الشمس. وأخيراً دخل القمر في مدار الشمس بمسافة معدلها تسعة عشر مليون ميل، وضمن هذه المسافة كانت درجة حرارة سطحه تكفي لبقاء الصخور في حالة انصهار مستمرة. وهكذا، احتفظ القمر بدرجة معينة من الحرية.

❖ ❖ ❖

هناك نقطة ينبغي التوقف عندها ليس بسبب عدم وجود شيء أقوله، بل لأنّ ما تبقى من الحديث من الصعوبة بحيث لا يمكن التعبير عنه في هذا السياق. فبالنسبة إلى الإنسان الاعتيادي في عصرنا الراهن،

لا بد أن يتضح أنّ ما حققناه نحن أصحاب المبادرة كان أمراً عظيماً. فمن الناحية الأولى، يُعَدُّ إنجازاً عظيماً مقارنة بإنجازات البشر في القرن العشرين. ومن الناحية الثانية، فإنّنا في بعدنا عن الهدف الأساس ما زلنا كما كُنّا منذ البداية. إنّ الجهل والافتقار إلى الهدف لم يعودا يقيدانا. إلا أنّ جهلنا ما يزال عظيماً فالطريق التي ينبغي لنا أن نسلكها طويلة أمامنا. ومن المستحيل أن أوضح طبيعة المشاكل التي تواجهنا. ولو كان البشر قادرين على الفهم، لانتفت الحاجة إلى التوضيح.

إنّني لا أدري إن كان ينبغي عليَّ أن أنظر إلى نفسي كإنسان محظوظ أو سيئ الحظ. فأنا محظوظ من حيث إنّني كنْتُ رأس الرمح في هذه الحركة العظيمة من نشوء الإنسان. وإنّني أفهم الآن ما تبقى من المهمة. وأنا سيئ الحظ من حيث إنّني فقدت الصلة ببقية البشر، مع بعض الاستثناءات. إنّ الإنسان كسول بطبيعته ولا يجب أن يلقى اللوم على الحظ بأي حال. فقد ابتكر الحضارة لكي يهرب من الضجر. لهذا، فإنّ الخمول كان عاملاً أساسياً في تطوّره. غير أنّ هذا يعني أنّه يفضل التطور بالمعدل البطيء المتعمد الذي يريده. وقد دفعتني المعركة ضد طفيليات العقل إلى زيادة معدل التطور. ولم أعد اقنع بمعرفتي أنّ ملكوت العقل اللامتناهي مفتوح الآن أمام اكتشاف الإنسان. فهذا لا يكفي. إذ هناك عدد كبير جداً من الأسئلة ظلت بلا جواب. صحيح أنّه لم يعد بالإمكان فصل الإنسان عن الإحساس بهدف التطوّر ممكناً. وقد بات محتملاً أنّ الإنسان سيعيش عدة قرون بدلاً من أن يقضي نحبه بسبب الضجر والهزيمة، وهو ما يزال في سن الثمانين. غير أنّنا ما زلنا نجهل ما الذي سيحدث للإنسان عندما يموت، أو عندما يبدأ الوجود من اللاوجود. إنّنا نعلم أنّ هناك هدفاً وراء وجود الكون، غير أنّنا ما زلنا نجهل حدود مبدأ الهدف، وإذا ما كان ذلك هدف المبتكر النهائي أو أنّه يعتمد على مصدر آخر أشد عمقاً. إنّ سر الزمن ما

يزال مدفوناً وكذلك السؤال الأساس الذي طرحه هيدجر:

"لماذا يوجد الوجود بدلاً من اللاوجود؟" ولعل الإجابة تكمن في بُعْدٍ مختلفٍ تماماً، يشبه اختلافه اختلاف عالم العقل عن عالم الزمان والمكان...".

لقد اخترنا أن ننهي الشرح عند هذه النقطة باقتباس مأخوذ عن مذكرات أوستن غير المنشورة، إذ يبدو للمحرر أنّ هذه المقاطع إنما تقدم حلاً محتملاً لسِرِّ مركبة الفضاء بالاس.

لقد كُرِّسَت كتابات كثيرة جداً لماري سيليست امرأة الفضاء بحيث إنّ الحقائق أصبحت باهتة. والمقطع التالي مأخوذ من السيرة الذاتية للكابتن جيمز رامزي الذي يوضح الحقائق بصدق:

"في شهر كانون الثاني 2007، أعلنت الأمم المتحدة أنّها وضعت سفينتها الفضائية بالاس وهي أضخم سفينة بُنِيَت حتى الآن، تحت تصرف رحلة سيقودها الأستاذان رايش وأوستن. كان الهدف المعلن من الرحلة آثاري بحت فوق سطح الكوكب بلوتو بأمل الكشف عن آثار حضارات قادش.

وقبل بدء الرحلة بيومين أوضح هوراس كيميل في مقالة نشرها في وورلدبريس نيوز، أنّ الهدف من الرحلة هو اكتشاف ما إذا كان بلوتو يصلح قاعدة لسفن فضائية ضخمة وردت عنها الأنباء في الطبقة الجوية العليا. وقد أنكر الأستاذ أوستن هذا الخبر جملة وتفصيلاً.

فقد انطلقت سفينة الفضاء بالاس من واشنطن في الثاني من شهر شباط عام 2007، وعلى متنها ألفا ملاح اختارهم بعناية قادة الرحلة. وكان من ضمنهم مصادفة جميع ملاحي الرحلة السابقة في العام 1997 باستثناء سبعة أفراد. وقد جرى آخر اتصال بها قبل حلول منتصف ليل ذلك اليوم بوقت قصير، عندما أعلن الأستاذ

أوستن أنّ السفينة قد قطعت حوالى مليون ميل. وبعد هذا فشلت جميع محاولات الاتصال بها.

بعد مرور عشرة أعوام أي في العاشر من شباط عام 2017 كانت رحلة أخرى قدتها بنفسي وهدفها اكتشاف آثار بالاس، على متن ثلاث سفن هي سنطور وكليو وليستر. فوصلنا إلى كوكب بلوتو في الثامن عشر من كانون الثاني عام 2018 وبعد مرور شهر واحد قررنا العودة إلى الأرض، بعد أن درنا أربع دورات حول الكوكب. وفي تلك الأثناء التقطت السفينة كليو إشارات من السفينة بالاس، فاهتدينا إلى موقعها في الثاني من آذار عام 2018 وهي على بعد مليوني ميل من بلوتو. كانت جميع مصابيح السفينة مطفأة غير أنّ خلو سطحها الخارجي من أي دمار منحنا الأمل في العثور على بعض أفراد طاقمها على قيد الحياة. غير أنّنا لم نتلقِ أي استجابة. وفكرْتُ في استحالة ذلك وطلبْتُ من الملازم الثاني فيرمن أن يقوم بكسر باب الطوارئ في السفينة. ثم دخل بعد ذلك فريق تحت إمرتي إلى السفينة ووجدناها مهجورة تماماً. ولم نعثر على أي إشارة تدل على وقوع أعمال عنف، كما أنّ حالة ممتلكات طاقم السفينة كانت تشير إلى أنّهم لم يتوقعوا إخلاءها. فالعداد كان مملوءاً حتى التاسع من حزيران عام 2007، وقد أظهر أنّ السفينة قد قضت بعض الوقت على كوكب بلوتو وكانت عازمة على التوجه إلى نبتون. كما أنّ آلات التسجيل الآلية في السفينة واصلت تأدية وظيفتها بصورة اعتيادية منذ ذلك التأريخ، إلا أنّها أشارت إلى أنّ السفينة كانت تحلّق بحرية تامة في الفضاء. ولم تكن هناك أية إشارات تدل على اقتراب أي جسم غريب منها ما عدا نيزكاً أُبْعِدَ عنها يبلغ وزنه حوالى خمسين رطلاً، ما يشير إلى أنّ أبواب السفينة لم تفتح منذ مغادرتها بلوتو. وقد افترضت نظرية رئيس الفيزياويين في كليو أنّ طاقم السفينة تناثر ذرات

بفعل انفجار إشعاع كوني لا يؤثر إلا في الأجسام العضوية. غير أنّ هذه النظرية لم تثبت صحتها.

لقد انطفأت محركات السفينة على نحو اعتيادي في التاسعة والنصف من مساء يوم التاسع من حزيران وتوقفت على أثرها. وقد أثبتت الوقائع أنّ المحركات ما تزال صالحة للاستعمال تماماً.

أعيدت السفينة إلى الأرض بواسطة القبطان الملازم ميزمن ووصلت في العاشر من كانون الأول 2018. ولم تكشف التحريات التالية عن السر كما أنّ الرحلات التالية إلى بلوتو ونبتون فشلت في تقديم أي دليل جديد".

❖ ❖ ❖

إنّ وجهة نظر المحرر الحالي كما أوضحتها سابقاً، هي أنّ اختفاء السفينة كان عملاً مُدَبَّراً وأنّها عندما انطلقت من الأرض في شباط 2007، كان كل من على متنها يدرك أنّه لن تُكْتَبَ له العودة. ولم تستطع أي نظرية أن تدعم الحقائق. فليست هناك أية دلائل تفيد أنّ السفينة كانت ضحية هجوم مفاجئ، أو أنّ أجهزتها أعيد ترتيبها لإخفاء الدلائل. كما لا يوجد أي دليل يشير إلى أنّ ملاحي السفينة قرروا إقامة صرح حضارة جديدة على كوكب آخر. إذ لم يكن على متنها سوى ثلاث نساء. ومن شأن الرقم أن يكون أكبر من ذلك في حال التفكير في مثل هذا الأمر.

إنّ وجهة نظري تتلخص في أنّ الطبقة الحالية من طفيليات العقل تقدم دليلاً محدداً حول مصير السفينة. فالصفحات السابقة التي عالجت فيها موضوع الشرطة الكونية والمأخوذة من مذكرات أوستن غير المنشورة تبدو لنا أهم الصفحات. فهو يقول: كانت أقرب نقطة اتصال تبعد عنّا ما يقرب من أربعة آلاف مليون ميل وتتمثل في سفينة فضائية قادمة من أحد الكواكب.

وفي شهر تشرين الثاني من العام 1997، وهو الزمن الذي تعود إليه هذه الإشارة، كان بلوتو يقع على المسافة السابقة نفسها من الشمس وهي أربعة آلاف وخمسماية وسبع وستّين مليون ميل.

لهذا فمن المحتمل أنّ الذين يشير إليهم أوستن كانوا قريبين من بلوتو بالرغم من أنّ ذلك قد يعني أنّهم موجودون في أي اتجاه. هل يمكن أن يكون للشرطة الكونية قاعدة على بلوتو؟ إضافة إلى ذلك، من أين حصل كيميل على المعلومات التي تفيد أنّ الهدف الحقيقي للرحلة هو معرفة فيما إذا كان بلوتو قاعدة لسفن فضائية تشبه الصحون الطائرة التي سبق وشاهدها عدد كبير من الناس في أوائل هذا القرن؟ لقد مات كيميل في حادثة طائرة صاروخية قبل شهرين من انطلاق السفينة بالاس إلى بلوتو، ولم يكشف النقاب عن أصل الشائعة غير أنّه كان معروفاً كصحفي نزيه ومستقيم، التزم دائماً جانب الحقيقة، ويبدو من غير المحتمل أنّه قام ببساطة باختراع القصة.

أخيراً، لدينا ما دوّنه أوستن قبل شهر واحد فقط من بدء الرحلة، حيث أشار إلى أنّه فقد الاتصال ببقية البشر وأنّ المعركة ضد الطفيليات دفعته إلى معدل سريع في النمو. وفي ضوء الفقرة الخاصة بالشرطة الكونية فهل هناك أمر طبيعي أكثر من أن يقرر أوستن التخطيط لمغادرة الأرض والانضمام إلى الشرطة؟

وفوق كل شيء، هل هناك ما هو أشد غرابةً من إشارة أوستن المقتضبة جداً عن الشرطة الفضائية؟ إنّ أي فرد يتوقع أن يشير أوستن إلى المسألة مفصلاً. إنّ بعض دلائل صمته هذا توضحها مخطوطة داكوبيت ميزيس، وهو عضو آخر من أعضاء الرحلة الأصلية ومؤلف كتاب **نمو علم نفس العصر الذهبي**. لقد اختفى ميزيس هو الآخر على متن بالاس، غير أنّه ترك وراءه إيضاحاً لمحادثة جرت بينه وبين الأستاذ

رايش بعد أن أدركا وجود الشرطة الفضائية. وفيما يلي بعض ما دار بينهما:

لقد فكرنا في شكل هذه المخلوقات. فهل هي تشبهنا وهل لدينا أذرع وسيقان؟ أم أنّها تشبه حيوانات غريبة الشكل. أو تشبه الأسماك؟ أو الأخطبوط ربما؟ هل ستكتفي بتولي زمام السلطة على الأرض وتقيم السلام، أم أنّها ستتخذ إجراءات قمعية ضد الشعوب شأن هازارد وكاف؟

إنّ هذا المقطع الوارد أعلاه غريب تماماً فما الذي يدعوه إلى الافتراض أنّ الشرطة ستتولى زمام السلطة على الأرض؟ وهل تحدث أوستن إليها عن هذا الاحتمال؟ وهل تقرر في النهاية قيام أوستن ومساعديه بمعالجة أزمة كاف؟

شعرْتُ بالسعادة إزاء احتمال قيام هذه الحكومة الجديدة في الأرض. لقد انتاب الإنسان شعور منذ القرن الثامن عشر وبعد صرخة نيتشه المعروفة، بأنّه تُرِكَ وحيداً في هذا العالم الخاوي. وهو بهذا يشبه الطفل الذي استيقظ لتوه ذات صباح، ليجد من يخبره أنّ أباه قد توفي وأنّه ينبغي عليه أن يتحمل مسؤولية الأسرة. إنّ هذا الإحساس بالحرمان من الأب إنّما هو من أعظم الصدمات النفسية التي يمكن للمرء أن يقاسيها. ونحن نتذكر جميعاً هذا الشعور الذي كان ينتابنا أيام الدراسة، عندما كان العمل المثابر يدر علينا الهدايا والمكافآت في نهاية الفصل، والثناء من مدير المدرسة والاستحسان ممن هم أكبر سناً من التلاميذ.

"وعندما تغادر المدرسة بعد ذلك لا تجد من يعمل معك من موقع أعلى. بل تصبح وحيداً ولا بد لي من الإقرار أنّني حاولت الانضمام إلى صفوف الجيش إثر مغادرتي المدرسة لمجرد أن يظل الشعور بأنّني موجود ضمن الجماعة ينتابني ويتملكك الشعور بالخواء واللاجدوى من

كـل شـيء. إنّ هـذا حقـاً مـا يكمـن وراء الإفـلاس المعـنوي في القـرن العـشرين. والـيوم إذ ينتهـي كـل شيء، فهناك قوى عظمى أكبر بكثير من طاقـة الإنـسان، قـوى نـستطيع أن ننظر إليها بعين التقدير – إنّ الحياة من شـأنها أن تغـدو ذات معنـى ثانـية وأنّ الفـراغ سـوف يمتلـئ – وفي وسـع الجنس البـشري أن يعـود ثانـية إلى مقاعـد الدراسة. وهـذا جائـز طالما أنّ الأكثرية هم من تلاميذ المدارس؟"

ولم يوافقني رايش وسألني قائلاً:

– ألا تعتقد أنّ تلك هي مهمتنا؟

فقلت له:

– كـلا. إنّـني أفضل التعلُّم على تعليم الآخرين. وعند هذه النقطة قاطع أوستن بملاحظة تقول:

– إنّـني أتفـق مـع رايـش فـلا شيء أكثر مدعاة للخطر على الجنس البـشري مـن الاعـتقاد أنّ شـؤونه أصـبحت في أيـدي كائـنات مـن طـراز السوبرمان.

أمـا بالنسبة إليَّ، فإنّني أعتقد أنّ هذا هو السبب الذي جعل أوستن يـرفض طلـب المـساعدة مـن شـرطة الفـضاء. كمـا أنّـه السبب نفسه الذي جعلـه يقـرر أنّ الـوقت قـد حـان لكـي يختفـي هـو الآخـر، ويختفي بطريقة تجعل البشرية غير متأكدة من موته.

وطالمـا يـبدو مـؤكداً أنّ أي دلـيل آخـر لـن يظهـر مستقبلاً، فإنّـنا لا نملك خياراً سوى أن نولي اهتماماً كبيراً لهذا الموضوع.

❖ ❖ ❖

كولن ولسون

طفيليات العقل

رواية

«.. أما بناء الرواية فيتخذ إطار الرواية الوثائقية التي تستند إلى مجموعة من المستنسخات والمخطوطات والمذكرات والتسجيلات الصوتية، إلا أن هذه في الواقع لا تعدو مجرد خدعة فنية، فالرواية تمتلك رغم هذا المظهر بناء سردياً تضامنياً، إلا أن كل هذه العناصر الوثائقية تدخل ضمن نسيج العالم الروائي.

وعلى الرغم من أن الرواية تبدأ باهتمامات ذات طابع آثاري (أركيولوجي)، إلا أنها سرعان ما تنتقل إلى اهتمامات ذات طابع سيكولوجي بحت يتركز في الإيحاء بوجود ما يسميه المؤلف «طفيليات العقل» داخل العقل البشري التي تقوم بتدمير قوى الإنسان العقلية ودفعه إلى الجنون والانتحار. لذا يخوض أبطال الرواية حرباً طويلة ومعقدة ضد هذه الجيوش اللامرئية من طفيليات العقل التي تتخذ أساليب واستراتيجيات مختلفة منها امتلاك عقول بعض القادة السياسيين والعسكريين ودفعهم إلى شن حروب خطيرة. وفعلاً تحدث هذه الحرب بين قوتين عسكريتين يكون دافعها فعالية «طفيليات العقل». ثم تُحسم بالقضاء على هذه الطفيليات. ورغم أن الرواية تنتهي إلى النجاح النسبي الذي يحققه الأبطال (وهم نخبة النخبة من العقول البشرية فقط) تتخذ الرواية مساراً جديداً ينتهي بفقدان السفينة الفضائية التي تُقل جميع أبطال الرواية الرئيسيين تاركين وراءهم أسئلة صعبة ومعقدة».

من مقدمة المترجم

علي مولا

ISBN 978-9953-87-393-0
9 789953 873930

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف